

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال
الفكرية



محمود محمد شاكر



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

رسالة في الطريق
إلى ثقافتنا

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

محمود محمد شاكر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ :

« أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ » (١)

الحمد لله حمداً يُبَلِّغُنِي رضاهُ ، وإن كَانَ جَهْدُ الْحَمْدِ لَا يَفِي بِشُكْرِ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ نِعَمِهِ . اللَّهُمَّ تَجَاوَزْ عَنْ تَقْصِيرِي فِي حَمْدِكَ وَمَرْضَاتِكَ . اللَّهُمَّ إِنِّي فَقِيرٌ فَأَغْنِنِي ، وَضَعِيفٌ فَفَقِّوْنِي ، وَخَائِرٌ فَسَدِّدْنِي ، وَمَرِيضٌ فَاشْفِنِي ، وَجَاهِلٌ فَعَلِّمْنِي ، وَعَاصٍ مُذْنِبٌ فَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَاةً أَرْزِلْ بِهَا إِلَى مَغْفِرَتِكَ ، وَسَلِّمْ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا يَحْشُرُنِي فِي زُمْرَةِ أَوْلِيَائِهِ ، وَيُدْخِلُنِي فِي شَفَاعَتِهِ يَوْمَ لَا شَفِيعَ إِلَّا بِإِذْنِكَ . وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى أَبَوَيْهِ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ، وَعَلَى سَائِرِ الْمُخْلِصِينَ مِنْ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ . رَبِّ آغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ .

...

كَلِمَةٌ لَا بُدَّ مِنْهَا ، إِلَى قَارِئِ كِتَابِي هَذَا : « الْمُنْتَبَى »

لِكَيْ تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ

(١) هو من حديث أبي سعيد الخدري ، من خطبة خطبها رسول الله ﷺ ، رواها أحمد في المسند بطولها ٣ : ١٩ ، والترمذي في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب ما جاء ما أخبر به النبي ﷺ بما هو كائن إلى يوم القيامة » ، ورواه مختصراً كما أثبتته أحمد في المسند ٣ : ٥ ، ٧١ ، وابن ماجه في السنن ، « كتاب الفتن » ، « باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » .

١ - أعلم أنني قضيت عشر سنواتٍ من شبالي ، في حيرةٍ زائغة ، وضلالةٍ مُضنيةٍ ، وشكوكٍ مُمرقةٍ ، حتى خفتُ على نفسي الهلاك ، وأن أخسرَ دُنْيَايَ وآخِرَتِي ، مُحْتَقِباً إثمًا يَقْدِفُ بِي فِي عَذَابِ اللَّهِ بِمَا جَنَيْتُ . فكانَ كُلُّ هَمِّي يومئذٍ أن أَلْتَمِسَ بَصِيصاً أَهْتَدِي بِهِ إِلَى مَخْرَجٍ يُنْجِنِي مِنْ قَبْرِ هَذِهِ الظُّلُمَاتِ الْمُطْبِقَةِ عَلَيَّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . فمِنذُ كُنْتُ فِي السَّابِعَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَمْرِي سَنَةَ ١٩٢٦ ، إِلَى أَنْ بَلَغْتُ السَّابِعَةَ وَالْعَشْرِينَ سَنَةَ ١٩٣٦ ، كُنْتُ مُنْغَمِساً فِي عِمَارِ حَيَاةٍ أَدَبِيَّةٍ بَدَأْتُ أَحْسُ إِحْسَاساً مُبْهِمًا مُتَصَاعِداً أَنَّهَا حَيَاةٌ فَاسِدَةٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ . (١) فلم أجدُ لِنَفْسِي خُلَاصاً إِلَّا أَنْ أَرْفُضَ مُتَخَوِّفاً حَذِراً ، شَيْئاً فَشِئاً ، أَكْثَرَ الْمَنَاهِجِ الْأَدَبِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْدِينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ يَوْمَئِذٍ تَطْعَى كَالسَّيْلِ الْجَارِفِ ، يَهْدِمُ السُّدُودَ ، وَيُفَوِّضُ كُلَّ قَائِمٍ فِي نَفْسِي وَفِي فِطْرَتِي .

ويومئذٍ طَوَيْتُ كُلَّ نَفْسِي عَلَى عَزِيمَةٍ حَذَاءَ مَاضِيَةٍ : أَنْ أَبْدَأُ ، وَحِيداً مُنْفَرِداً ، رَحْلَةً طَوِيلَةً جَدًّا ، وَبَعِيدَةً جَدًّا ، وَشَاقَّةً جَدًّا ، وَمُثِيرَةً جَدًّا . بَدَأْتُ بِإِعَادَةِ قِرَاءَةِ الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ كُلِّهِ ، أَوْ مَا وَقَعَ تَحْتَ يَدِي مِنْهُ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْأَصْحَحِ ، قِرَاءَةً مَتَأَنِّيَةً طَوِيلَةً الْأَنَاءِ عِنْدَ كُلِّ لَفْظٍ وَمَعْنَى ، كَأَنِّي أَقْلِبُهُمَا بِعَقْلِي ، وَأُرَوِّزُهُمَا (أَيْ : أَزْنِيهِمَا مُخْتَبِراً) بِقَلْبِي ، وَأَجُسُّهُمَا جَسًّا بَبْصَرِي وَبَبْصِيرَتِي ، وَكَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَحَسَّسَهُمَا بِيَدِي ، وَأَسْتَنْشِي (أَيْ : أَشْمُ) مَا يَفُوحُ مِنْهُمَا بِأَنْفِي ، وَأَسْمَعُ دَبِيبَ الْحَيَاةِ الْخَفِيِّ فِيهِمَا بِأَذْنِي = ثُمَّ أَتَذَوَّقُهُمَا تَذَوُّقًا بِعَقْلِي وَقَلْبِي وَبَبْصِيرَتِي وَأَنَا مِلِّي وَأَنْفِي وَسَمْعِي وَلِسَانِي ، كَأَنِّي أَطْلُبُ فِيهِمَا خَبِيئاً قَدْ أَخْفَاهُ الشَّاعِرُ الْمَاكِرُ بِفَنِّهِ وَبِرَاعَتِهِ ، وَأَتَدَسَّسُ إِلَى دَفِينٍ قَدْ سَقَطَ مِنَ الشَّاعِرِ عَفْوًا أَوْ سَهْوَاً تَحْتَ نَظْمِ كَلِمَاتِهِ وَمَعَانِيهِ ، دُونَ قَصْدٍ مِنْهُ أَوْ تَعَمُّدٍ أَوْ إِرَادَةٍ . (٢)

(١) انظر مقدمة كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ١٠ ، ١١ ، ومواضع أخر مما كتبت .

(٢) قد حسمتُ قضية « التذوق » ، ولم سَمِّيتُ منهجِي منهج « التذوق » ، فِي كَلِمَتَيْنِ نَشَرْتُهُمَا فِي مَجْلَةٍ =

٢ - لا تَقُلْ لنفسك : « هذا مَجَازٌ لفظيٌّ » ! كَلَّا ، بل هو أشبهُ بحقيقةٍ أيقنتُ بها ، لأتَى سَخَرْتُ كُلَّ ما فَطَرَنِي اللهُ عليه ، وأيضاً ، كُلَّ معرفةٍ تُنالُ بالسَّمْعِ أو البَصَرِ أو الإحساس أو القراءة ، وكُلَّ ما يدخُلُ في طَوِّقٍ من مراجعةٍ واستقصاءٍ بلا تهاونٍ أو إغفالٍ = سَخَرْتُ كُلَّ سَلِيْقَةٍ فُطِرْتُ عليها ، وكُلَّ سَجِيَّةٍ لَأَنْتَ لِي بالإدراكِ ، لكَيْ أُنْفِذَ إلى حقيقةِ « البَيانِ » الذي كَرَّمَ اللهُ به آدمَ عليه السلام وأُنبِئَهُ من بعده . وهذا أمرٌ شاقٌّ جداً ، كانَ ، ومُثْبِرٌ جداً ، كانَ ، ولكن المَطلَبَ البعيدَ هَوْنٌ عندِي كُلِّ مشقَّةٍ وضئى .

٣ - اكتسبْتُ يومئذٍ بعضَ الخبرةِ بلغةِ « الشعرِ » ، وبفنِّ الشعراءِ وبراعاتِهِم . ثُمَّ أُنْفَتَحَ لِي ، في خلالِ ذلك ، بابٌ آخرٌ من النَّظَرِ . قلتُ لِنَفْسِي : « الشعرُ » كلامٌ صادرٌ عن قلبِ إنسانٍ مُبينٍ عن نفسه . فكلُّ « كلامٍ » صادرٍ عن إنسانٍ يريدُ الإبانةَ عن نفسه ، خَلِيقٌ أَنْ أُجْرِيَ عليه ما أُجْرِيَتْهُ على « الشعرِ » من هذا « التذوقِ » الشامِلِ الذي وصفته آنفاً . فأخذتُ أَهْبَتِي لتطبيقِ هذا « التذوقِ » على كُلِّ كلامٍ ، ما كانَ هذا الكلامُ . فأقدمْتُ إقدامَ الشبابِ الجريءِ على قراءةِ كُلِّ ما يقع تحتَ يَدِي من كُتُبِ أسلافنا : من تفسيرٍ لكتابِ اللهِ ، إلى علومِ القرآنِ على اختلافها ، إلى دواوينِ حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ وشُرُوحها ، إلى ما تَفَرَّعَ عليه من كُتُبِ مصطلحِ الحديثِ وكتبِ الرجالِ والجرحِ والتعديلِ ، إلى كُتُبِ الفقهاءِ في الفقه ، إلى كتبِ أصولِ الفقه وأصولِ الدينِ (أى : علمِ الكلامِ) ، وكُتُبِ المللِ والنحلِ ، ثم كتبِ الأدبِ وكتبِ البلاغةِ ، وكتبِ النحوِ وكتبِ اللغةِ ، وكُتُبِ التاريخِ ، وما شئتُ بعد ذلك من أبوابِ العلمِ . وعَمَدْتُ في

= الثقافة في العديدين : ٦١ (أكتوبر سنة ١٩٧٨) / ٦٣ (ديسمبر سنة ١٩٧٨) ، وأتَى لا أعنى به ما يجري على ألسنة الكتاب : « يتذوقُ الجمالَ » و « يتذوقُ الفنَّ » ، فهذا كلامٌ غيرُ دالٍّ على منهج . وليس هذا مكانَ بيانه مرةً أخرى . ولم أتمَّ كتابة هذه المقالات ، وسأُنشرها قريباً بعنوانها : « المتنبى ليتنى ما عرفته » .

رحلتى هذه إلى الأقدم فالأقدم . كُلُّ إرْثِ آبَائِي وَأَجْدَادِي ، كُنْتُ أَقْرؤُهُ عَلَى أَنَّهُ إِبَانَةٌ مِنْهُمْ عَنْ حَبَايَا أَنْفُسِهِمْ بِلُغَتِهِمْ ، عَلَى اخْتِلَافِ أَنْظَارِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَمَنَاهَجِهِمْ . وَشَيْئاً فَشَيْئاً انْفَتَحَ لِي الْبَابُ يَوْمئِذٍ عَلَى مِصْرَاعِيهِ . فَرَأَيْتُ عَجَباً مِنَ الْعَجَبِ ، وَعَثَرْتُ يَوْمئِذٍ عَلَى فَيْضٍ غَزِيرٍ مِنْ مُسَاجَلَاتٍ صَامِتَةٍ خَفِيَّةٍ كَالْهَمْسِ ، وَمَسَاجِلَاتٍ نَاطِقَةٍ جَهِيرَةٍ الصَّوْتِ ، غَيْرَ أَنَّ جَمِيعَهَا إِبَانَةٌ صَادِقَةٌ عَنْ هَذِهِ الْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ .

أَمَدَّتْنِي هَذِهِ التَّجَرِبَةُ الْجَدِيدَةُ بِخِبْرَاتٍ جَمَّةٍ مُتَبَايِنَةٍ مُتَشَعِّبَةٍ ، أَتَاكَتْ لِي أَنَّ أَجْعَلَ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » مِنْهَجاً جَامِعاً شَامِلاً مُتَشَعِّبَ الْأَنْحَاءِ وَالْأَطْرَافِ ، يَزْدَادُ مَعَ تَطَوُّلِ الْأَيَّامِ رَحَابَةً وَسَعَةً ، وَحِدَّةً وَمِضَاءً ، وَنَفَاداً وَدِقَّةً ، وَشُمُولاً وَاسْتِقْصَاءً .

٤ - وَلَا أَرْغُمُ ، مَعَاذَ اللَّهِ ، أَنِّي أَبْتَدَعْتُ هَذَا الْمَنْهَجَ ابْتِدَاعاً بَلَا سَابِقَةٍ وَلَا تَمْهِيدٍ ، فَهَذَا خَطْلٌ وَتَبْجُحٌ . بَلْ كُلُّ مَا أَرْغُمُهُ أَنِّي بِالْجُهْدِ وَالتَّعَبِ ، وَبِمَعَانَاةِ التَّفْتِيشِ فِي هَذَا الرُّكَّامِ مِنَ الْكَلَامِ ، جَمَعْتُ شَتَاتَ هَذَا الْمَنْهَجِ فِي قَلْبِي ، وَأَصَلْتُ لِنَفْسِي أَصُولَهُ ، مَعَ طَوْلِ التَّنْقِيبِ عَنْهُ فِي مَطَاوِي الْعِبَارَاتِ الَّتِي سَبَقَ بِهَا الْأُئِمَّةُ الْأَعْلَامُ مِنْ أَصْحَابِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، وَهَذَا الْعِلْمِ ، فِي مَبَاحِثِهِمْ وَمَسَاجِلَاتِهِمْ وَمُثَاقِفَاتِهِمْ وَمَا يَتَضَمَّنُهُ كَلَامُهُمْ مِنَ النِّقْدِ وَالِاحْتِجَاجِ لِلرَّأْيِ . وَكُلُّ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، كَانَ خَفِيّاً فَاسْتَشَفَّقْتُهُ ، وَذَفِيناً فَاسْتَنْبَطْتُهُ ، وَمَشْتَتِئاً فَجَمَعْتُهُ ، وَمَفَكِّكاً فَلَاءَمْتُ بَيْنَ أَوْصَالِهِ ، حَتَّى اسْتَطَعْتُ بَعْدَ لَأْيٍ أَنْ أُمَهِّدَ لِفِكْرِي طَرِيقاً لَاحِجاً مُسْتَبْتَباً يَسِيرُ فِيهِ ، أَيُّ صَبْرَتِهِ « مِنْهَجاً » التَّزَمْتُ بِهِ فِيمَا أَقْرَأُ وَمَا أَكْتُبُ .

وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ كُنْتُ أَتَوَهَّمُ فِي سَنَةِ ١٩٣٥ حِينَ فَرَعْتُ مِنْ إِجْرَاءِ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الشَّعْرِ » عَلَى كُلِّ كَلَامٍ غَيْرِ الشَّعْرِ ، أَنِّي قَدْ سَبَقْتُ إِلَى ذَلِكَ ، حَتَّى كَانَتْ سَنَةُ ١٩٥٦ ، أَيُّ بَعْدَ أَكْثَرِ مِنْ عَشْرِينَ سَنَةً ، حِينَ طُبِعَتْ « الرِّسَالَةُ الشَّافِيَّةُ » لِلْإِمَامِ

الجُرجاني ، ^(١) (عبد القاهر بن عبد الرحمن الجُرجاني ، المتوفى سنة ٤٧٤ تقريباً) ، فوقفت على فصل نفيس جداً كتبه الإمام الجرجاني الكبير ، هو أوضح ما قرأته قط ، في إجراء « التذوق » على كُلِّ كلام ، في كُلِّ عِلْمٍ ، مهما ظننت أنه أبعد عِلْمٍ من إجراء « التذوق » عليه . وكلامُ هذا الإمام الجليل ، وإن لم يكن صريحاً كُلِّ الصراحة في الدلالة على منهجِي ، إلا أنه أشبه شيء به . و « الرسالة الشافية » رسالة في إعجاز القرآن ، من غير الوجه الذي بنى عليه كتابه « دلائل الإعجاز » . وهذا الفصل من الرسالة ، ^(٢) بيان لحال المعاني : « وأن الشاعر يسبق في الكثير منها ، إلى عبارة يُعلم ضرورة أنها لا يجيء في ذلك المعنى إلا ما هو دونها ومنحط عنها ، حتى يُفضي له بأنه غلب عليه واستبد به » ، وذكر أشعاراً قد بلغت الغاية في معناها ، ولم يبق لطالب بعدها مطلب . ثم قال (ص : ٦٠٤ / الفقرة : ٢٩) :

« وكذلك السبيل في المنشور من الكلام ، فإنك تجد متى شئت فصلاً تعلم أن لن يُستطاع في معانيها مثلاً . فمِمَّا لا يخفى أنه كذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كُلِّ أمرٍ ما يُحسِنه » ، وقول الحسن (البصري) رحمه الله عليه : « ما رأيت يقيناً لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من الموت » ، ولن نَعْدَم ذلك إذا تأملت كلامَ البلغاء ونظرت في الرسائل . »

ثم قال عبد القاهر بعقب ذلك مباشرة = وهنا موضع الاستدلال ، وفيه نظرٌ جيد ظاهر الجودة والبراعة والتيقظ :

(١) نشرها الأستاذان محمد خلف الله أحمد ، ومحمد زغلول سلام ، في سلسلة « ذخائر العرب » (دار المعارف) . ثم نشرتها أنا ملحقاً بكتاب « دلائل الإعجاز » للجرجاني في سنة ١٩٨٤ ، (مكتبة الخانجي بالقاهرة) .

(٢) يقع هذا الفصل في طبعتي لكتاب « دلائل الإعجاز » من ص : ٦٠٢ إلى ص : ٦١٠ .

« ومن أخصّ شيء يُطلَبُ ذلك فيه ، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعُ في العلوم المستخرجة ، فإنّا نجدُ أربابها قد سَبَقُوا في فصول منها إلى ضَرْبٍ من النَّظْمِ واللفظ ، أعْيَا من بعدهم أن يطلبوا مثله ، أو يَجِئُوا بشيئه له ، فجعلوا لا يزيدون على أن يحفظوا تلك الفصول على وجوهها ، ويؤدُّوا ألفاظهم فيها على نظامها وكما هي . وذلك مثل قول سيبويه في أوّل الكتاب ، (١ : ٢) :

« وأما الفعلُ فأمثلةٌ أُخِذَتْ من لفظ أحداثِ الأسماء ، وبُنِيَتْ لما مضى ، وما يكونُ ولم يَقَعْ ، وما هو كائنٌ لا ينقطع . »

= « لا نعلمُ أحداً أتى في معنى هذا الكلام بما يوازئُه أو يُدانيه ، ولا يقعُ في الوهم أيضاً أن ذلك يُسْتَطَاع . ألا ترى أنّه إنّما جاء في معناه قولهم : « والفعلُ ينقسم بأقسام الزمان ، ماضٍ وحاضرٌ ومستقبلٌ » ، وليس يخفى ضَعْفُ هذا في جنبه وقصوره عنه . ومثلهُ قوله (أى قول سيبويه أيضاً في الكتاب ١ : ١٥) : « كأنهم يُقَدِّمون الذى بيّانه أهمُّ لهم ، وهم بشأنه أَعْنَى ، وإن كانوا جميعاً يُهَمِّمَانِهِمْ وَيَعْنِيَانِهِمْ » ، وإذا كان الأمرُ كذلك ، لم يمتنع أن يكونَ سبيلُ لفظ القرآن ونظمه هذا السبيل ، وأن يكونَ عجزُهم عَن أن يأتوا بمثله في طريق العَجْزِ ، كما ذكرنا ومثّلنا » ، انتهى كلام عبد القاهر .

٥ - فهذا الإمامُ البارِعُ البِقْظُ ، لم يَجِدْ = وهو يعالجُ قضيةَ إعجاز القرآن العظيم ، ويمارسُ تطبيقَ فكرته المبتدعة التى سبق بها الناس ، وهى قضية « اللفظ والنَّظْم » ، وهما عمودُ مذهبه في إعجاز القرآن وفي البلاغة والكلام البليغ = لم يجد غَضَاضَةً في تطبيق فكرته في الإعجاز ، على حدٍّ من حدود « الفعل » ، وهو الحد الذى كتبه إمامُ النحو سيبويه ، ولم يستنكف أن يجعله قريناً للكلمات الجامعة الشريفة ، التى

يُهْدَى إليها شاعرٌ مبينٌ أو ناثرٌ بليغٌ ، ولم يتوقَّف في الحُكم عليها بأنها من الكلمات الشريفة الجامعة ، ممَّا لا يقع في الوهم أنَّ أحداً يستطيع أن يأتي في هذا المعنى بكلامٍ يُوازنها أو يدانيها ، وأنها كلامٌ بيِّنٌ قد بلغ الغاية في البيان ، « ولم يبق لطالبٍ بعده مُطْلَبٌ » .

وعبد القاهر حُكماً لم يبيِّن لنا مآثاه ولا تفصيله حين قال : إن المعنى الذى جاء فى معنى كلام سيبويه هو قولهم : « والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ وحاضرٍ ومستقبلٍ » ، ثم قال : « وليس يخفى ضعف هذا فى جنبه وقصوره عنه » ، ولم يزد على هذا شيئاً . وقبل كلِّ شيء ، فهذا الذى استضعفه إلى جنب كلام سيبويه ، إنما هو نصُّ كلام أستاذه وإمامه الذى يُعَالَى فى أستاذيته ويقدمه تقدماً على سائر النحاة ، أبى على الفارسيّ فى كتابه « الإيضاح » فى النحو ، والذى عُنى هو نفسه بشرحه شرحين : أحدهما كتاب « المُعْنَى » ، وهو شرح مطوّل فى ثلاثين مجلّدةً ، والآخر هو « المقتصد » وهو مختصرٌ منه فى مجلّدتين ، ولم أجد عبد القاهر فى « المقتصد » ، ^(١) تعرّض لنقد حدِّ شيخه الفارسيّ ، ولا بيّن لنا عن وجه ضعفه أو قصوره . ووجدته صعباً عسيراً أن يُدرك القارئ مآثى هذا الحكم ، وإن كان عبد القاهر قد قال إنه « ليس بخفيٍّ » ، مع أنه خفيٌّ بلا شكٍّ فى خفائه . فرأيتُه واجباً أن أجتهد اجتهداً فى بيان مآثى هذا الحكم ، لكى يتّضح لك معناه فى كلام عبد القاهر . ^(٢)

(١) انظر كتاب « المقتصد » لعبد القاهر ١ : ٨٢ ، ٨٣ ، طبع فى العراق سنة ١٩٨٢ .

(٢) الآن ، وأنا أطبع الكتاب ، وإفانى ولدى الكريم الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، بالصفحات الأولى من شرح كتاب سيبويه للإمام أبى سعيد السيرافى القاضى النحوى (الحسن بن عبد الله بن المربان / ٢٨٨ - ٣٦٨ هـ) فلم أَرُه صنع شيئاً فى شرح عبارة سيبويه ، وإنما هو ما درج عليه النحويّون فى أقسام زمان الفعل : « ماضٍ ، وحاضرٍ ، ومستقبلٍ » لا غير ، فيكون ما كتبتُه لك بعدُ أوّل بيانٍ عن جميع عبارة سيبويه بلا إغفالٍ لشيءٍ منها كما أغفلوه .

فسيبويه حينَ حدَّ « الفعل » في أول كتابه ، لم يُردْ أمثلته التي هي عندنا : فعلٌ ماضي نحو « ذهب » ، ومضارعٌ نحو « يذهب » ، وأمرٌ نحو « اذهب » ، بل أراد بيانَ الأزمنة التي تقترب بهذه الأمثلة كيف هي في لسان العرب ، فجعلها ثلاثة أزمنة :

فالزمن الأول ، هو المقترب بالفعل الماضي الذي يدلُّ على فعلٍ وَقَعَ قبل زمن الإخبار به كقولك : « ذهب الرجل » ، ولكن يخرجُ منه الفعل الذي هو على مثال الماضي أيضاً ، ولكنه لا يدلُّ على وقوع الحدث في الزمن الماضي ، نحو قولك في الدعاء : « غفر الله لك » ، فإنه يدخل في الزمن الثاني ، كما سأبيِّنُه بعدُ .

وأما الزمن الثاني ، فهو الذي عبَّر عنه سيبويه بقوله بعد ذلك : « وما يكون ولم يَقَعْ » ، وذلك حين تقول آمراً : « أخرج » ، فهو مقتربٌ بزمنٍ مُبْهِمٍ مُطْلَقٍ مُعْلَقٍ لا يدلُّ على حاضر ولا مستقبل ، لأنه لم يقع بعدُ خروجٌ ، ولكنه كائنٌ عند نفاذِ « الخروج » من المأمور به = ومثله النهي حين تقول ناهياً : « لا تخرج » ، فهو أيضاً في زمنٍ مُبْهِمٍ مُطْلَقٍ مُعْلَقٍ ، وإن كان على مثال الفعل المضارع ، فقد سُلِبَ الدلالة على الحاضر والمستقبل لأنه لم يَقَعْ ، ولكنه كائنٌ بامتناع الذي نُهِى عن الخروج = ومثله أيضاً في مثال المضارع في قولنا : « قاتل النفس يُقْتَل » ، والزَّائِي المُحْصَنُ يُرْجَمُ » فهما مثالاين مضارعان ، ولا يدلَّان على حاضر ولا مستقبل ، وإنما هما خبران عن حُكْمٍ ، ولم يَقَعَا عند الإخبار بهما ، فهما في زمنٍ مُبْهِمٍ مُطْلَقٍ مُعْلَقٍ ، وهما كائنان لحدوث القتل من القاتل عند القصاص ، وحدوث الزنا من الزاني المُحْصَن عند إنفاذِ الرَّجْم = ويدخلُ في هذا الزمن أيضاً نحو قولك : « غفر الله لك » في الدعاء ، وهو على مثال الماضي ، فإنك لا تريد إخباراً عن غُفْران مَضَى من الله سبحانه ، ولكن تريد غُفْراناً من الله يكون ، ولكنه لم يقع بعدُ ، وترجو بالدعاء أن يقع .

وأما الزمن الثالث ، فهو الذى عبّر عنه سيبويه بقوله : « وما هو كائن لم ينقطع » ، فإنه خبرٌ عن حَدَثٍ كائنٍ حينَ تجربِ به ، كقولك : « محمد يضربُ ولده » ، فإنه خبر عن ضَرْبٍ كائنٍ حينَ أخبرتَ فى الحال ولم ينقطع الضربُ بعد مُضَيِّ الحال إلى الاستقبال = ويُلاحِظُ بهذا الزمن الثالث أيضاً مثالُ الفعل الماضى كقوله تعالى : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » ، فهو خبرٌ عن مَعْفَرَةٍ كانت ولا أَوَّلَ لها ، وهى كائنةٌ أبداً لا انقطاعَ لها ، لأنها من صِفَاتِ اللَّهِ سبحانه هو الأولُ والآخِرُ .

وبهذا البيان المُوجِز الذى أرجو أن أكون قد وُفِّقتَ فى بيانه ، يتبيّن لك صِدْقُ عبد القاهر = بلا إِبَانَةٍ كانت منه = فى الحُكم على عبارة أبنى على الفارسيّ بالقصور والضعف إلى جانب عبارة سيبويه الجامعة المُبَيِّنَة ، فإن أبا على الفارسيّ ، مع نَصِّه فى عبارته على « أقسام الزمان » حيث قال : « والفعل ينقسم بأقسام الزمان : ماضٍ ، وحاضرٌ ، ومستقبلٌ » ، فإنه أسقط الزمن الثانى كُلَّهُ ، وهو الزمن المبهم المُطلق المُعلّق الذى دَلَّتْ عليه عبارة سيبويه ، وكذلك فعلُ سائر النحاة ، فقد أسقطوا هذا الزمن إسقاطاً كاملاً ، ولم يُعْنَوْا به أئى عناية فى حدِّ « الفعل » ، فلم يذكروا بأى زمنٍ يقترن فعلُ الأمر والنهى = ولم يذكروا اقترانَ هذا الزمن الثانى بالفعل المضارع = ولا اقترانه بالفعل الماضى أيضاً فى الدعاء = ولم يذكروا فى حدّهم هذا دخولَ الفعل الماضى فى الزمن الثالث ، زمن الفعل المضارع فى الحال والاستقبال ، كما مثَّلتُ .

...

فأنت تراه عياناً الآن ، أن سيبويه قد استطاع فى جملةٍ واحدةٍ قصيرةٍ لا تتجاوز سطرًا واحداً ، استطاع أن يُلَمَّ بجميع الأزمنة المقترنة بأمثلة الفعل ، دون أن يُخَلَّ بشيء

منها . فهي جملة محكمة شديدة الأحكام ، عجز النحاة من بعده أن يلمّوا بها في حدودهم التي كتبوها عن حدّ الفعل . فأى رجل مُبين كان سيبويه !

• وأقول أنا : كان سيبويه رحمه الله ، حين كتب هذه العبارة وأمثالها في كتابه ، في قِمة الصفاء ، وفي ذِرْوَةِ اليَقْظَةِ ، تَسْمُو به أنبل عاطفة من الوفاء لشيخه الخليل بن أحمد الفراهيدي ، (المتوفى سنة ١٧٥) ، أو قبلها) والذي مات ولم يَجْمَعْ علمه المستفيض في كتاب جامع . فبعد موت الخليل = كما حَدَّثَنَا نصر بن علي بن نصر بن علي الجهضمي رواية عن أبيه = أن سيبويه لقي أباه علي بن نصر بن علي الجهضمي (المتوفى سنة ١٨٧) ، وهو قرين سيبويه في الأخذ عن الخليل والاختصاص به ، فقال له سيبويه : « يا علي ، تعال نتعاون على إحياء علم الخليل » = فتعاس علي ، (أى تأخّر ولم يتقدّم) ، وخذل سيبويه فيما أراده ، فحَمَى قلب سيبويه ، وعزم على أن ينفرد بإحياء علم الخليل ، فأنبرى بكل ما في قلبه من الديانة ، والأمانة والحب والإخلاص ، مُستَقِلًّا وحده بالعِبء ، وحلّق وحده كالْعُقَابِ في جوّ العربية ، يُجَلِّي بعينه النافذتين كُلَّ علم الخليل وغير الخليل ، وكلّ أساليب العربية ، وينقض على المعاني بضبط وإحكام كالْحِكَمِ والعُقَابِ الصيود ، بكل ما في قلبه من القُدرة على الإبانة والقُدرة على الاستبانة . وهذا ظاهرٌ جلّي لمن يقرأ كتاب سيبويه بتدوّق وتأمل وأناة ، ولكن أين هذا القارئ ! فمن أجل ذلك كان كتاب سيبويه بحراً زخّاراً ، لم يبلُغ مبلغه في الجودة والبيان عن معاني النحو نحو واحدٍ ممن جاء بعده وعبّ من عبّاه . وحُقّ لعبد القاهر الإمام أن يجرى عليه مذهبه في قضية « النظم واللفظ » ، وأن يختار من عباراته عبارةً مُبينّة جامعة ، يجعلها قرينةً لأشرف العبارات المبينة في شعر الشعراء ، وفي كلام البلغاء ، كعَلِي رَضِيَ اللهُ عنه ، والحسن البصري رحمه الله .

٦ - أَظُنُّنِي قَدْ أَثْقَلْتُ عَلَيْكَ ، أَيُّهَا الْقَارِئُ لِكِتَابِي هَذَا : « الْمَتْنِيُّ » ، وَأَبْعُدْتُ بِكَ الرَّحْلَةَ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَبْعُدْ بِكَ ، فِي الْحَقِيقَةِ ، لِأَنِّي أَرَدْتُ أَنْ تَقِفَ بِالِدَلِيلِ الْوَاضِحِ ، عَلَى أَنَّ الْمَنْهَجَ الَّذِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْهِّدَهُ لِفِكْرِي ، كَانَ نَابِعاً مِنْ صَمِيمِ الْمَنَاجِجِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي سَنَّ لَنَا آبَاؤُنَا وَأَسْلَافُنَا طُرُقَهَا = وَأَنْ كُلَّ جُهْدِي فِيهِ ، هُوَ مَعَانَاةٌ كَانَتْ مَنِيَّ لَتَبِيْنُ دُرُوبَهَا وَمَسَالِكَهَا ، ثُمَّ إِزَالَةُ الْغُبَارِ الَّذِي طَمَسَ مَعَالِمَهَا ، ثُمَّ أَنْ أَجْمَعَ مَا تَشَتَّتَ أَوْ تَفَرَّقَ مِنْ أَسَالِيِبِهَا ، مُعْتَمِداً عَلَى دَلَالَاتِ اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ مَخْبُوءٌ تَحْتَ أَلْفَاظِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَمُسْتَكْرَنٌ فِي نَظْمِ هَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَهَذَا يَكَادُ يَكُونُ أَمراً مُسَلِّماً بِبِدْيَةِ النَّظَرِ فِي شَأْنِ كُلِّ لُغَةٍ وَتَرَاثِهَا . وَالَّذِي لَا يَمْلِكُ الْقُدْرَةَ عَلَى اسْتِعْيَابِ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ وَعَلَى اسْتِشْفَافِ خَفَايَاهَا ، غَيْرُ قَادِرٍ الْبَتَّةَ عَلَى أَنْ يُنْشِئَ مِنْهَا أَدَباً لِدِرَاسَةِ إِرْثِ هَذِهِ اللُّغَةِ ، فِي أَى فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ هَذَا الْإِرْثِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كُلُّهُ تَبَجُّحاً وَغَطْرَسَةً وَزَهْواً وَغُرُوراً وَتَغْرِيراً ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي حَيَاتِنَا الْأَدَبِيَّةِ هَذِهِ الْفَاسِدَةِ .

هَذَا هُوَ جَوْهَرُ حَدِيثِي عَنْ مِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » كُلُّهُ شِعْراً وَنَثْراً ، وَأَخْبَاراً تُرَوَّى ، وَعِلْماً يُكْتَبُ أَوْ يُسْتَخْرَجُ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ إِبَانَةٌ عَمَّا تَمُوجُ بِهِ النُّفُوسُ ، وَتَنْبِضُ بِهِ الْعُقُولُ . فَفِي نَظْمِ كُلِّ كَلَامٍ وَفِي أَلْفَاظِهِ ، وَلَا بُدَّ ، أَثَرٌ ظَاهِرٌ أَوْ وَسْمٌ خَفِيٌّ مِنْ نَفْسٍ قَائِلَةٍ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ دَفِينِ الْعَوَاطِفِ وَالنَّوَازِعِ وَالْأَهْوَاءِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ أَوْ صَدَقٍ وَكَذِبٍ = وَمَنْ عَقَلَ قَائِلَهُ ، وَمَا يَكْمُنُ فِيهِ مِنْ جَنِينِ الْفِكْرِ ، (أَى مُسْتَوْرِهِ) ، مِنْ نَظَرٍ دَقِيقٍ ، وَمَعَانٍ جَلِيَّةٍ أَوْ خَفِيَّةٍ ، وَبِرَاعَةٍ صَادِقَةٍ ، وَمَهَارَةٍ مُمَوَّهَةٍ ، وَمَقَاصِدَ مَرْضِيَّةٍ أَوْ مُسْتَكْرَهَةٍ . فَمِنْهَجِي فِي « تَذَوُّقِ الْكَلَامِ » ، مَعْنَى كُلِّ الْعَنَايَةِ بِاسْتِنْبَاطِ هَذِهِ الدَّفَائِنِ ، وَبِاسْتِدْرَاجِهَا مِنْ مَكَانِهَا ، وَمَعَالِجَةِ نَظْمِ الْكَلَامِ وَلَفْظِهِ مَعَالِجَةً تُتِيحُ لِي أَنْ أَنْفُضَ الظَّلَامَ عَنْ مَصُونِهَا ، وَأُمِيطَ اللَّثَامَ عَنْ أَخْفَى أَسْرَارِهَا وَأَغْمَضِ سَرَائِرِهَا . وَهَذَا أَمْرٌ

لا يُستطاع ولا تكون له ثَمَرَةٌ ، إلاّ بالأناة والصَّبْر ، وإلاّ باستقصاء الجُهد فى الثَّبَت من معانى ألفاظ اللغة ، ومن مَجارى دلائلها الظاهرة والخفية ، بلا استكراه ولا عَجَلَةٍ ، وبلا ذهابٍ مع الخاطر الأوّل ، وبلا تَوْهيمٍ مُستبِدٍّ تُخضعُ له نَظمَ الكلام ولَفْظَه .

...

٧ - وأمرٌ كَرِيهٌ ، أَيْها القارىء ، وَبَغِيضٌ إِلَى كُلِّ البُغْضِ ، أَنْ أَحَدَثَكَ عَنْ أَعْمَالِي ، وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدٌّ ، لَكِي تَكُونَ عَلَى يَنِينَةٍ .

قد مضى الشباب وطُوى بِسَاطُهُ ، ومضت تلك الأيام الغواير المضيئة فى حياتى ، حتى كانت سنة ١٩٣٥ ، وأنا فى السادسة والعشرين من عُمرى ، حين آستوى لى المنهج واستبان . فكانَ أوّلَ عَمَلٍ طَبَّقْتُ فِيهِ مِنْهَجِي فى « تذوق الكلام » ، شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وعلماء يُكتب أو يُستخرج ، هو كتابى « المتنبى » ، الذى تولت نشره مجلة « المقتطف » فى عدد يناير سنة ١٩٣٦ . كان كتابى خالياً من كُلِّ إبانَةٍ عن هذا المنهج أو إشارة إليه . فكانَ صدوره يومئذ مفاجأة وجَّهَتْ أنظار الأدباء جميعاً فى كُلِّ بلدٍ ينطقُ اللسان العربى ، إلى اسمٍ مَجْهُولٍ وكاتبٍ مغمورٍ ، وأصبحت فى خَفَقَةٍ كَخَفَقَةِ البرقِ اسماً مشهوراً عندهم وكاتباً مذكوراً .

وَأَنْتَ لَمْ تَشْهَدْ تِلْكَ الْأَيَّامَ كَيْفَ كَانَتْ ، وَلَا تَجِدُ الْيَوْمَ مِنْ يَحْدُثُكَ عَنْهَا غَيْرَى . وَكُلُّ مَا بَقِيَ مِنْهَا أَنْتَ تَعْرِفُنِي الْيَوْمَ مَعْرِفَةً مَبْهَمَةً بَلَا دَلِيلٍ يَرِشُدُكَ ، إِلَّا هَذَا الصَّبِيْتُ الْكَاذِبُ الَّذِي لَا أَظُنُّ أَنَّ لَهُ عِنْدَكَ حَقِيقَةً تَعْرِفُ بِهَا صَدَقَهُ ، وَالَّذِي أَكْسَبَتْهُ تِلْكَ الْمَفَاجَأَةُ الْمُتَقَادِمَةُ الْمُوْغَلَةُ فى الْبَعْدِ عَنْكَ .

كَانَ السَّبَبُ فى هَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ الْمُثِيرَةِ ، أَنَّ جَمْعَةَ الْأَدْبَاءِ وَالْقَارِئِينَ يَوْمئِذٍ ، وَقَعُوا عَلَى

كتاب فيه ترجمة للمتنبي ، مكتوب على منهج وجدوه فريداً متميزاً ، مبيناً مدبه كلّ المبانية ، لجميع المناهج الأدبية المختلفة المألوفة ، والتي كانت تغمر ساحة الأدب ، ولا تزال تغمرها مع الأسف . وهذا أمر تستطيع أن تستوثق من صحته بالنظر في كلّ ما كتب الكاتبون عن الشعر والشعراء وغير الشعراء قبل هذا الكتاب . كانوا يحسون إحساساً خفياً بهذه المبانية الظاهرة ، وقد عبّر عن هذا الإحساس الخفي أقراني وأساتذتي وشيوخى الكبار ، معارضين أو مؤثّنين ، كلّ عبّر بطريقته وأسلوبه عن هذا الإحساس الخفي ، بكلام مكتوب ، أو حديث جرى بيني وبينهم . ^(١) ولأنى أصدرت هذا الكتاب خلواً من مقدّمة تتحدّث عن منهجي الذي بنيت عليه ترجمتي للمتنبي ، فقد كان ما لا بدّ أن يكون . فالحياة الأدبية الفاسدة التي سنّ للناس سنّها شيوخنا الأدباء الكبار ، والتي نعيش فيها إلى هذا اليوم = وآفات أخرى كانوا يتعاشون بها ، وبثوها في تلاميذهم وأشياهم = كل ذلك لم يكن يُتيح لأحد ، إلّا من عصم الله ، أن يجد من وقته ساعاتٍ للتأمل والأناة والصبر ، للبحث عن هذا المنهج الغريب غير المألوف الذي وجده أمامه مطبقاً في كتاب كامل ، وأحسّ به كلّ منهم إحساساً خفياً دعاه إلى المعارضة أو الشّاء . وهذا خذلانٌ كبير ، غفر الله لنا ولهم ، وتجاوز عن سيئاتنا وسيئاتهم .

كان ما لا بدّ أن يكون ، فبقى منهجي منهجاً غير بيّن ، بل صار منهجاً مغموراً تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة على هذه الحياة الأدبية الفاسدة . ثم جاء من بعد

(١) ستجد طرفاً من ذلك في « قصة هذا الكتاب » ، وما كتبه الرافعي ومصطفى عبد الرزاق ، وأخوه على عبد الرزاق ، ومحمد هاشم عطية ، وعبد الوهاب عزام ، وفؤاد صروف ، وقريني وأخي سعيد الأفغاني ، وما فعله العقاد ، وما قاله طه حسين ، (انظر باب « الغمرات ثم ينجلين » ص : ٧٥ - ٧٩ وما كان في أول لقاء لي بالدكتور طه ص ٩٩ - ١٠٤ ، ٥٢٣ ، وأما سعيد الأفغاني ، فكلّامه وكلامى مثبت في ص : ٥٣٣ - ٥٧٤ ، وكلمة الرافعي مثبتة في ص : ٥٧٧ - ٥٧٩ ، وفؤاد صروف في تقديمه الكتاب ص : ١٢٩ - ١٣٤) .

الأساتذة الكبار أجيال صَنَعَتْهُمُ السُّنَنُ التى سُنُّوها فى حياتنا الأدبية ، والأساتذة الكبار هم القِمَمُ وهم القدوة ، فَاتَّسَعَ الحَرْقُ بفعل مُرُورِ الأَيَّامِ والسنين ، وفسد الأمرُ فساداً وبيلاً . فكان لابدُّ أن يَبْقَى منهجى هذا مطموساً مغموراً ضربةً لازِبٌ . وضربةً لازِبٌ أن يكون كذلك ، لأتَى أنا أيضاً قد رَضِيتُ لكتابى « المتنبى » ولمنهجى فيه أن يَبْقَى مطموساً مغموراً مدَّةَ أربعين سنة ، منذ خرج للناس لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ ، إلى كانت سنة ١٩٧٧ ، حين أعدتُ نشره . ولكن ههنا حديثٌ آخرُ سأحدِّثُك عنه بعد قليل .

٨ - لا تَحْسَبْ أَنِّى قد فارتُ منهجى وأغفلتُه مدَّةَ أربعين سنةً ونيفٍ ، ولا تُقِلْ : أنتَ الملوِّمُ ! فَلِمَ تَوَانَيْتَ وَتَكَصَّصْتَ وَتَنَاقَلْتَ فلم تنصُرْ منهجك ولا يَبْنَتْهُ للناس ؟

فأقول لك = إن كنتَ مِمَّنْ يُريدُ أن يَعْرِفَ ، أمَّا الذى لا يُريدُ أن يَعْرِفَ فليس بينى وبينه عَمَلٌ = : إن منهجى فى « تذوق الكلام » شعراً ونثراً ، وأخباراً تُروى ، وبياناً عن عِلْمٍ مُسْتَخْرَجٍ ، وكلاماً قاله الناسُ فى الأمسى البعيد ، وكلاماً يَقُولُهُ الناسُ فى هذا اليوم القريب ، منهجٌ متراحبٌ متشعبٌ الأنحاء كما حَدَّثْتُكَ آنفاً ، وهو مطبَّقٌ تطبيقاً يَبْنَى فى كُلِّ ما كتبه هذا القلم الذى أكتب به الآن إليك . مطبَّقٌ هذا المنهجُ فى مقالاتى التى نشرتها فى الصحف والمجلات قديماً وحديثاً ، سواءً كان ما كتبتُه بحثاً أو نقدًا أو تعبيراً عن ذاتِ نفسى فى كُلِّ مَنْحَى من مناحى القول والبيان ، أو تعليقاً على أصول الكتب القديمة التى نشرتها وخرجتُ للناس .

وإن شئتَ أن تعلمَ ، فاعلم أنَّك واجدٌ منهجى فى « تذوق الكلام » فى مقالاتى القديمة والحديثة التى لم أنشرها بعدُ فى كتاب يقرأ اليوم ، وأنتَ واجده أيضاً فى كتابى « أباطيل وأسمار » وكتابى « برنامج طبقات فحول الشعراء » ، وأنتَ واجده أيضاً ظاهراً

يلوُحُ فى قراءتى وشرحى لكتاب « طبقات فحول الشعراء » لأبن سَلَامَ الجمحى ، وفى قراءتى وتعليقى على كتاب « جَمْهَرَة نسب قُرَيْش » للزُّبَيْر بن بَكَّار ، وفى مواضع كثيرة جداً متفرقة فى قراءتى وتعليقى لكتاب أبى جعفر الطبرى فى تفسير القرآن ، وفى سائر ما كتب الله لى أن أنشره من الكتب .

بَلْ بَلْ أَنْتِ وَاجِدُهُ سَاطِعاً كُلَّ السُّطُوعِ فى ديوان « الْقَوْسُ الْعَذْرَاءُ » ،
حيثُ تَجِدُ ثَلَاثَةً وَعِشْرِينَ بَيْتاً قَالَهَا الشَّمَاخُ الشَّاعِرُ فى قصيدته الزائفة ، التى وصَفَ فيها
قَوْساً وَقَوَّاسَهَا الذى صَنَعَهَا بِيَدَيْهِ وَسَوَّاهَا حَتَّى اسْتَوَتْ ، فَتَقِينُ بِحُبِّهَا قَوَّاسَهَا هَذَا
وَانطَوَى قَلْبُهُ عَلَى الضَّنِّ بِهَا . ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِى الْحَيِّجِّ فَاسْمَعَهُ ، فَاِنْطَلَقَ خَارِجاً مِنْ بَادِيَتِهِ ،
فَوَافَى بِهَا أَهْلَ الْمَوَاسِمِ ، فَاِنْبَرَى لِقَوْسِهِ هَذِهِ تَاجِرٌ غَنَى شَدِيدُ الْمَكْرِ وَالِدَّهَاءِ ، فَسَاوَمَهُ بِهَا
فَاطَالُ الْمَسَاوِمَةِ . قَوَّاسٌ فَقِيرٌ بَائِسٌ ، وَغَنَى مَلِئٌ مَاكِراً حُلُوَ اللَّفْظِ وَاللِّسَانِ ، فَاعْتَرَتْهُ
بِالْمَالِ وَالْغِنَى حَتَّى ذَهَلَ بِفَقْرِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَهَوَاهُ ، وَفِي غَمْرَةٍ ذُهِولِهِ أَسْلَمَ لَهُ قَوْسُهُ وَقَبْضُ
الْمَالِ ، وَلَمْ يَكُنْ حَتَّى اسْتَفَاقَ ، وَتَلَفَّتْ فَلَمْ يَجِدْ قَوْسَهُ وَخُشَّاشَةَ نَفْسِهِ ، وَلَمْ تَقَعْ عَيْنُهُ عَلَى
هَذَا التَّاجِرِ الذى انْقَضَ عَلَى قَوْسِهِ كَالْعَقَابِ الْكَاسِرِ وَطَارَ بِهَا حَيْثُ لَا يُرَى ، فَأَجْهَشَ
الْبَائِسُ الْمُسْكِنُ بِالْبُكَاءِ ، وَنَظَرَ إِلَى الْمَالِ الذى فى يَدَيْهِ ، وَفَاضَتْ الْعَيْنُ عِبْرَةً ، وَسَقَطَ
فِي هَاوِيَةِ الْأَحْزَانِ ، وَتَسَاقَطَتْ نَفْسُهُ بَعْدَ فِرَاقِهَا حَسْرَاتٍ ، « وَفِي الصَّدْرِ حَزَازٌ مِنَ الْوَجْدِ
حَامِزٌ » .

كنت قديماً قد تذوّقتُ ، فيما أتذوّق من الشعر العربى ، بياناً حافلاً غريباً فى
أبيات الشَّمَاخِ الثلاثة والعشرين . تذوّقتها غائصاً فى أغوار دِلالة ألفاظها وتراكيبها
ونظمها ، بل غُصْتُ تحت ثِيَار معانيها الظاهرة ، وفى أعماق أحرفها ، وفى أنعام
جَرَسِهَا ، وفى خَفَقَاتِ نَبْضِهَا ، وفى دَفْقِهَا السَّارِبِ المتغلغل تحت أطباقها ، فَاتَّزَتْ

بهذا التذوق دفائن نظمها ولفظها ، واستدرجت خباياها المتحجبة من مكامنها ، وأمطت اللثام عن أخفى أسرارها المكتمة ، وأغمض سرائرها المعقبة ، حتى صرت كآنى أقرأ قصة طويلة فى كتاب منشور . ومضت السنون الطوال حتى كدت أنساها . ثم جاء يوم أذكرنى هذه القصة الطويلة ، فانبعثت فجأة من مرقدِها ، وانبعثت أنا أقص قصة القوس وقواسمها ، كما كانت أفصت إلى به آيات الشماخ ، وضمنتها قصيدة تزيد على ثلاثمئة بيت ، كل ما فيها نيئة مستخرجة من بيان آيات الشماخ ، ومن ركاز نظمها وكلماتها ، بلا استكراه لقصة أو معنى أو صورة . (الركاز : كنز مدفون فى باطن الثرى فى معدنه = والمعدن : هو الذى نسميه اليوم « المنجم » كمنجم الذهب والفضة وغيرهما من كنوز الأرض ، كريمها وخسيسها) . (١) .

فهذا ، كما ترى ، منهج متشعب مطبق على أصناف الكلام العربى ، قراءة له ، أو بياناً عنه . وبديهة العقل لم يكن من عملى ، ولا هو من عمل أى كاتب مبين عن نفسه ، أن يبدأ أول كل شيء فيفيض فى شرح منهجه فى القراءة والكتابة = وإلا يفعل ، كان مقصراً تقصيراً لا يقبل منه بل يرد عليه = ثم يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس : هذا هو منهجى ، وها أنذا قد طبقت . هذا سخف مريض غير معقول ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبقاً منهجه ، وعلى القارئ

(١) نشرت « القوس العذراء » أول مرة فى مجلة الكتاب (دار المعارف) فى عدد أول فبراير سنة ١٩٥٢ ، وكتب الأستاذ عادل الفضبان كلمة فى التنويه بها . ثم نشرتها فى كتاب سنة ١٩٦٤ ، فكتب عنها الدكتور زكى نجيب محمود كلمة نفيسة (ضاعت منى مع الأسف) ، وكتب كاتب فقال إنها « قصيدة لغوية » ، يعنى أنها متن منظوم لحفظ غريب اللغة ! ، ثم بعد ثلاثين سنة ، (سنة ١٩٨٢) ، كتب عنها الدكتور إحسان عباس والدكتور مصطفى هدار ، فى كتاب « دراسات عربية وإسلامية » ، الذى أهدى إلى بمناسبة بلوغى السبعين (ص : ٣ - ٥٧/٤٧٨) ، وكتب الدكتور محمد أبو موسى رسالة نشرها وسمّاها « القوس العذراء ، وقراءة التراث » .

الرسالة : ٩ / كلام في « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، ما هو ؟

والناقد أن يستشِفَّ المنهجَ وَيَتَبَيَّنَه ، محاولاً استقصاءَ وجوهه الظاهرة والخفية ، ممَّا يجده مطبَّقاً فيما كتب الكاتب . ولكن فسادَ حياتنا الأدبية ، هو الذى يُحِيلُ العقولَ أحياناً ، حتى تُغْفَلَ عن أبسط قواعد البديهة فى العقل الإنسانى . وكفى بهذا فساداً وبيلاً .

فرغْتُ ، وأسألُ اللهَ المغفرةَ ، من هذا الكلامِ البغيضِ إلىَّ ، متحدثاً عن أعمالى ، والذى هو شىءٌ أوجبتُهُ الصورةُ ، كما يقول المتنبى فيما يُروى عنه حين سئل عن خبر نبوته !! والآن

...

٩ - كان منهجى ، كما نشأ واستتبَّ فى نفسى ، كان منهجاً يُحْمِلُ بطبيعة نشأته رَفْضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير مُتَلَجِّجٍ ، لأكثر المناهج الأدبية التى كانت فاشيةً وغالبةً وصارَ لها السيادةُ على ساحة الأدبِ الخالص وغير الأدبِ الخالص إلى يومنا هذا ، كما حدثتْكَ آنفاً (الفقرة : ١) .

فَلِكِنِّى تَكُونَ عَلَى بَيْنَةٍ مَرَّةً أُخْرَى ...

فَاعْلَمْ ، قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أَنَّ تَسْمِيَتَهَا « مناهج » ، تجاوزُ شديداً البُعدَ عن الحقيقة ، وفساداً غليظاً وَخَلَطَ ، إِذَا كُنْتَ تَريدُ أَنْ تَكُونَ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْأَلْفَاظِ التى تَجْرِى الْآنَ بَيْنَنَا ، وَلَكِنْ قَدْ كَانَ مَا كَانَ ، فَهَكَذَا اصْطَلَحُوا عَلَى تَسْمِيَتِهَا !

وقديماً تناولتُ لفظ « المنهج » ، وحاولتُ البيانَ عنه فقلت : (١)

(١) قلت ذلك فى كتابى « أباطيل وأسمار » ، ص ٢٣ - ٢٥ ، بل الفصل كُلُّهُ ، بل الكتاب كُلُّهُ ، مشتمل على بيان لما يسمَّى « منهجاً » ، ومُتَّصِلٌ بما أقوله هنا اتِّصَالاً لَا انفكاكَ لَهُ . فَإِنْ كُنْتَ جَادّاً فى طَلَبِ المَعْرِفَةِ فافقُرْهُ ، لَأَتَى هُنَا مَوْجِزاً أَشَدَّ الإيجاز .

« ولفظُ المنهج » ، يحتاج مِنِّي هنا إلى بعض الإبانة ، وإن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون في مثل هذا الشأن ، بل أريد به « ما قَبْلَ المنهج » ، أى الأساس الذى لا يقومُ « المنهجُ » إلا عليه .

« فهذا الذى يسمَّى « منهجاً » ينقسم إلى شطرين : شطرٍ في تناولِ المادةِ ، وشرطٍ في معالجة التطبيق .

« فشطرُ المادةِ يَتَطَلَّبُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، جَمْعُهَا من مَظَانِّهَا على وَجْهِ الاستيعابِ المتيسِّرِ ، ثُمَّ تصنيفُ هذا المجموعِ ، ثُمَّ تحييصُ مُفرداته تحييصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزائها بدقة متناهية ، وبمِهارةٍ وحِذْقٍ وحَذَرٍ ، حتَّى يتيسَّرَ للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ جلياً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غَفْلَةٍ ، وبلا هَوًى ، وبلا تسرُّع .

« أمَّا شطرُ التطبيقِ ، فيقتضى ترتيبَ المادةِ بعدَ نَفْيِ زيفِها وتحييصِ جيدها ، باستيعابٍ أيضاً لكلِّ احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرُّع . ثُمَّ على الدارس أن يتحرَّى لكلِّ حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌّ موضعها ، لأنَّ أخفى إساءةٍ في وَضْعِ إحدى الحقائق في غير موضعها ، خَلِيقٌ أن يُشَوِّهَ عُمُودَ الصورة تشويهاً بالغَ القُبْحِ والشَّنَاعَةِ » .

وأزِيدُكَ الآنَ : أنَّ « شطرَ التطبيقِ » هو الميدانُ الفسيحُ الذى تصطرع فيه العقولُ ، وتتناصى الحُجَجُ ، (أى أن تأخذ الحُجَّةَ بناصية الحجة كِفْعَلِ المتناصِرِعين) ، والذى تسمعُ فيه صليلَ الألسنة جَهْرَةً أو خُفْيَةً ، وفي حَوْمته تصادمُ الأفكارِ بالرفقِ مرَّةً وبالعنفِ أُخرى ، وتختلفُ فيه الأنظارُ اختلافاً ساطعاً تارةً ، وخائياً تارةً أُخرى ، وتفرقُ فيه الدُّرُوبُ والطُّرُقُ أو تتشابهُ أو تلتقى . هذه طبيعة هذا الميدانِ ، وطبيعةُ النزائِلِ من العلماءِ والأدباءِ والمفكرين . وعندئذٍ يمكنُ أن يَنشَأَ ما يُسمَّى « المناهجِ » و « المذاهبِ » .

ولكنى لا تقع فى الوهم والضلال ، ولكنى لا يُعزَّر بك أحدٌ من المتشدِّقين من أهل زماننا هذا بالثرثرة ، فأعلمُ أنَّ حديثى هنا هو عن الذى يسمَّى « المنهج الأدبى » على وجه التحديد = أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه ، والتاريخ ، وعلم الدين بفروعه المختلفة ، والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكلُّ ما هو صادرٌ عن الإنسان إبانةً عن نفسه وعن جماعته = أى يتناول ثقافته المتكاملة المتحدرة إليه فى تيارِ القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة . ووعاءُ ذلك كله ومستقرُّه هو اللغة واللسان لا غير . فإياك إياك أن تنسى ذلك ، واجعله منك على ذكرٍ أبداً . وأذكرُ أيضاً أن هذا الذى أقوله لك ههنا عن « المنهج » ، إنما هو أصلٌ أصيلٌ فى كلِّ أمةٍ ، وفى كلِّ لسانٍ ، وفى كلِّ ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومللهم ومواطنهم .

١٠ - وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، فى حياتنا الأدبية ، حتى رفضتها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجلجٍ ، مُنذُ بدأت قديماً أحسُّ إحساساً مُبهِماً أنَّ حياتنا الأدبية حياةً فاسدةً من كلِّ وجهٍ ، كما حدَّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

فأنا الآن مُجيبُك عن هذا السؤالِ بإيجازٍ جامعٍ ، على طوله ، فإنَّ هذا الإحساسَ القديمَ المهمَّ المتصاعداً بفساد الحياة الأدبية ، قد أفضى بى ، كما حدَّثتك فى الفقراتِ الثلاثِ الأولى : (١ - ٣) ، إلى إعادة قراءة الشعر العربى كله أولاً ، ثم قراءة ما يقع تحت يدى من هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسيرٍ وحديثٍ وفقهٍ ، وأصولٍ وفقهٍ وأصول دين (هو علم الكلام) ، ومِللٍ ونَحَلٍ ، إلى بحر زاخِرٍ من الأدب والنقد والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأتُ الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافية القديمة ، وكُتُبَ النجوم وصور الكواكب ، والطب القديم ومُفردات الأدوية ، وحتى قرأتُ

البَيْزرة والبَيْطُرة والفِرَاسَة بل كُلُّ ما استطعتُ أن أقف عليه بحمد الله سبحانه ، قرأتُ ما تيسَّر لي منه ، لا للتمكُّن من هذه العلوم المختلفة ، بل لكي ألاحظ وأتبيَّن وأزيح الثَّرى عن الحَبِيء والمدفون .

تبيَّن لي يومئذٍ تبييناً واضحاً أن شَطْرِي المنهج : « المادة ، والتطبيق » ، كما وصفتُهما لك في أوَّل هذه الفقرة ، مكتملانِ اكتمالاً مُذهِلاً يَحْيِرُ العقلَ ، منذ أوَّلِيَّة هذه الأُمَّة العربيَّة المسلمة صاحبة اللسان العربيِّ ، ثم يزدادان اتِّساعاً واكتمالاً وتنوعاً على مرِّ السنين وتعاقب العلماء والكتَّاب في كُلِّ علم وفنٍّ ، وأقول لك غير متردِّدٍ أن الذي كان عندهم من ذلك ، لم يكن قطُّ عند أُمَّة سابقةٍ من الأمم ، حتى اليونان = وأكاد أقول لك غير متردِّدٍ أيضاً أنَّهم بلغوا في ذلك مَبْلَغاً لم تُدرك ذِروته الثقافة الأوربيَّة الحاضرة اليومَ ، وهي في قَمَّة مجدها وازدهارها وسطوتها على العلم والمعرفة .

• كنتُ أَسْتَشِفُّ « شَطْرِي المنهج » ، كما وصفتُهما ، تلوحُ بَوادِرُهُ الأوَّل منذ عهد علماء صحابة رسول الله ﷺ ، وَمَنْ حَفِظَتْ عنهم الفَتوى منهم ، كعمر بن الخطاب ، وعلى بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عُمر = كانت كاللَّمْحَة الخاطفة والإشارة الدالَّة . ثم زادت وضوحاً عند علماء التابعين كالحسن البصري ، وسعيد بن المُسيَّب ، وابن شهاب الزهريِّ ، والشَّعْبِيَّ ، وقَتَادَةَ السَّدُوسِيَّ ، وإبراهيم النَّخَعِيَّ . ثم اتَّسع الأمرُ واستعلنَ عند جِلَّة الفقهاء والمحدِّثين من بعدهم ، كمالك بن أنس ، وأبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانيَّ ، والشَّافِعِيَّ ، والليث بن سعد ، وسُفْيَان الثَّوْرِيَّ ، والأوزاعيَّ ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن مَعِين ، والبخاريَّ ، ومُسلم ، وأبي عَمْرٍو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأبي جعفر الطَّبريِّ ، وأبي جعفر الطَّحاويِّ . ثم استقرَّ تدوينُ الكُتُب فصارَ نَهْجاً مستقيماً ،

وكالشمس المشرقة ، نُوراً مستفيضاً عند الكاتبين جميعاً ، منذ سيبويه ، والقرّاء ، وابن سلام الجُمَحِيّ ، والجاحظ ، وأبي العباس المبرّد ، وابن قُتَيْبَة ، وأبي الحسن الأشعرى ، والقاضى عبد الجبار المعتزلى ، والآمدى ، وعبد القاهر الجُرجانيّ ، وابن حَزْم ، وابن عبد البرّ ، وابن رُشد الفقيه وحفيده ابن رشد الفقيه الفيلسوف ، وابن سينا ، والبيرونىّ ، وابن تَيْمِيَّة ، وتلميذه ابن قَيْم الجَوْزِيَّة ، وآلاف مؤلفَةٍ لا تُحصى حتى تنتهى إلى السيوطى ، والشوكانىّ ، والزبيدىّ ، وعبد القادر البغدادىّ فى القرن الحادى عشر الهجرى .

سُنَّةٌ متَّبَعَةٌ وذَرْبٌ مطروقٌ فى ثقافة متكاملةٍ متماسكةٍ راسخة الجذور ، ظلّت تنمو وتُتَّسَع وتُستولى على كُلِّ معرفةٍ مُتاحةٍ أو مُستخرجةٍ بسلطانِ لسانها العربىّ ، لم تُفقد قطُّ سيطرتها على التَّهَجُّجِ المستتين ، مع اختلاف العقول والأفكار والمناهج والمذاهب ، حتّى اكتملت اكتمالاً مُذهلاً فى كُلِّ علمٍ وفنٍّ ، وكان المرجوُّ والمعقولُ أن يستمرَّ نموُّها واكتمالُها وازدهارُها فى حياتنا الأدبية العربية الحديثة رَاهِناً ، (ثابتاً) ، إلى هذا اليوم ، لولا ولكن صِرْنَا ، واحسرتاه ، إلى أن نقول مع العرجىّ الشاعر : « كان شيئاً كان ، ثم آنقضى » . (١)

...

١١ - وشيءٌ لو أنا أغفلته ههنا ، ولم أعيّنه لك ، فكأننى أغفلتُ جوهر القضية كُلِّها وطمسُته طمساً ، أعنى قضية « المنهج » ، ولدخلتُ بك دخولاً فى حومة الفسادِ

(١) من بيتين تترقّض فيهما عبراتُ الأسى كُلِّه ، وحسراتُ العُمر كُلِّه ، يقول :

يا لَيْتَ شِعْرِي ، هَلْ يَعُودَنَّ لِي ذَا الْوُدِّ مِنْ لَيْلَى كَمَا قَدْ مَضَى ؟
إِذْ قَلْبُهَا لِي فَارِغٌ كُلُّهُ ... أَمْ كَانَ شَيْئاً كَانَ ، ثُمَّ آنَقَضَى

المُطَبِّق الذى عَمَّ وسادَ حياتنا الأدبية وَطَمَّ وَطَعَى . وحسبُك بهذا مِنِّى ، لو فعلتُ ، غشًّا لك ، وإهداراً لكرامة البيان ، وخيانةً للأمانة التى حُمِّلناها كما حُمِّلها أبونا الشيخ آدم عليه السلام . وبعدَ ذلك ، فكأنِّى ، لو فعلتُ ، قد آستَهنتُ بك وبعقلك ، لأنِّى كتمتُ عنك ما أنا حقيقٌّ بإبانيته ، وَمَا أَنْتَ صاحبُ الحقِّ فى استبانته .

فالذى نَبَّهْتُك إليه فى أوَّلِ الفقرة التاسعة آنفاً ، (٩) ، وسَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » بشطريه فى « المادة » وفى « التطبيق » وقلت لك : « إنه أَصْلُ أَصِيلٍ فى كُلِّ أمةٍ ، وفى كُلِّ لغةٍ ، وفى كُلِّ لسانٍ ، وفى كل ثقافةٍ حازها البشرُ على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ومِلَلِهِم وأوطانِهِم » = هو ، بلا ريب ، أَصْلُ أَصِيلٍ فى « العلوم البَحْثَة » ، كما نَسَمَّيْها اليوم ، كالحساب والجبر والكيمياء ، كما هو أَصْلُ أَصِيلٍ فى « آداب اللسان » ، كالأدب والتاريخ وعلوم الدين وعلم الفلسفة . والنَّاس لا يحتاجون إلى ما سَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » احتياجاً مُلْزِماً ، إلَّا بعدَ أن تستوفى « العلوم البَحْثَة » ، مثلاً ، قَدْرًا صالحاً من التَّمَوُّ والانتِشاع ، حتَّى يُحْتَاجَ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخلِ أجزائها بعضها فى بعض ، لتصحيح مَسِيرَةِ العلم ، وإعطاء كُلِّ عِلْمٍ حَقَّهُ من الوُضوح ، حتى يستقيم لكلِّ عِلْمٍ نَهْجُهُ وطريقُهُ ونُموُّهُ بلا خَلْطٍ وبلا تزييف . و « ما قبل المنهج » هو فى « العلوم البَحْثَة » ضَرْبَةُ لازِبٍ ، وإلَّا آرتَكَسَتْ فى ظُلُمَاتِ الجهالة والغموض . فمُمْكِنٌ ، بل هو شرطٌ ملزِمٌ ، أن يبرأ « جمع المادَّة » و « التطبيق » جميعاً من العُقْلَة والإغفال والتسرُّع والهوى .

أما « آدابُ اللُّسان » فإنَّ النَّاسَ لا يحتاجون إلى ما سَمَّيْتُهُ « ما قبل المنهج » إلَّا بعدَ أن تستوفى « الآداب » نموُّها عن طريق « اللُّغة » التى هى وعاءُ المعارف جميعاً ، وبعدَ أن تستوفى أيضاً نموُّها عن طريق « الثَّقافة » التى هى ثَمَرَةُ المعارف جميعاً ، وبعدَ أن تستوفى حظًّا من القوَّة والتماسُك والشمول والعُلْبَة على أصحابِ هذه « اللغة » وهذه

« الثقافة » = حَتَّى يُحْتَاجَ عندئذٍ إلى إعادة النظر للفصل بين تداخل أطرافها بعضها في بعض ، طلباً لتصحيح المسيرة ، وطلباً للوضوح ، وطلباً للتَّهَجُّجِ السَّوِيِّ والطريق المستقيم .

فهذا ، كما ترى ، مِيدَانٌ لا يُطِيقُ النزول في أرضه وحَقُّه ، إلّا من أُوتِيَ حظّاً وافراً من البَصَرِ النافذ ، والإخلاص المتجرّد لطلب الحقِّ وإدراكه . وبطبيعة هذا المِيدَانِ ، تدخل نفسُ النازل في أرضه عاملاً حاسِماً في شَطْرِي « ما قبل المنهج » : تدخل أولاً من طريق معرفة « اللغة » التي نشأ فيها صغيراً = وتدخل ثانياً من طريق « الثقافة » التي ارتضَعَ لِبَأنِها يافعاً = وتدخل ثالثاً من طريق أهوائه ومَنَازِعِهِ التي يملكُ ضَبْطَها أو لا يملكُها ، بعد أن آسَوَى رجلاً مُبِيناً عن نفسه . فهذا الثالث هو موضع الخفاة ، الذي يستوجب الحذر ، ويقتضيك حُسْنَ التحرّي .

١ - • فمن طريق « اللغة » التي نشأ فيها صغيراً ، فَإِنَّهُ يُسَدِّدُهُ أو يَتَهَدِّدُهُ ، الإحاطة بأسرار « اللغة » وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وعجائب تصاريفها التي تجمعت وتشابكت على مرّ القرون البعيدة ، فصارت ألفاظها وتراكيبها الموروثة والمُستحدثة تحمل من كُلِّ زمانٍ مَضَى وكُلِّ جيلٍ سَبَقَ ، نَفْحَةً من نَفَحَاتِ البيان الإنسانيِّ بخصائصه المعقّدة والمكتّمة ، أو خصائصه السَّمُوحَةِ والمُسْتَعْلَنَةِ . وبين تمام الإحاطة باللغة وقُصُورِ الإحاطة بها ، مَزَالُ تَرُلُّ عليها الأقدامُ ، وَمَخَاطِرُ يُخْشَى معها أن تنقلبَ وجوه المعاني مُشوّهة الخَلْقَةِ مستنكرة المَرَاة ، بِقَدْرِ بُعْدِهَا عن الأسرار الخفية المُستَكِنَةِ في هذه الألفاظ والتراكيب ، وهذا بابٌ واسعٌ يحتاجُ إلى بيانٍ لا يُحاطُ به في مثل هذا الموضع . ولكن كُنْ أبداً على حذرٍ ، فَإِنَّهُ مُمْكِنٌ أيضاً كُلُّ الإمكان ، أن يدخَلَ عليك من هذا

الرسالة : ١١ / أصول « ما قبل المنهج » / « الثقافة » وأسرارها / « البراءة » من « الأهواء »

الباب مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابث ، واحتتيالُ المُحتال ، « حَتَّى تَرَى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ » ، كما قال الشاعر . (١)

٢ - • ومن طريق « الثقافة » ، فإنَّ « الثقافة » ، فأَعْلَم ، تكادُ تكونُ سِرًّا من الأسرارِ المثلَّمةِ في كُلِّ أمةٍ من الأممِ وفي كُلِّ جيلٍ من البشر . وهى فى أصلها الراسخ البعيد الغور ، معارفٌ كثيرةٌ لا تُحصَى ، متنوّعةٌ أبلغُ التنوّع لا يكادُ يحاطُ بها ، مطلوبةٌ فى كُلِّ مجتمعٍ إنسانىٍّ للإيمانِ بها أولاً عن طريقِ العقلِ والقلبِ = ثم للعملِ بها حَتَّى تذوبَ فى بُنيانِ الإنسانِ وتَجْرى منه مَجْرى الدَّم لا يكادُ يُحسُّ به = ثم للانتماءِ إليها بعقله وقلبه وخياله انتماءً يحفظُهُ ويحفظُها من التفكُّكِ والانهِيار ، وتحوطُهُ ويحوطُها حتى لا يُفْضَى إلى مَفَاوِزِ الضَّياعِ والهلاكِ . وبين ثَمامِ الإدراكِ الواضحِ لأسرارِ « الثقافة » وقُصُورِ هذا الإدراكِ ، منازلٌ تلتبسُ فيها الأمورُ وتختلطُ ، ومَسالِكُ تُضِلُّ فيها العقولُ والأوهامُ حتى ترتكسَ فى حَمأةِ الحَيِّرةِ ، بقَدْرُ بُعْدِها عن لُبِّابِ هذه « الثقافة » وحقائقِها العميقةِ البعيدةِ المتشعبةِ . فهذا أيضاً بابٌ واسعٌ جدًّا يَحْتَاجُ إلى تفصيلٍ لا يُحاطُ به فى مثل هذا الموضع . وَكُنْ أبداً على حَذَرٍ ، فَإِنَّهُ مُمْكِنُ كُلِّ الإمكانِ أَنْ يَدْبَّ إِلَيْكَ مِنْه دَيْبٌ خَفِيًّا ، مَكْرُ الماكر ، وَعَبَثُ العابث ، واحتتيالُ المُحتال ، حَتَّى « تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ » ، كما يقول المتنبى . (٢)

٣ - • ومن طريقِ « الأهواءِ » ، وهى التى تَسْرِى فى خَفَاءٍ وتَدْبُ ، إلّا أنَّها لا تَدْبُ

(١) هو من قول الشاعر :

يُقْضَى عَلَى المَرْءِ فى أَيَّامِ مِخْنَتِهِ حَتَّى يَرَى حَسَنًا ما لَيْسَ بالحَسَنِ

(٢) هو قوله معاتباً لسيف الدولة :

أَعِيذُهَا نَظَرَاتِ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ

ولا تأتيك إلا متبرجة في تمام زينتها من « اللغة » ومن « الثقافة » ، مُتردية برداء براءة القصد وخلوص النية ، متحلية بجواهر الدقة والاستيعاب والتمحيص والمهارة والحدق ، حتى يتاح لصاحبها أن يقتنص غفلتك ، ويتلعب عندئذ بك ويعقلك ما شاء له التلعب ، من حيث يوهمك أنه قد استوعب لك جمع « المادة » ، ويهول عليك تهويل السحرة بما يحشد تحت عينيك ويستكثر ، مخفياً عنك بتمويهه من « المادة » ما قد يبطل ما أراد به سحر عينيك واهتبال غفلتك ، ثم استلحاق عقلك بعقله ، إذ أنت عندئذ مفتون بالزينة المتبرجة ، وبتحاسين رداء البراءة وخلوص النية ، وبالجلجلى النفيسة المتلاثلة التي يتطلّبها « ما قبل المنهج » بشطريه : « المادة » و « التطبيق » ، إذ أنت هائم معه ، مُريدًا أو غير مريد ، « في إثر كل قبيح وجهه حسن » ، كما يقول أبو الطيب . (٢)

...

١٢ - • قد بينت لك ما استطعت طبيعة هذا الميدان ، ميدان « ما قبل المنهج » ، وطبيعة النازلين فيه من الكتاب والعلماء والمفكرين ، ثم المخاوف التي تتهدّد « ما قبل المنهج » بالتدمير والفساد حتى يصبح ركّاماً من الأضاليل ، وحتى تفسد الحياة الأدبية فساداً يستعصى أحياناً على البرء . وأمر النازلين فيه أمر شديد الخطر ، يحتاج إلى ضبط ونحر وحذر . ولا يغرك ما غرى به ، (أى أولع) ، بعض المتشدّقين المموّهين : « أن القاعدة الأساسية في منهج ديكارت ، هي أن يتجرّد الباحث من كلّ

(١) هو من قوله يذكر أهل العشق :

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوُوا ، وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطَنُوا
تَفَنَّى عُيُونُهُمْ دَمْعًا ، وَأَنفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ

شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل بحته خالي الذهن خلواً تاماً ممّا قيل ، (في الشعر الجاهل : ١١) فإنه شيء لا أصل له ، ويكاد يكون ، بهذه الصياغة ، كذباً مصفى لا يشوبه ذرؤ من الصدق ، (والذرؤ : دقيق التراب) ، بل هو بهذه الصورة خارج عن طوق البشر . هبة يستطيع أن يخلّي ذهنه خلواً تاماً ممّا قيل ، وأن يتجرّد من كلّ شيء كان يعلمه من قبل ، أفمستطيع هو أيضاً أن يتجرّد من سلطان « اللغة » التي غدى بها صغيراً ، وبها صار إنساناً ناطقاً بعد أن كان في المهد وليداً لا ينطق ؟ أفمستطيع هو أن يتجرّد من سطوة « الثقافة » التي جرّت منه مجرى لبان الأم من وليدها ؟ أفمستطيع هو أن يتجرّد كلّ التجرد من بطشة « الأهواء » التي تستكين ضارعة في أغوار النفس وفي كهوفها ، حتى تُمزق من مكمنها لتستبد بالقهر وتتسلط ؟ = كلامٌ يجري على اللسان بلا زمام يضبطه أو يكبحه ، محصولة أنه يتطلّب إنساناً فارغاً خاوياً مكوّنًا من عظام كسيث جلدًا ، لا أكثر !!

فإذا كان « ما قبل المنهج » مُهَدِّدًا بالغوائل كلّ هذا التهديد ، كما بيّنته لك في الفقرة السالفة ، (١١) ، غوائل قصور الإدراك من ناحية ، وغوائل الأهواء التي تبدأ بالخاطر الأول الذي يستهوى الباحث ، وتنتهي إلى المكر والعبث والكذب وخيانة الأمانة = إذا كان هذا ، كما وصفت لك ، فما الذي يعصم من هذا الوباء الحالق الذي يخلق المعرفة خلقاً من أصولها ؟

فالعاصم يأتي من قبل « الثقافة » التي تذوب في بُنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدّم لا يكاد يُحسّ به = لا من حيث هي معارف متنوعة تُدرك بالعقل وحسب ، بل من حيث هي معارف يؤمن بصحتها من طريق العقل والقلب ، ومن حيث هي معارف مطلوبة للعمل بها ، والالتزام بما يوجبه ذاك « الإيمان » ، ثم من حيث هي بعد ذلك آتباء إلى هذه الثقافة انتماءً ينبغي أن يُدرك معه تمام الإدراك أنه لو فرط فيه لأداه تفريطه إلى الضياع والهلاك ، ضياعه هو ، وضياع ما ينتمي إليه .

فُرأس الأمر ، كما ترى ، هو ما يتعلَّق بنفس النازل ميدان « ما قبل المنهج » . وهو بهذه المَثَابَةِ أصل « أخلاقي » قبل كُلِّ شيء وبعد كُلِّ شيء . وإغفال هذا « الأصل الأخلاقي » من قبل نازل هذا الميدان ، أو من قبل المتلقَّى عنه ، يجعل قضية « المنهج » و « ما قبل المنهج » فَوْضَى مبعثرة لا يَتَبَيَّنُ فيها حقٌّ من باطل ، ولا صدقٌ من كذب ، ولا صحيحٌ من سقيم ، ولا صوابٌ من خطأ . ولذلك قُلْتُ في الفقرة الحادية عشرة إنه موضع المخافة الذي يستوجب الحذر ، ويقتضيك حُسْنَ التحرُّى ، أى دِقَّتَه ، ثم أَتْبَعْتُهُ بما قلت لك في أوَّل هذه الفقرة الثانية عشرة .

ورأس كُلِّ « ثقافة » هو « الدين » بمعناه العام ، والذي هو فِطْرَةُ الإنسان ، أى دين كان = أو ما كان فى معنى « الدين » = وبقدر شمول هذا « الدين » لجميع ما يكبَحُ جُمُوح النفس الإنسانية ويَحْجِزُها عن أن تَزِيغَ عن الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ العادلة = وبقدر تغلُّله إلى أغوار النفس تغلُّلاً يجعل صاحبها قادراً على ضبط الأهواء الجائرة ، ومُريدًا لهذا الضَّبْط = بقدر هذا الشمول وهذا التغلُّل فى بُنيان الإنسان ، تكون قُوَّةُ العواصم التى تعصِّمُ صاحبها من كُلِّ عيبٍ قاذٍ فى مَسِيرَةِ « ما قبل المنهج » ، ثم فى مَسِيرَةِ « المنهج » الذى ينشعبُ من شطره الثانى ، وهو « شطر التطبيق » .

وهذا الذى حدَّثْتُكَ عنه ، ليس خاصاً بأُمَّةٍ ، بل هو شأن كُلِّ جيلٍ من الناس وكُلِّ أُمَّةٍ من الأمم ، كان لها « لغة » وكان لها « ثقافة » ، وكان لها بعد تمام ذلك « حضارة » مؤسَّسة على لغتها وثقافتها . فهذا « الأصل الأخلاقي » هو العاملُ الحاسمُ الذى يَمَكِّنُ لثقافة الأُمَّةِ بمعناها الشامل ، أن تبقى متماسكةً مترابطةً تزدادُ على الأيام تماسكاً وترابطاً ، بقدر ما يكونُ فى هذا « الأصل الأخلاقي » من الوضوح والشمول والتغلُّل والسيطرة على نفوس أهلها جميعاً ، سواءً فى ذلك النازلون فى مَيِّدان « ما قبل المنهج » أو فى مَيِّدان « المنهج » نَفْسِهِ ، وهم العلماء المفكِّرون والأدباء ، والمُتَلَقُّون عنهم : تلامذة كانوا ،

أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة . وكل اختلال يعرض فيضعف سيطرة هذا « الأصل الأخلاقي » ، أو يؤدي إلى غموضه أو غيابه أو تناسيه أو قلة الاحتفال به ، فهو إيدان بتفكك الثقافة وانهيار الحضارة إيداناً صارخاً لا معدى عنه ، مهما بلغت هذه الثقافة وهذه الحضارة ، في ظاهر الأمر أو في العيان ، مبلغاً سامقاً من العلة والانتشار ، ومهما كان لها من اللألاء والتبرج والزينة ما يفتن العقول ويسبي القلوب .

والحديث عن هذا « الأصل الأخلاقي » في كل ثقافة يطول ويتشعب ، ولكن من المهم أن تعلم أنه ليس قواعد عقلية ينفرد العقل بتقريرها ابتداءً من عند نفسه ، لأن القواعد العقلية مهما بلغت من القوة والسيطرة لا تستطيع أن تقوم بهذا العبء ، لسبب لا يمكن إغفاله في مثل هذه القضية ، وهذا السبب هو أن الأمر كله متعلق بالإنسان نفسه . وكل إنسان صندوق مغلق ، فيه من الطبائع والغرائز والأهواء المتنازعة بين الخير والشر ، وفيه أيضاً من القوة والضعف ، مقادير مختلفة لا تكاد تضبط أحوالها وآثارها ، وأيضاً لا يكاد يضبط ثقلها ثقلها يفضي إلى الحيرة في شأن صاحبها . وكما لا يتشابه اثنان من البشر في الخلقة والصورة والملاح ومعارف الوجوه ، فكذلك لا يتشابه اثنان في الطبائع والغرائز والأهواء ، ولا في مقادير القوة والضعف ، ولا في مقادير الأحوال والآثار والتقلبات التي تعرض لها وتنشأ عنها . فالضابط لهذا الموج المتلاطم المتصادم في الصندوق المغلق ، لا بد أن يكون كامناً في سريرة الإنسان نفسه ، مسيطراً عليه سيطرة مستمرة لا ينالها الوهن ، وفيه قوة شاملة قادرة على أن تُمسك بهذا الموج المضطرب إمساكاً لا يضطرب ، ويكون أيضاً رقيباً يقظاً ملازماً لا يغفل ، يكبح المرء عند كل منعرج ينعرج به إلى طريق الجور في كل خطوة يخطوها ، وينبّهه ويوقظه عند كل التفاتة تصرف وجهه عن سلوك الطريق المستقيم . فالقواعد العقلية المجردة ، لا تكاد تقوم

هذا العِبءُ كُلُّهُ ، بل « العقائد » وحدها هي صاحبة هذا السلطان على الإنسان ، لأنها إما أن تكون مغرورة في فطرته منذ خُلِقَ إنساناً غاقلاً مُبائناً لسائر الحيوان ، وإما أن تكون مكتسبةً ، ولكنها مُنزَّلةٌ مُنزلةُ العقائد المغرورة فيه ، ولأنها جميعاً هي التي يرتضعها من أمه وأبيه وجماعته منذ كان وليداً إلى أن يَشَبَّ وَيَعْقِلَ . ولذلك قلتُ لك آنفاً إن هذا الضابط الرقيب يأتي من قِبَلِ « الثقافة » ، ورأسُ الثقافة هو « الدين » أو ما كان في معنى « الدين » .

وأسلافنا ، نحن العرب والمسلمين ، قد مَنَحُوا هذا « الأصل الأخلاقي » عنايةً فائقةً شاملةً ، لم يكن لها شبيهة عند أمةٍ سبقتهم ، ولم يُتَخَ لأمةٍ لحقتهم وجاءت بعدهم أن يكون لها عندهم شبيهة أو مقارب . وهذه العناية بالأصل الأخلاقي هي التي حَفِظَتْ على الثقافة الإسلامية تماسكها وتربطها مدة أربعة عشر قرناً ، مع كُلِّ ما مرَّ عليها من القَوَارِعِ والنكباتِ ووقائع الدهرِ على طول هذا المَدَى ، ومع كُلِّ ما آتتْها من الضَّعْفِ ، ومع كُلِّ ما آعَتْوَرَهَا أو دخلَ عليها من التقصير والحُلُلِ . وبقاء هذا التماسك على طول القرون ، هو وَحْدَهُ إحدى عجائب الحضارات والثقافات التي عرفها البَشَرُ .^(١)

...

(١) كان ينبغي هنا أن أتمم القول في نشأة « الأصل الأخلاق » الذي بُنِيَ عليه ثقافتنا ، منذ حدث أول خلافٍ بعد وفاة رسول الله ﷺ ، بين أبي بكر وعمر وزيد بن ثابت في جمع القرآن العظيم وكتابته بين دَفَتَيْنِ ، ثم ما تلا ذلك من طلب التوثيق في رواية حديث رسول الله ﷺ ، ثم ما كان من أمر علماء الصحابة في الفتوى ، ثم ما كان من أمر التابعين ثم من بعدهم حتى نشأ علم الجرح والتعديل ، وهو علمٌ فريدٌ لا مثيل له عند أمةٍ من الأمم . ثم غلبة هذا « الأصل الأخلاقي » على الثقافة العربية الإسلامية كُلِّها ، في جميع علومها ، وعناية هذه الأمة بإفراد هذا الأصل بالتأليف ، كالذي أُلْفُوهُ في آداب العالم والمتعلم ، والفقيه والمتفقه ، وعلم النظر والمناظرة ، وعلم الجدل ، وعلم آداب الدرس ، إلى غير ذلك مما هو اليوم مجهول أو كالمجهول لانصراف الناس عنه ، وتركهم جمع شتاته وإعادة النظر فيه .

١٣ - لم أنتهِ بعدُ إلى جواب السؤال الذى بدأت به الفقرة العاشرة : كيف نشأ الخلاف ، ولم ، بينى وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ؟ ولا يأتيك الجواب صريحاً . بيناً أميناً ، إلاّ بعد أن أقصّ عليك قصّة تاريخ طويل سوف أختصره لك اختصاراً موجزاً أشدّ الإيجاز ما استطعت . وذلك لأنّ هذا الفساد لم يدخُل على ثقافتنا دخولاً يوشيك أن يطمس معالمها ويُطْفِئ أنوارها ، إلاّ بعد التصادم الصامت الخيف الذى حدّث بيننا وبين الثقافة الأوربيّة الحاضرة . وإذا نحن أغفلنا هذا التاريخ ولم نتبيّنه تبييناً واضحاً ، فكأننا أغفلنا القضية كلّها ، وأسقطناها إسقاطاً من عقولنا ، وخالفنا سنّة العقلاء المميّزين فى التبصّر والتّبيين وترك التساهل عند مواطن الخطر ، وصار كلامنا فى « الثقافة » سدى كلّهُ وهدرًا ، ثم عبثاً وثرثرة وتغريراً ، كما هو حادث الآن فى حياتنا الأدبية هذه الفاسدة ، وصار الأمر كلّهُ جُبناً عن طلب الحقّ ، واستنامةً لخداع الباطل وتُسويله الخفى ، واستدراجه إيانا إلى سَرابٍ مُهلِك .

• همّ ، أعنى الأوربيين ، يرون أن أوربة سقطت فى حماة « القرون الوسطى » المظلمة ، منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ، أى قبل الهجرة بنحو مئة وخمسين سنة ، والحقيقة أن أوربة التى هى قلب القارّة ، كانت ساقطة فيما هو أسوأ من « القرون الوسطى » قبل ذلك بقرون طويلة . كانوا فى جاهليّة جهلاء ، أهلها همجّ هامجّ ، لا دين يجمعهم ، حتى جاء « عصر النهضة » فى القرن السادس عشر الميلادى (١٦٠٠ م) ، أى بعد عشرة قرون . وفى خلال هذه الفترة حدث أمران مهمّان ، إغفال النظر إليهما من قِبلنا نحن ، يُضِرُّ بتصوُّرنا للحقيقة التى ينبغى أن يعرفها صغيرنا وكبيرنا ، ورجالنا ونساؤنا ، على وجهها الصحيح ، لا على الوجه الذى علّمناه فى المدارس صغاراً ، بل لا نزال نُعلِّمه أولادنا ، وكان من أهمّ أسباب فساد حياتنا الأدبيّة إلى اليوم .

• الأمر الأول : « الحروب الصليبية » التي بدأت سنة ١٠٩٦ م (٤٨٩ هـ) ،

أى بعد ستة قرون من سقوط الإمبراطورية الرومانية ، فى خلالها كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلب على رُقعة ممتدة من حدود الصين إلى الهند ، إلى أقصى الأندلس ، إلى قلب إفريقية ، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة كاملة ، بعد أن ردَّ النصرانية وأخرجها من الأرض ، وحصرها فى الرقعة الشماليّة التى فيها هذا الهمجُ الهامجُ الذى كان يعيش فيما يعرف اليوم باسم « أوربة » . وظلَّ الصِّراعُ مُشتعلًا مُدَّة خمسة قرون ، بين النصرانية المحصورة فى الشمال وبين الإسلام الذى يتاخَّمها جنوباً . ولكنَّ جيوشَ النصرانية لم تستطع أن تفعلَ شيئاً يُذكرُ ، مع تطاول الأمر . وتدبَّر الأمرُ قادة النصرانية ، وهم رجال الكنيسة وملوك الإقطاع ، وداخلتهم الخشية ، وخافوا أن يُفضى الأمرُ إلى زوال سلطان النصرانية عن جنوب أوربة ، كما زال بالأمس عن الأندلس . فرأوا أن يتَّجهوا إلى الشمال ، ليدخلوا فى النصرانية هذا الهمج الهامج الذى لا دين له يجمعه ، ليكون بعد قليل مددًا لجيوش جرّارة تطبِّق على ثغور الإسلام وعواصمه فى الشام ومصر ، (الثغور ، والعواصم ، هى البلاد المتاخمة لحدود العدو من النصارى وغيرهم) .

انطلق الرهبانُ يجوبونَ شمال أوربة ليدخلوا الهمج الهامج فى النصرانية ، ويُعدُّوهم إعداداً عظيماً لخوض المعركة العظيمة بين الإسلام النصرانية ، وكان جزءاً من هذا الإعداد : تبشيعُ « الإسلام » فى عيونهم ، وأن أهل الإسلام وثنيون ، وأن رسول الإسلام كانَ وكان ... فلم يتركوا باباً من الكذب والتمويه والبشاعة إلّا دخلوه ، ليُقرُّوا معانيه فى قرارة نفوس أتباعهم من الهمج الهامج ، ليكون حقاً محضاً ، قد نطق به راهبٌ أو ناسكٌ أو قسيسٌ ، فهو مُنزَّه لا ينطق إلّا بالحق . فهذا الحقُّ إذن ، هو عندهم قسيمُ الدِّين الذى آمنوا به واعتنقوه .

وجاءت سنة ١٠٩٦ م ، (٤٨٩ هـ) ، وجيشتُ الجيوشُ من هذا الهمج الهامج

من التُّرْمَنْدِيِّينَ والصَّقَالِبَةَ والسَكْسُونِ ، بقيادة الرهبانِ وملوكِ الإقطاع ، وبدأت « الحرب الصليبية » ، واكتسحت في طريقها أهل النَّصْرانية وسفحت دماءهم بفظاظة ، وبدأت تكتسحُ ثغور الإسلام وعواصمه الشمالية وتسفح الدماء المسلمة ، واستمرت قائمةً قرنين كاملين . كانت فرحةً رائعةً ، ولكنها انتهت بالإخفاقِ وباليأس من حربِ السلاح في سنة ١٢٩١ م ، (٦٩٠ هـ) ، بعد أن تركتُ في أنفُسِ المقاتلين الهَمَجَ بصيصاً من اليَقَظة والتنبُّه ، باحتكاكهم المستمرِّ بحضارةٍ راقيةٍ كانت تَفْتِنُهُمْ ، وتبعثُ في نفوسهم الشكَّ فيما كانوا قد سمعوه من رُهبانهم وملوكهم ، وتثيرُ في نفوس العائدين إلى مواطنهم ضروباً مختلفةً من القلق ، هي على قَلْتها يُحْشَى أن تنتشر في جماهير هذه الأمم الجاهلة ، فتُضْعِفَ حِمِيَّتَهُمْ ونُحُوَّتَهُمْ . وكانت حسرةً وغُصَّةً في قلوب الرُّهبان والملوكِ والمثقفين ، وحاولوا أن يستبقوا هذه الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين قائمةً راسخةً في أنفُسِ الجماهير المتحمسة للدفاع عن نصرانيتها الجديدة . هذه واحدة .

• الأمر الثاني : بطل عمل السلاح بالإخفاقِ واليأس ، وخمدت الحروب تقريباً بين الإسلام والصليبية نحو قرنٍ ونصف قرنٍ ، ثم وقعت الواقعة . اكتسحت الأرض المسيحية في آسية ، في شمال الشام ، ودخلت برُمَتِها في حوزة الإسلام . وفي يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها « محمد الفاتح » بالتكبير والتهليل ، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرق . إذن ، فقد وقعت الواقعة !! واهتزَّ العالم الأوربيُّ كُلُّهُ هَزَّةً عَنيفةً ممزوجةً بالخزي والخوف والرُّعب والغضب والحقد ، ولكن قارنَ ذلك إصرارَ مستميتٍ على دَفْعِ هذا الخزيِّ ، وإمَاطة هذا الخوف والرُّعب ، وإشعال نيران الغضب والحقد ، بحمِيَّةٍ تأنفُ من الاستكانة لذلِّ القَهْر الذي أحدثته « محمد الفاتح » ورجاله من المسلمين الظافرين .

ومن يومئذ ، بدأت أوربة تتغير ، لتخرج من هذا المازق الضنك . وبهمة لا تفتر ولا تعرف الكلل ، بدأ الرهبان وتلاميذهم معركة أخرى أقسى من معارك الحرب ، معركة المعرفة والعلم الذى هياً للمسلمين ما هياً من أسباب الظفر والعلبة . لقد علموا الآن أن معركة السلاح لن تُغنى عنهم شيئاً ، وهذه أمواج المسلمين تندفق في قلب أوربة غرباً ، ويدخل الإسلام سِلماً بلا إكراه جماهير غفيرة ، كانوا بالأمس نصارى متحمسين في قتال المسلمين ، الوثنيين ، كما أوهمهم الرهبان ، فلم يُغن هذا الإيهام عنهم شيئاً .

...

١٤ - وهذا المازق الضنك في حياة المسيحية ، له تاريخ قديم سابق لا يمكن إغفاله ، بل ينبغي أن يكون واضحاً لنا كلّ الوضوح ، لأنّ غموضه سبب كبير من أسباب فسّاد حياتنا الأدبية إلى هذا اليوم ، بل إلى هذه الساعة التى تقرأ فيها كلامى . فعند مجيء الإسلام ، كان سلطان الكنائس المسيحية مبسوطاً على الشام ، ومصر ، وشمال إفريقيا ، وأرض الأندلس منذ قرون طويلة سبقت . وفي طرفة عين ، في أقل من ثمانين سنة ، تقوّض فجأة سلطان المسيحية على هذه الرقعة الواسعة المتراحة وزال زوالاً سهلاً ، وتقوّض أيضاً سلطانها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها ، ودخلوا دخولاً سهلاً يسيراً في الإسلام طوعاً بلا إكراه = بل أعجب من ذلك ، صاروا هم جند الإسلام وحماة ثغوره وعواصمه ، وقارعوا النصرانية وحصروها في الشمال الأوربي = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن دخلوا في العربية دخولاً غربياً وصار لسانهم لسانها = بل أعجب من ذلك أيضاً ، أن خرج من أصلابهم كثرة كاثرة من العلماء الكبار الذين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبالعلم والسيف . وصارت دار الإسلام كلها ديار ثقافة وعلم وخلق وحضارة تهر الأنظار والعقول ، في المشرق حيث مقرّ الخلافة في

دمشق وبغداد ، وفي المغرب حيث ديارُ الأندلس . كيف حَدَثَ هذا ؟ سؤالُ جوابه جوابٌ طويلٌ ليس هذا مكانه ، ولكنه كان سؤالاً يتردد في ضمير المسيحية كلها .

كَانَ جُزْءًا من جواب هذا السؤال أن جاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تسترد ما ضاع ، وظَلَّتْ أربعة قرونٍ تحاول أن تعود فتخترق هذا العالم الإسلامي من طرفه الشمالي عند الشام ، وذَهَبَ جهدها هدرًا ، ولم يُغنِ عنهم السلاحُ شيئًا . وكلُّ يوم يمرُّ ، يزدادُ رعايا الرهبان والملوك انبهارًا بالإسلام وتُخلقه وثقافته وحضارته ، ولم ينبُج من هذا الانبهار لا الملوك ولا الرهبان أنفسهم . وضاق الأمر ، وكاد اليأس يُخامر قلب المسيحية ، لا تدري ماذا تفعل في تساقط رعاياها في الإسلام ، أو في ثقافته وحضارته ، طوعاً بلا إكراه . ما معنى هذا ؟ أيكونُ معناه أن المسيحية على ما هي عليه غير مُقْنَعَةٍ لجماهير الرعايا ؟ ولم يُجِروا جواباً ، ولا وجدوا لأنفسهم مخرجاً ، وَالتَقَّتْ حَلَقَتَا البِطَانِ ! (البِطَانُ : حِزَامُ الرَّحْلِ عَلَى البعير ، وهو مَثَلٌ يضربُ للأمر إذا اشتدَّ وضاق) .

ثُمَّ جَاءَ ما يبَدِّدُ هذا اليأس . هذه هي الجيوش الجرارة من الهَمَجِ الهامجِ تندفق من قلب أوربة ، تريد أيضاً مرة أخرى ، اختراق العالم الإسلامي من شماله في الشام . وَنَشِيتِ الحروبُ الصليبيةُ التي ستستمرُّ قرنين كاملين (١٠٩٦ - ١٢٩١ م / ٤٨٩ - ٦٩٠ هـ) ، في خلالها استولوا على جزءٍ من أرض الشام ، وأقام به بعضهم إقامةً دائمةً ، وأنشأوا ممالك ، وخالطوا المسلمين مخالطةً طويلةً ، وأحرزوا من كنوز العالم الإسلامي ثروةً هائلةً يستمتعون بها ، وعَرَفَ الهَمَجُ الهامجُ ما لم يكن يعرف ، وامتألت قلوبهم شهوةً ورغبةً فيما فَتَنَتْهُمُ به ديارُ الإسلام وحضارته . ويعود العائدون بعد كل حملةٍ من الحملات السبع الصليبية إلى ديارهم وأهلهم ، يتحدثون بما رأوا ، ويصفون ما حازوا ، ويبالغون في كُلِّ ذلك ، وينهر السامعون ويتوقون إلى الرحلة والانضمام إلى كتائب المجاهدين الصليبيين ، لتحقيق آمالهم في الغنى والثروة والاستمتاع ، ولكن طول معاشره هذه

الجماهير للمسلمين أحدث لكثير منهم قلقاً في صدق ما كانوا يسمعون من الرهبان المتحمسين المحرضين على الحرب ، وهم يُبشّعون لهم أمر المسلمين ودينهم وأخلاقهم ، وحمل العائدون أيضاً هذا القلق وتحدثوا به . هكذا كان شأن جماهير الهمج الهامج في ديارهم ، فإذا طال هذا وتكاثر ، فإنه ممّا يهدّد المسيحية في عُقر ديارها في الشمال كلّهُ ، بلا شك .

وانتبه بعض الرهبان والملوك وعُقلاء الرجال ، وبخثوا عن مخرج قبل أن يتفاقم الأمر . فكان بينا لعقلائهم أن سِرَّ قوّة الحضارة الإسلامية هو العلم ، علم الدنيا وعلم الآخرة . فعلم الآخرة ، وهو الدين ، مُقنّع لجماهير البشر ، فهم يدخلونه طوعاً واختياراً = وعلم الدنيا ، كما رأوا ، هو الذى مكّن لهذه الحضارة الإسلامية أن تمتلك هذه القوة الهائلة المتناسكة التى شّعروا أنها مستعصية على الاختراق ، وهذه الأبهة الهائلة التى تعيش فيها دار الإسلام .

ومضى نحو قرن ونصف من الحملات الصليبيّة ، وأصبح الأمر أشدّ حرّجاً ، وصار بيناً أن الحروب الصليبيّة تُوشِك أن تُؤوب بالإخفاق مرّة أخرى . فانبعث منهم رجال يطلبون العلم والمعرفة في أرض الإسلام ما استطاعوا ، في المشرق وفي الأندلس ، وظهر رجال من طبقة « روجر بيكن » الإنجليزي ، (١٢١٤ - ١٢٩٤ / ٦١١ - ٦٩٣ هـ) ، ممّن شاموا العرب والعربيّة ، وجاهدوا في التعلّم جهاد المستميت بصبر وذأب ، ليزحوا عن أنفسهم وأهلهم غوائل الجهل . وهبّ رجال من الرهبان ذوى الحميّة أحسّوا بالخلل الواقع في الحياة المسيحية التى لم تحم رعاياهم من التساقط السهل في الإسلام على طول القرون ، هبوا لإصلاح هذا الخلل . فكان من أكبرهم رجُل ذكّى متوقّد ، جاهد جهاداً عظيماً في سبيل دينه ، أراد أن يزيل جهالة الرهبان والملوك ، ويمكّن لهم حُجّة مُقنّعة تحوّل بينهم وبين هذا الانهار بالإسلام وثقافته

وحضارته . ذلك الرجل هو « توما الإكويني » الإيطالي الكاثوليكي ، (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م / ٦٢٢ - ٦٧٣ هـ) ، وبذكائه وحميته وإخلاصه ، استطاع أن يحصل قدراً كبيراً من العلم والمعرفة ، مُتَكِنًا اتِّكَاءً كاملاً على القَدَر الذي استطاع أن يفهمه ويظفر به من عند كتاب الإسلام وعلمائه وفلاسفته ومُتَكَلِّميه ، كابن رُشْد وابن سينا وغيرهم ، مريداً بكل ذلك إصلاح الحَلَل الواقع في الحياة المسيحية ، والذي أضعف سلطان الكنيسة والرهبان على نفوس رعاياهم الذين لا سبيل لهم إلى معرفة شيء من دينهم إلا عن طريق الكنيسة والقسيسين والرهبان . ولكن كان العائق عن أن تُؤتَى هذه النهضة ثمارها يومئذ أن لغة الرهبان ثم العلماء كانت هي اللاتينية القديمة ، وهي لغة لا تعرفها جماهير رعايا الكنيسة ، وكانت أوربة كلها تتكلم لغات كثيرة مختلفة ، ولَهْجَات شديدة التباين ولكنها لغات قَلِقَةٌ في دور التكوين . وكان أكثر هذه الجماهير أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، فأصبح الرهبان والعلماء يسرون في طريق ، ورعايا الرهبان يسرون في طريق آخر ، فهم قطعاً يَنعِقُ فيه ناعق بما لا يسمع إلا دُعَاءً ونداءً صُمُّ بكمْ غُمَّى فهم لا يعقلون .

وقضى الله قضاءه في السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٩٠ هـ (١٧ من يونيه سنة ١٢٩١ م) ، وسقط آخر حصن كان للصليبيين في الشام ، ورجعت آخر فلول الحملات الصليبية إلى مواطنها متهاككةً يائسةً مُسْتَحْذِيَةً صُفْرَ الوجوه من الخزي والعار ، وفي قلوبها حسرة قاتلة على ما خرج من أيديها من متاع الدنيا وبَهْجَتها وزُخْرُفها ، وفي سِرِّ أنفسها يأسٌ مُحَيَّرٌ وَيَقِينٌ مَفْزَعٌ : أن دار الإسلام ديارٌ ممتعة على الاختراق امتناعاً لا سبيل إلى تجربته مرةً ثالثة .

وأيضاً ، قضى الله قضاءه المستور الذي لم يكشف عنه الحجاب بعد : أن لا تكون الحرب الصليبية شرّاً محضاً على المسيحية المحصورة في الشمال ، بل قدراً مقدوراً

يَحْمِلُ لَهَا فِي طَيَّاتِهِ خَيْرًا مَحْجُوبًا ، لِيَكُونَ غَدًا ، بهذا الخيرِ الجَنِينِ ، عُقُوبَةً لِعِبَادِهِ فِي دَارِ
الإِسْلَامِ ، إِذْ أَعْجَبْتَهُمْ كَثْرَتُهُمْ ، وَغَرَّتَهُمْ قُوَّتُهُمْ ، وَتَاهُوا بِمَا أُوتُوا مِنْ زُخْرَفِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ،
وَرَكِبَ كَثِيرٌ مِنْ عَامَّتِهِمْ مُحَارَمَ اللَّهِ ، وَخَالَطُوا مَعَاصِيَّ قَدْ نُتْهُوا عَنْهَا ، وَنَسُوا حَظًّا مِنَ الْحَقِّ
الَّذِي فِي أَيْدِيهِمْ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، وَتَرَكُوا مَحْجَةً بَيِضَاءَ لَا يَضِلُّ
سَالِكُهَا ، وَاتَّبَعُوا السَّبِيلَ فَتَفَرَّقَتْ بِهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ سُبْحَانَهُ ، فَأَوْرَثَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ غَفْلَةً سَوْفَ
تَطُولُ بِهِمْ حَتَّى يَفْتَحُوا أَعْيُنَهُمْ فَجَاءَةً عَلَى بَلَاءٍ مَاحِقٍ . فَقَضَى رَبُّكَ أَنْ تَعِيشَ أَوْرَبُةً كُلُّهَا
قَرْنًا وَنُصْفَ قَرْنٍ بَعْدَ إِخْفَاقِ الْحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ ، (١٢٩١ - ١٤٥٣ م / ٦٩٠ -
٨٥٧ هـ) فِي إِصْرَارٍ لَا يَتَزَعَزَعُ ، وَفِي دَأْبٍ لَا يَعُوقُهُ مَلَلٌ ، عَلَى أَنْ تُصْلَحَ الْخَلَلُ الْوَاقِعُ
فِي الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَعَلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ بِكُلِّ وَسِيلَةٍ
مَا اسْتَطَاعَتْ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا ، رَجَاءً أَنْ تَجِدَ مَخْرَجًا مِنْ هَذَا الْمَازِقِ الضَّنَكِ الَّذِي
حُصِرْتَ فِيهِ . وَهُوَ تَارِيخٌ طَوِيلٌ حَافِلٌ يُعْجِزُنِي أَنْ أَقْصَهُ عَلَيْكَ الْآنَ .

...

١٥ - وَبَغْتَةً ، وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ فِي يَوْمِ الثَّلَاثَاءِ ٢٠ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ٨٥٧ / ٢٩
مَآيُو سَنَةِ ١٤٥٣ ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ » حَصْنَ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الْمُنِيْعِ الشَّائِخِ ، مَدِينَةَ
الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَقَضَى الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ، دَخَلَهَا قُبَيْلَ الْعَصْرِ عَلَى صَهْوَةِ جَوَادِهِ
الْمَطْهَمِ ، (الضُّخْمُ الْبَارِعُ الْجَمَالِ) ، وَاتَّجَهَ إِلَى « كَنِيسَةِ آيَا صُوفِيَا » ، وَجَاهِرُ رَعَايَا
الْكَنِيسَةِ يَصَلُّونَ وَيَتَهَلَّلُونَ وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ بَلَاءَ « التُّرْكِ » ، (أَيْ الْمُسْلِمِينَ) . فَلَمَّا
عَلِمَ الرَّاهِبُ بِقُدُومِهِ أَمَرَ بِفَتْحِ بَابِ الْكَنِيسَةِ عَلَى مُصْرَاعِيهِ ، وَارْتَاعَ الْمَصَلُّونَ وَمَاجُوا
وَاضْطَرَبُوا ، وَدَخَلَ « مُحَمَّدُ الْفَاتِحُ » ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ يُتِمُّوا صَلَاتَهُمْ آمَنِينَ غَيْرَ مُرَوِّعِينَ ،
وَأَمَّنَهُمْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَعْرَاضِهِمْ ، وَأَنْ يَعُودُوا إِلَى بِيُوتِهِمْ سَالِمِينَ . وَدَنَتِ صَلَاةُ الْعَصْرِ ، وَقَامَ

أحد العلماء فأذن للصلاة ، وصلى المسلمون العصر في « كنيسة أيا صوفيا » ، ومن يومئذ حُوِّلَت فصارت مسجداً . وانتشر الخبر كالبرق في أرجاء أوربة ، ومادت الدنيا بالخبر ، واهتزت دُنيا المسيحية الأوربية هِزَّة لم تعرف مثلها قط ، ولم يبق عليها راهب ولا ملك ولا أمير ولا صعلوك إلا انتفض انتفاضة الغضب لدينه . وما هو إلا قليل حتى انطلق « محمد الفاتح » ، وانساحت كتائب الإسلام في قلب أوربة ... يا لها من فجعية !! وكان ما كان

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عُنْفِها ، وعلى سُرْعَةِ ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام مُنْسَاحَةً في قلب أوربة ، لم تُفَتِّ في عضد المسيحية الشمالية ، بل على العكس ، زادها الإحساس بالخزي والعار حماسة وتصميماً وتحرقاً وحقداً خالط كل نفس من الخاصة والعامة ، وصار همُّ « الترك » ، (أى المسلمين) ، همّاً مؤرقاً للعالم والجاهل والصغير والكبير والذكر والأنثى ، وهام الرهبان وغير الرهبان في جنّبات أوربة غضاباً يحرضون رعاياهم على قتال هذه « الترك » ، (أى المسلمين) ، بكل لسان قادرٍ على الإثارة وعلى التبشيع ، تبشيع هذه « الترك » . وكلما ازداد « الترك » توغلاً في أرض أوربة « المقدسة » ، ازداد الخوف ، وازداد التحريض على البغضاء والحقد ، ومع البغضاء المكتومة والتحريض ، زاد التصميم على المقاومة . وتمضى الأيام والسنون وتتطاوّل ، وأوربة بأسرها لا تنام إلا على فراش من الرّمضاء اللاذعة ، لا يدعُ لجنب ساعة من طُمأنينة ، يفرّغه شبح « الترك » ، وذكرى قرون طويلة من الإخفاق والمهانة والعار ، ولا قرار على دوى أصوات صارخة تُهيب بهم إلى رفع هذا العار ودفعه عن دينهم وعن أنفسهم وعن أوطانهم بكل سبيل . وكذلك رسخت في العظام الحية ، لا في النفوس وحدها ولا في العقول ، بغضاء سارية مشتتة للفظ « الترك » ، (أى المسلمين) ، لا تردأ على الأيام إلا توهجاً وانتشاراً ، ونزلت من النفوس منزلة « الدّين » الراسخ في أعماق الفطرة .

وهذه البغضاء المشتعلة النافذة فى غور العظام هى التى دفعت أوربة دفعا إلى طلب المخرج من المأزق الضنك ، وهى التى أيقظت الهمم يقظة لا تعرف الإغماض . وباليقظة المتوهجة دار الصراع فى جنابات أوربة بين جميع القوى التى كانت تحكم جماهير الهمج الهامج . ومن قلب هذا الصراع خرجت طبقة إصلاح خلل المسيحية الشمالية مرة أخرى ، فخرج الراهب الألماني « مَرْتِن لُوتِر » (١٤٨٣ - ١٥٤٦ م / ٨٩٤ - ٩٥٣ هـ) ، والراهب الفرنسى « جون كلفن » (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م / ٩١٤ - ٩٧١ هـ) ، وخرج السياسى الإيطالى الفاجر « نيكولو مَكْيافلى » (١٤٦٩ - ١٥٢٧ / ٨٧٠ - ٩٣٤ هـ) ، وخرج أيضا صراع اللغات واللهجات المتباينة ، طلبا لاستقرار لغة موحدة لكل إقليم ، وإخراج سيطرة « اللاتينية » العتيقة من طريق الرهبان والعلماء والكتاب ، لكى يُمكن نشر التعليم على أوسع نطاق بين جماهير الهمج الهامج من رعايا الكنيسة وتاريخ طويل حافل متنوع ، وجهاد مرير قاس ، فى سبيل اليقظة العامة والتنبيه والتجمع لإعداد أمة مسيحية قادرة على دفع رعب « الترك » ، (أى المسلمين) ، عن أرض أوربة « المقدسة » . وبدأت اليقظة ذات الهدف الواحد الذى لا يغفل عنه راهب ولا عالم ، ولا صغير ولا كبير ، ولا عامى ولا متعلم ، ولا رجل ولا امرأة . ومع اليقظة تفجر أعظم سيل يكتسح أمية الهمج الهامج ويخرجه من أغلال الجهالة ، ويجعل هذا الهدف الواحد مستقرا فى جوف العظام ، مع البغضاء والحق ، ومع التصميم والإرادة ، ومع اليقظة والتنبيه ، وطالت الليالى والأيام ، فما هو إلا قليل حتى كان ما كان

وبعثة ، كما كان اقتحام المسلمين قلب أوربة بعثة ، تهاوت الحواجز التى كانت تمنع حركة اليقظة والتنبيه فى أعقاب الحروب الصليبية لأن ثوق ثمارها ، (كما أشرت إليه آنفا فى الفقرة الرابعة عشرة) ، وخرجت أوربة من أصفاد « القرون الوسطى » ، ودخلت

بعد جهادٍ طويلٍ مريرٍ في « القرون الحديثة » كما يسمُّونها . ومع تقوُّص هذه الحواجز ، ظهرت براعمُ الثَّمارِ الشَّهية ، وبظهورها غُضَبٌ ناضِرٌ ، زادت الحماسة ، وتعلت الهِمَمُ ، ومُهَّدَ الطريقُ الوعرُ ، ودَبَّت النَّشْوَةُ في جماهير المجاهدين ، وتحدَّدت الأهداف والوسائلُ ، وتبيَّن الطريقُ اللاَّجب . ومن يومئذٍ بدأ الميزانُ يَشُولُ ، فارتفعت إحدى الكِفَتَيْنِ شيئاً ما ، وانخفضت الأخرى شيئاً ما . ارتفعت كِفَّةُ أورُبَّةِ هذه اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة والحديثة ، وانخفضت كِفَّةُ المسلمين بهذه الغفلة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الغرورُ بالنَّصر القديم والنصر الحديث وفتح القسطنطينية . وكذلك شال الميزان ، وكانت فرحة محسوسة في جانب ، وكانت غفلة لا تُحسُّ في جانب . تاريخٌ طويلٌ مضى وغاب ، وتاريخٌ طويلٌ سوف يأتي ، ثم لا يعلمُ إلاَّ الله متى يكون غيابه .

...

١٦ - والآنَ تستطيعُ أن تتبيَّن أربعَ مراحلَ واضحةً للصراع الذي دار بين المسيحية الشمالية والإسلام :

• المرحلة الأولى : صراعُ الغُضَبِ لهزيمة المسيحية في أرض الشام ودخول أهلها في الإسلام ، فبالغضب أملت اختراق دار الإسلام لتستردَّ ما ضاع ، تدفعها بغضاء حيَّة متساحمةٌ ، لم تمنع ملكاً ولا أميراً ولا راهباً أن يُمَدَّ المسلمين بما يطلبونه من كُتُب « علوم الأوائل » ، (الإغريق) ، التي كانت تحت يد المسيحية يعلوها الترابُ . وظلَّ الصراع قائماً لم يفتر ، أكثر من أربعة قرونٍ .

• المرحلة الثانية : صراعُ الغُضَبِ المتفجِّر المتدفِّق من قلب أوربة ، مشحوناً ببغضاء جاهلةٍ عاتيةٍ عنيفةٍ مكتسحةٍ مُدمِّرةٍ سَفَّاحَةٍ للدماء ، سَفَحَتْ أَوَّلَ ما سَفَحَتْ دماءَ أهل دينها من رعايا البيزنطية ، جاءت تريدُ هي الأخرى ، اختراق دار الإسلام ،

وذلك عهد الحروب الصليبية الذي بقى في الشام قرنين ، ثم ارتدَّ خائباً إلى موطنه في قلب أوربة .

• المرحلة الثالثة : صراعُ الغَضَبِ المكظوم الذي أُوْرثه اندحارُ الكتابِ الصليبيَّة ، من تحته بغضاء متوهَّجة عنيفة ، ولكنها متردِّدة يكبحها اليأسُ من اختراق دار الإسلام مرَّةً ثالثة بالسلاح وبالحرب ، فازتدعَّت لكي تبدأ في إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، بالاتِّكاء الشديد الكامل على علوم دار الإسلام ، ولكي تستعدَّ لإخراج المسيحيَّة من مأزِقِ ضنكٍ مُؤسِّس ، وظلَّت على ذلك قرناً ونصف قرن .

وهذه المراحلُ الثلاث ، كانت ترسُفُ في أغلال « القرون الوسطى » ، أغلال الجَهْل والضَياع . ولم تصنع هذه المراحل شيئاً ذا بال .

• المرحلة الرابعة : صراعُ الغَضَبِ المشتعل بعد فتح القسطنطينية ، يزيده اشتعالاً وتوهُّجاً وقوَّةً من لهيب البغضاء والحقدِ الغائر في العِظام على « التُّرك » ، (أى المسلمين) ، وهم شَيْخٌ مُخِيفٌ مندفعٌ في قَلْبِ أوربة ، يُلقَى ظِلُّه على كُلِّ شَيْءٍ ، ويفزَعُ كُلَّ كائنٍ حيٍّ أو غير حيٍّ بالليل وبالتَّهَارِ . وإذا كانت المراحلُ الثلاثُ الأوَّلُ لم تصنع للمسيحيَّة شيئاً ذا بال ، فصراعُ الغضبِ المشتعل بلهيبِ البغضاء والحقد هو وحده الذي صنَّع لأوربة كُلَّ شَيْءٍ إلى يومنا هذا .

صنَّع كُلَّ شَيْءٍ ، لأنه هو الذي أدَّى بهم إلى يَقْظَةٍ شاملة قامت على الإصرار ، وعلى المجاهدة المثابرة على تحصيل العلم وعلى إصلاح خَلَل الحياة المسيحية ، ولكن لم يكن لها يومئذٍ من سبيل ولا مددٍ ، إلَّا المددُ الكائن في دار الإسلام ، من العِلْمِ الحَيِّ عند علماء المسلمين ، أو العِلْمِ المسطَّر في كُتُب أهل الإسلام . فلم يتردَّدوا ، وبالجهد الخارق ، وبالحماسة المتوقدة ، وبالصبر الطويل ، انفكَّت أغلالُ « القرون الوسطى » بغتةً عن قَلْبِ أوربة ، وانبعثت نهضة « العصور الحديثة » مستمرةً إلى هذا اليوم .

من يومئذ ، عند أول بدء اليَقْظَة ، تحدّدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدّدت وسائلها . لم يَغِبْ عن أحد منهم قط أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لأنهم كانوا يومئذ يعيشون في ظلّ شبحٍ مُخِيفٍ متوغّل في أرض أوربة المقدسة ببأسٍ شديدٍ وقوّةٍ لا تُردّع ، بل هو شبحٌ متحوّل يطوف أنحاء القارة كلّها ، لا يَطْرِفُ فيها جَفْنٌ حتّى يراه ماثلاً في عينه آناء الليل وأطراف النهار ، « التُّركُ التُّركُ » !! . وهذه « التُّركُ » ، وهم المسلمون ، طلائع عالمٍ إسلاميّ زاخرٍ هائلٍ مُخِيفٍ غيرٍ معروفٍ لهم ما في جَوْفِهِ ، مسيطرٍ على رقعةٍ متراحبةٍ ممتدّةٍ من الأندلس إلى أطراف تخطيط بأرض روسيا ، إلى جوف قارة آسية ، إلى جوف قارة إفريقية . وهم يعلمون الآن علماً ليس بالظنّ ، أن السلاح ، في هذه المرحلة الرابعة ، (وهو يومئذ قريبٌ من قريب) ، ليس يُغْنِي غَنَاءً حاسماً ، فقد وعظمتهم المراحل الثلاث الأولى ، فنَحَوْا أمره جانباً إلى أن يحين حينه ويُصْبِحَ قادراً وحاسماً . لم يبقَ لَهُمْ ، إذن ، إلا سلاحُ العقل والعلم والتفوق واليقظة والفهم وحسن التدبير ، ثم المَكْرُ والدهاء واللّين والمداينة وتُرك الاستشارة ، استشارة عالمٍ ضخمٍ مجهولٍ ما في جوفه ، ولا قبلَ لهم بتدفّق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « التُّركُ » الظّافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة . وهذه رعايا المسيحية أمام أعينهم تتساقط في الإسلام ، مرّةً أخرى ، طائعةً مختارةً ، وتدخل بحماسةٍ و يقين ثابتٍ في جحافل الإسلام الطاغية ! يا لها من فجیعة !! ويرتاع مع كلّ فجرٍ قلبُ المسيحية ، ويعلّي رهبانها ورعاياهم بُغْضاً للإسلام ، وحماسةً وغضباً للمسيحية ، ويرسخ الإصرار في القلوب على دَفْعِ غائلة الإسلام ، وعلى التماس قهره بكلّ وسيلةٍ ومن كلّ سبيل ، وتتلهب أمانى الاستيلاء على كنوزه الباهرة التي لا تنفد ، والتي غالى في تصويرها لهم العائدون من الحرب الصليبية الثالثة ، (وهي الحملات السبع المعروفة باسم « الحروب الصليبية ») ، وصارت أحلاماً بهیجةً يحلم بها كلّ صغير وكبير ، وعالم وجاهل ، وراهبٍ ورعيّة ، بل

صارت شهوةً عارمةً تدبُّ ديبياً في كُلِّ نفسٍ ، بل صارت غريزةً مستحكمةً من غرائز النفس الأوربية . هذا إنجازٌ شديدٌ لما كان ، وليكنْ منك على ذِكْرٍ أبداً لا تنساهُ .

كان كُلُّ مددِ اليَقْظَةِ ، كما قدِّمتُ ، مُستجلباً كُلَّهُ من علوم دار الإسلام ، من العِلْمِ الحَيِّ في علمائه ، ومن العلمِ المُسَطَّرِ في كُتبه . والسبيلُ إلى ذلك في الأمرين جميعاً كان معرفة لسانِ العرب . ولن أقصَّ عليك التاريخ الطويل ، ولكن أعلم أنَّ لسان العرب كان له السيادة المطلقة على العالم ، قروناً قبل ذلك طويلاً ، وكانت المسيحية الشمالية مجاورةً لهذا السلطان المطلق ، ومصارعةً لأهله صراعاً طويلاً تارةً ، ومخالطةً لهم بالتجارة والرحلة وغيرهما زمناً طويلاً تارةً أخرى ، ولذلك كان هذا اللسان العربيّ معروفاً معرفةً جيدةً لطوائف من العامة والخاصة في ديار بيزنطة من ناحية ، وفي قلب أوربة نفسها لمجاورتها الأندلس . ولن أشغل نفسي بالحديث عن هذا التاريخ ، وقد مضتْ من قَبْلُ إشارةً إليه خاطفةً ، فالذى يعينى هنا ما كان عند بدءِ اليَقْظَةِ في أوربة . فبالهمة والإخلاص والعقل أيضاً ، كان لابدَّ لَهُمْ من أن يزدادَ عددُ الذين يعرفون اللسان العربيّ ويحيدونه زيادةً وافرةً ، ^(١) لحاجتهم يومئذٍ إلى أن يعتمدوا اعتماداً مباشراً على الاتصال بالعلم الحَيِّ في علماء الإسلام ، لكي يتمكنوا من حلِّ الرُّموز اللُّغوية الكثيرة المسطرة في الكتب العربية ، ولا سيَّما كتب الرياض والجبر والكيمياء والطبِّ والفلك وسائر علوم الصناعة التي قلَّ من يعرفها .

فكان من الأهداف والوسائل ، كما ذكرتُ قبلُ ، بعثةُ أعدادٍ كبيرةٍ ممن تعلموا العربية وأجادوها إجادَةً مَّا ، تخرجُ لتسيح في أرض الإسلام ، وتجمع الكتبَ شراءً أو سرقةً ،

(١) لم يقتصر أمرهم على تعلم اللسان العربي ، بل انطلقوا يتعلمون كُلَّ لسانٍ كان في دار الإسلام ، كالتركي والفارسي وغيرهما من لغاتِ كانت للمسلمين منطوقة ، أو في القرايطيس مكتوبة .

وَتَلَاقَى الْخَاصَّةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَتُخَالِطُ الْعَامَّةُ مِنَ الْمُتَقَفِينَ وَالذَّهْمَاءِ ، وَتُكُونُ فِي الْعُقُولِ وَفِي الْقَرَاظِيسِ مَا عَسَى أَنْ يَنْفَعَهُمْ فِي فَهْمِ هَذَا الْعَالَمِ الَّذِي اسْتَعَصَى عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ وَاسْتَعْلَى قُرُونًا طَوَالًا . يَخْرُجُونَ أَفْوَاجًا تَتَكَاثَرُ عَلَى الْأَيَّامِ ، وَيَجُوبُونَ أَرْجَاءَ هَذَا الْعَالَمِ ، وَيَعُودُونَ لِإِتِمَامِ عَمَلَيْنِ عَظِيمَيْنِ : إِمْدَادِ عُلَمَاءِ الْيَقِظَةِ بِهَذِهِ الْكُنُوزِ النَّفِيسَةِ مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي حَازَوْهَا أَوْ سَطَرُوا عَلَيْهَا ، وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى مَا وَقَفُوا عَلَيْهِ فِيهَا ، بِاذْلِينَ كُلِّ جُهْدٍ وَمَعُونَةٍ فِي تَرْجُمَتِهَا لَهُمْ ، وَفِي تَفْسِيرِ رُمُوزِهَا بِقَدْرِ مَا اسْتَفَادُوا مِنَ الْعِلْمِ بِهَا = وَأَيْضًا إِطْلَاعَ رُهْبَانِ الْكَنِيسَةِ وَمُلُوكِهَا عَلَى كُلِّ مَا عِلِمُوا مِنْ أَحْوَالِ دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَمَا رَأَوْهُ عَيْنَانًا فِيهَا ، وَمَا لَاحِظُوهُ اسْتِبْصَارًا . وَكَانَ أَهَمُّ مَا لَاحِظُوهُ أَوْ خَبَرُوهُ ، هَذِهِ الْعَقْلَةُ الْمُطَبَّقَةُ عَلَى أَرْضِ الْإِسْلَامِ ، وَالَّتِي أَوْرَثَهُمْ إِيَّاهَا الْاسْتِنَامَةُ إِلَى النَّصْرِ الْقَدِيمِ عَلَى الْمَسِيحِيَّةِ ، وَالْإِغْتِرَارُ بِالنَّصْرِ الْحَادِثِ بِفَتْحِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، ثُمَّ سَمَاحَةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ عَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ مَعَ مَنْ دِينُهُ يَخَالِفُ دِينَهُمْ ، وَلَا سِيَّمًا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى ، لِأَنَّهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وَأَهْلُ ذِمَّةٍ ، وَلَأَنَّهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُولِينَ الْكَرِيمِينَ مُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَلِأَنَّ دِينَ أَحَدِهِمْ لَا يَسْلَمُ لَهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ سَبْحَانَهُ = وَأَعْلَمُوا رَهْبَانَهُمْ وَمُلُوكَهُمْ أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَسَّرَ لَهُمْ أَنْ يَجُوبُوا فِي الْأَرْضِ غَيْرَ مَرْوَعِينَ ، وَيَسَّرَ لَهُمْ خَاصَّةً أَنْ يُدَاهِنُوا الْعُلَمَاءَ وَالْعَامَّةَ وَيَنَاقِضُوهُمْ وَيُوهَمُوهُمْ بِالْمَكْرِ وَالْمِحَالِ أَنَّهُمْ طُلَّابُ عِلْمٍ لَا غَيْرِ ، خَالِصَةُ قُلُوبِهِمْ لِحُبِّ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالسَّرَائِرِ .

وَمِنْ يَوْمَئِذٍ نَشَأَتْ هَذِهِ الطَّبَقَةُ مِنَ الْأُورِيبِيِّينَ الَّذِينَ عُرِفُوا فِيمَا بَعْدَ بِاسْمِ « الْمُسْتَشْرِقِينَ » ، وَهُمْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ طَبَقَةٍ تَحَضَّتْ عَنْهَا الْبَيْقَظَةُ الْأُورِيبِيَّةُ ، لِأَنَّهُمْ جُنْدُ الْمَسِيحِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ ، الَّذِينَ وَهَبُوا أَنْفُسَهُمْ لِلْجِهَادِ الْأَكْبَرِ ، وَرَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَنْ يَظْلُوا مَعْمُورِينَ فِي حَيَاةٍ بَدَأَتْ تَمُوجُ بِالْحَرَكَةِ وَالْغِنَى وَالصِّيتِ الدَّائِعِ ، وَحَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ بَيْنَ الْجُدْرَانِ الْمُخْتَفِيَةِ وَرَاءَ أَكْدَاسٍ مِنَ الْكُتُبِ ، مَكْتُوبَةٍ بِلِسَانٍ غَيْرِ لِسَانِ أُمَّمِهِمُ الَّتِي يَنْتَمُونَ

إليها ، وفي قلوبهم كُلُّ اللّهب المُضْئ الذي في قلب أوربّة ، والذي أحدثته فجيحة سقوط القسطنطينية في حوزة الإسلام ، ولكن لا همَّ لهم ليلاً ولا نهاراً إلاّ حيازة كنوز علم دار الإسلام بكلِّ سبيل ، تنوّج أفئدتهم ناراً أعتى من كُلِّ ما في قلوب رُهبان الكنيسة ، ولكنهم كانوا يملكون من القدرة الخارقة أن يخاطبوا أهل الإسلام في ديارهم ، وعلى وجوههم سيمياء البراءة واللين والتواضع وسلامة الطوية والبشر . وبفضل هؤلاء المتبتلين المنقطعين عن زُخرف الحياة الجديدة = وبفضلهم وحدهم ، وبفضل ملاحظاتهم التي جمعوها من السياحة في دار الإسلام ومن الكتب ، وبذلوا للملوك المسيحية الشمالية ، نشأت طبقة السّاسة الذين يُعدّون ما استطاعوا من غدةٍ لردّ غائلة الإسلام ثمّ قَهَره في عُقر دياره ، ولتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تُخامر قلب كُلِّ أوربي ، أن يظفر بكنوز الدّنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام ، وهم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » = وبفضلهم وحدهم أيضاً ، وبفضل ملاحظاتهم التي زوّدوا بها رُهبان الكنيسة ، ثارت حميّة الرهبان ، ونشأت الطائفة التي نذرت نفسها للجهاد في سبيل المسيحية ، وللدّخول في قلب العالم الإسلامي لكي تُحوّل مَنْ تستطيع تحويله عن دينه إلى الملة المسيحية ، وأنّ ينتهي الأمر إلى قَهْر الإسلام في عُقر داره ، = هكذا ظنّوا يومئذٍ = وهذه الطائفة هي التي عُرفت فيما بعد باسم رجال « التبشير » .

فهذه ثلاثة متعاونة متآزرة متظاهرة ، وجميعهم يدّ واحدة ، لأنهم إخوة أعيان ، أبوهم واحد ، وأمهم واحدة ، ودينهم واحد ، وأهدافهم واحدة ، ووسائلهم واحدة . ليس من همّي هنا « التبشير » ، فقد فرغت من بعض شأنه في كتابي « أباطيل وأسما» ، وليس من همّي هنا « الاستعمار » ، لأنّا ذُقنا طرفاً من أفاعيله تجربة ومعاشرة ، وإن كان من خذلان الله لنا أنّا لم نفهمه فهماً نافذاً شاملاً على الوجه الصحيح ، ولكن همّي هنا مصروفٌ إلى « الاستشراق » لعلاقته الحميمة بفساد حياتنا الأدبية والاجتماعية = ولأنّ

حاجة « التبشير » و « الاستعمار » إليه ، حاجة كانت ملحةً ، وهى إلى اليوم حاجة دائمة ، لا يستغنيان عنه ولا عن نصائحه وإرشاداته وملاحظاته طرفة عين . ومرة أخرى ، لا تنس ما حييت أن هذه الثلاثة إخوة أعيان لأب واحد وأم واحدة ، لا تُفَرَّق قطُّ بين أحدٍ منهم .

...

١٧ - من العسير ، إن لم يكن من المُحالِ الممتنع ، أن أقصَّ عليك في كتاب كبير ، قصة شعوبٍ مختلفة كثيرة العدد ، تطاولت عليها أيام وتتابعَت سنون ، منذ ذرَّت عليهم شمسُ اليقظة ، ثم انبسطت عليهم أشعتها ، حتى تحرَّكت أوصالُ كُلِّ حيٍّ من جماهيرها الغفيرة ، هذا محالٌ . أفطنن ، إذن ، أنى قادرٌ على مثل ذلك في ورقاتٍ قلائل ؟ كلاً ، فما هو إلا هذا الوصفُ السريعُ الخاطف .

تهاوَتْ في أوربة سُدودُ الجَهل ، وانبثقت اليقظة ، وفتحت بعض مغاليق خزائن العلم ، وانقشعت ظلمة « القرون الوسطى » ، ولاحت تباشيرُ فجرٍ جديدٍ ، واصطفَّ الهمجُ الهامجُ كتابَ ترحفٍ في أيديها مصابيح ينبعث منها بصيصٌ يُضيءُ ليكشف غيَابَ الظُّلمات ، واستنارت الطُّرق ، وازدحم على سُلوكها كلُّ مُطيقٍ للزَّحف . وبالصبر وبالجُهد وبالجرأة وبالعزيمة وببُنيَّة التوانى ، صارت أوربة قوةً ثمَّ لها فتوح العلم الجديد بما يزيدُها بأساً وصرامةً ولا أقولُ شال الميزان ، بل أقولُ بطلَ عملِ الميزان ، وصارَ في الأرض عالمانِ عالمٌ في دار الإسلام مُفتحةٌ عيونُهم نيامً ، يُتأخَم من أوربة عالماً أيقاظاً عيونُهم لا تنامُ ، وقضى الأمرُ الذى فيه تستفتيان ! وبدأت « المرحلة الرابعة » في الصراع بين المسيحية المحصورة في الشمال ، وبين دار الإسلام التى تحجُب عنهم من ورائها عالماً مُبهماً مترامى الأطراف ، (انظر أول الفقرة السالفة : ١٦) .

وكان ما كان ... فمع اليقظة ازدادت « الأهداف » وضوحاً وجلّاءً ، وازدادت « الوسائل » دقّةً وتحديداً وشمولاً ، بعد أن وعظت أوربة المراحل الثلاث الأولى التي لم تصنع للمسيحية المحصورة في الشمال شيئاً ذا بال . « الأهداف » معروفة لك الآن ، أكبرها شأنًا هو اختراق دار الإسلام ، ثم تمزيقها من قلبها ، ثم الظفر بالكنوز الغالية التي كانت ، ولم تزل ، تراود كل قلب ينبض في أوربة بأحلام شرهية مسعورة إلى الغنى والثروة والمتاع ، غرست بذورها في أعماق النفوس أحاديث العائدين من حملات الحروب الصليبية القديمة . أما « الوسائل » ، فقد وضعت لها قواعد راسخة تجنبهم أخطاء المراحل الثلاث السابقة التي منيت بالإخفاق . كان على رأس هذه القواعد : تنحية السلاح جانباً ، بعد أن ثبت لهم إخفاقه في اختراق دار الإسلام ، لأنه يستثير ما لا يعلمون مغيبته من سوء العواقب ، وكفى بالتجارب الثلاث الغابرة وأعظاً . فمن يومئذ صارت القاعدة الراسخة في سياسة أوربة هي اجتناب استئثار هذا العالم الضخم المُبهم الذي كان « الترك » هم طلائع المظفرة الناشئة أظافيرها في صميم المسيحية الشمالية في قلب أوربة = ثم العمل الدائب البصير الصامت الذي يُتيح لهم يوماً ما تقليص هذه الأظافر وخلعها من جذورها = ثم استنفاد قوته بالمناوشة والمُطاولة والمثابرة ، بالدهاء والمكر والسياسة والصبر المتمادي ، حتى يأتي عليه يوم لا يملك فيه إلا أن يستكين ويستسلم ، وليكن كل ذلك من وراء الغفلة ، وبالدهاء والرفق تارة ، وبالتنمر والتكشير عن الأنياب تارة أخرى ... وكذلك كان ما كان ، وما هو كائن إلى هذه الساعة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

• وفضت المسيحية الشمالية قيود الحصار عن نفسها ، وخرجت جحافلها مكتسحة تجوب البحر والبر . انطلقت الأساطيل من شواطئ أوربة مزودة بالعدة والعتاد والرجال الأشداء والمغامرين ، والعلماء والرهبان ، وهدفها أن تطوق دار الإسلام

محيطتها بها من شواطئ المغرب إلى شواطئ الهند ، تتحسن مواطن الضعف في أقاليمها المتطرفة ، فانقضوا على الضعيف والعاجز والغافل ، وخادعوا وناقضوا ، وآستغفلوا وأرهبوا ، واستنزفوا ونهبوا ، وازدادوا شهوة وشراهة وجوعاً إلى الكنوز المخبوءة في قلب دار الإسلام ، واستضعفوا وسيطروا ، وهيب في القلوب لا تطفأ ناره . وفجأة ، وبمعونة البحارين المسلمين العرب ، عثر كولبس (١٤٥١ - ١٥٠٦ م / ٨٥٥ - ٩١٢ هـ) على أرض الهنود الحمر (أمريكا) . وما هو إلا قليل حتى تدفق السيل الجارف من أوربة ، يجذبه بريق الذهب والغنى ، وملا المغامرون القساء الغلاط الأرض البكر ، وزحفوا فيها واستباحوها ، وسفحوا دماء الملايين سفحاً مثيراً ، غدرًا وخسة ، لا يردعهم رادع عن استئصال شأفتهم بقسوة وعنف ، وشفى كل أوربي غليلاً كان في قلبه معداً لدار الإسلام ، واتجهت أساطيلهم إلى إفريقية تحتطف آلافاً مؤلفة من الآمنين السود مسلمين وغير مسلمين ، رجالاً ونساءً وصغاراً ، يحملونهم في السفن إلى هذه الأرض الجديدة البعيدة ، أرض الهنود الحمر ، وتهلك في هذه الرحلات آلاف كثيرة منهم تحت السياط ، وتبقى آلاف قليلة تلقى على البر لتكون تحت أيديهم بهائم مسخرة بالذل لعمارة الأرض . وظهر الفساد في البر والبحر ، وبلغت أوربة مبلغاً يزيد بها فجوراً وشراهة وسفكاً للدماء ، وغطرسه فوق ذلك تزداد على الأيام تعالياً في نشوة عارمة ، نشوة السكران الثمل إلى جانبها إفاقة من سكر ! وصارت أوربة عالماً مخيفاً مرهوب الجانب ، وتزداد كل يوم ثقافة وعلماً ، وفهماً وبقظة ، وتجربة وخبرة في كل خير وشر ، وتزداد أيضاً نفاقاً وحُبّاً ومكرًا وغدرًا بالآمنين حيث كانوا في أرجاء عالم كانت تحجبه عنهم دار الإسلام قروناً طويلة . أما دار الإسلام ، فعلى الأيام وهنت قوة طليعته المسلمة الناشبة في قلب أوربة ، وصارت داراً محصورة في الجنوب ، بعد أن كانت حاضرة للمسيحية في الشمال . وكذلك بدأت حضارة عتيقة تتضعع قواها وترث حبالها ، وقامت في الأرض

حضارة جديدة غُذيت باللِّم المسفوح ، ومُزجت ثقافتها بالمكر والغدر والدهاء والخُبث ، تُوْزَّها نارُ أحقادٍ مُكْتَمَةٍ ، ثم صارتْ لهيباً يُؤْجُّ أجاً = حضارةٌ سوف تطبَّق وجه الأرض ، وهى بذلك كُلُّه حضارةٌ إنسانيةٌ عالميةٌ ، أليس كذلك ؟ ويزيدُها إنسانيةً وعالميةً أنها جاءت مبشرةٌ بدينٍ جديدٍ ، عقيدتهُ مبنيةٌ على البغضاء والحقد والجشع والغدر وسفكِ الدماء .

• ومعَ هذه الأساطيل الفاجرة ، خرجتْ من مَكانِها أعدادٌ وافرةٌ من رجالٍ يجيدون اللسان العربى والسنة دار الإسلام الآخر ، ومنهم رُهبانٌ وغير رُهبانٍ ، وركبوا البر والبحر ، وزحفوا زَرَافَاتٍ ووُحْداناً فى قلبِ دار الإسلام : على ديار الخلافة فى ترقية ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقيا وممالكها المسلمة = خرجوا وفى القلوب حمية الحقد المكتم ، وفى النفوس العزيمة المصممة ، وفى العيون اليقظة ، وفى العقول التنبؤ والذكاء ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفى الألسنة الحلاوة والخلاصة والمُماذقة ، ولبسوا لجمهرة المسلمين كُلَّ زِيٍّ : زِيَّ التاجر ، وزِيَّ السائح ، وزِيَّ الصديق الناصح ، وزِيَّ العابد المسلم المتبتل = وتوَعَّلوا يستخرجون كُلَّ مخبوءٍ كان عندهم من أحوال دار الإسلام ، أحوال عامته وخاصته ، وعلمائه وجُهلته . وحُلمائه وسُفَهائه ، وملوكه وسُوقته ، وجيوشه ورعيته ، وعبادته وهوى ، وقوته وضعفه ، وذكائه وعُقلته ، حتَّى تدسَّسوا إلى أخبار النساء فى خُدُورهنَّ ، فلم يتركوا شيئاً إلاَّ خَبَرُوهُ وعَجَمُوهُ ، وفَتَّشُوهُ وسَبَرُوهُ ، وذاقُوهُ واستشَفُوهُ . ومن هؤلاء ، ومن خَبَرْتهم وتجربتهم ، خرجتْ أهُمُّ طبقةٍ تَحَضَّتْ عنها اليقظة الأوربية « طبقة المستشرقين » الكبار ، وعلى علمهم وخبرتهم وتجاربهم ، رَسَتْ دعائمُ « الاستعمار » ، ورسَخَتْ قواعد « التبشير » كما وصفتُ لك أمرهم فى آخر الفقرة السادسة عشرة = وَالتَقَّتْ حَلَقَتَا البَطَانِ ، هذه المرة ، على دار الإسلام ، واسترختْ حَلَقَتَاهُ عن المسيحية الشمالية ، (انظر أول الفقرة : ١٦ ، ص : ٣٨) .

• وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد « الاستشراق » آلاف مؤلفة من مخطوطاتٍ من كُتُب دار الإسلام نفيسة منتقاة ، مُشتراة أو مسروقة ، موزعة مفرقة في جميع أرجاء أوربة وأديرتها ومكتباتها وجامعاتها ، وأكب عليها « المستشرقون » المجاهدون الصابرون ، الذين هجروا دُنْيَا النَّاسِ المائجة بكل زُخْرِفٍ ومتاع ، وعكفوا بين جُدران صامتة مُعلّقة ، وأكداس من الأوراق المكتوبة بلسان غير لسان أقوامهم ، يَقْضُونَ سَحَابَةَ النَّهَارِ وزُلْفاً من الليل يَفْرِزونها ورقة ورقة ، وسطراً سطراً ، وكلمة كلمة ، بصيرٍ لا ينفد وعزيمة لا تكبل ، ويكابدون كُلَّ مشقة في الفهم والوقوف على أسرار المعاني المخبوءة تحت رموز الألفاظ العربية أو غير العربية في كل عِلْمٍ ومعرفة وفن ، ديناً كان أو أدباً أو لغة أو شعراً أو تاريخاً أو علم بلدان ، (جغرافية) ، أو طباً أو رياضة أو فلكاء أو صناعات وآلات ، كُلُّ ذلك يدرسونه بدقة ونظام وترتيب ، ويتعاونون كامل بينهم مهما تباعدت بلادهم وأوطانهم . ثم لا تنقطع لهم رحلة في قلب دار الإسلام وفي أطرافها ، يَجُسُّون ويُجَرِّبون ويختبرون ، ويتعلمون ويسألون ، ويجمعون كُلَّ خَبْرَةٍ وكُلَّ تجربة وكُلَّ معرفة ، وكل صغير وكبير يُعينهم على الدرس والاستفادة ، وعلى فهم أسرار هذا العالم الغريب الذي كان بالأمس ممتنعاً على الاختراق قروناً طويلاً .

ولما كانت هذه المخطوطات التي يعكف نفر منهم على دراستها متفرقة في البلاد ، وحبيسة تحت يد عدد قليل جداً ، قد يكون رجلاً واحداً في قرية أو دير ، عمدوا إلى نشر بعضها مطبوعة ، لتكون تحت يد كُلِّ دارس مستشرق في أي بلد كان من بلاد أوربة ، ^(١) ولكي تكون الفائدة أكثر تماماً ، والجهد أكثر جدوى ، أنشأوا أيضاً مجلات

(١) لا تصدق من يقول لك إن « الاستشراق » قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نشر هذه الكتب التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهم باطل . كانوا لا يطبعون قط من أي كتاب نشره أكثر من خمسمئة =

بكلّ لسان من ألسنتهم ، ينشر فيها كلّ مستشرق نتائج بحثه ودراسته ، ويعرض كلّ تجاربه وخبرته وملاحظاته ، لتكون عوناً لكلّ دارس مستشرق وغير مستشرق ، وهي مجلّات الدراسات الإسلامية أو الشرقية . بل سمّت همّتهم فبدأوا صنّع « جواهر الإسلام » التي يسمونها « دوائر المعارف الإسلامية » ، ^(١) وكذلك صار « الاستشراق » في أوربة كلّها هيئة واحدة ، لها هدف واحد ، ونظام واحد ، وهيئة واحدة ، وفهم واحد ، وأسلوب واحد ، ونظر مشترك واحد ، إلى حضارة دار الإسلام قديمها وحديثها .

• كان هذا « الاستشراق » في نأثاته الأولى ، بعد سبعة قرون من الصدام الذي انتهى بإخفاق الحروب الصليبية قائماً على أفراد قلائل : إمّا طالب معرفة وعلم يتعلّم من العرب المسلمين ليقتشع الجهل عن نفسه وقومه ، كما فعل « بيكن » وطبقته = وإمّا راهب ذى حمية ودفاع عن دينه ، حين أحسّ بالخلل الواقع في الحياة المسيحية ، فكلّ همّه أن يصلح خلل المسيحية ويمكّنها من حجة مقنعة تحول بين الناس وبين الانبهار بالإسلام وثقافته وحضارته والتساقط فيه ، متكيئاً على ما عند دار الإسلام من العلم ، كما فعل « ثوما الإكرويني » ، (انظر ما سلف فقرة : ١٤ ص : ٣٩ ، ٤٠)

أمّا في أوّل نأثاته الثانية ، عند فجر اليقظة الأوربية ، فكانت بعثاته في دار الإسلام تعود من جّولتها إلى أوربة لأداء عملين عظيمين هما : إمداد علماء اليقظة بمزيد

= نسخة ، = ولم تزل هذه سنّتهم إلى يومنا هذا = توزّع على مراكز الاستشراق في أوربة وأمريكة ، وما فضل بعد ذلك وهو قليل جدّاً ، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر ، لم يسعوا قطّ إلى تسويقها بين ملايين العرب والمسلمين ، كما يسوّقون بضائعهم وتجاراتهم وسائر ما ينتجون ، بين هذه الملايين طلباً لربح المال . هدفهم كان ما قلت لك لا غير .

(١) « دائرة المعارف » أو « الموسوعة » كما هو شائع ، اخترت أن أسميها « جَمْهَرَة » ، كما سمى أسلافنا كتبهم « جمهرة اللغة » و « جمهرة الأنساب » و « جمهرة الأمثال » ، وبينت ذلك في كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ٢٧٣ ، ٢٧٤ . وجمع « جَمْهَرَة » « جماهر » .

مما وقفوا عليه من كنوز العلم في دار الإسلام ، يفسرون لهم رموزها ، ويترجمون لهم ما استطاعوا فهمه منها ، ثم إطلاع رهبان الكنيسة وملوكها على ما علموا ولاحظوا من أحوال المسلمين ، (انظر ما سلف الفقرة : ١٦ ، ص : ٤٨) .

= أما عند انبثاق اليقظة واستحكام أمرها ، حين صارت ضوئاً شاملاً يسرى في جماهير غفيرة متنوعة الأهداف والأهواء والأغراض ، فقد هبت أفرانج منها زاحفة زحفاً متتابعاً على دار الإسلام وغير دار الإسلام ، مُصنّعة في طريقها إلى التفوق والغلبة والانتشار ، بلا قرين ، (أى نظير) ، يكافئها في اليقظة والتنبيه والتصميم ، يصدها ويكفكف من غلوائها ، ويعوق من زحفها = وعندئذ أيضاً كان « الاستشراق » قد كسب هو أيضاً يقظة فائقة ، وبصيرة نافذة ، وتنبيهاً لامعاً ، وتكونت الطبقة الأولى من « المستشرقين » الجادّين النابهين ، التي سوف تراثها طبقة أساطين « الاستشراق » ودهاقينه الكبار ، (« الدهقان » وجمعه « دهاقين » : الرجل الحديد الماضى القوي على التصرف) ، فهؤلاء جميعاً الذين وقع عليهم العبء الأكبر في تيسير الأمر للزحف الأوربية المتتابعة المستمرة التي اقتحمت دار الإسلام فاستعمرتها ، وغيّرت وجه الحياة فيها تغييراً بعيد الغور ، لم يزل سارياً إلى يومنا هذا كما سترى .

...

١٨ - ينبغي أن يكون بيناً لك أنّ أوربة عند استواء يقظتها ، أدركت إدراكاً واضحاً أن الذى بلغته قد ضمن لها التفوق الحاسم ، وأنها مُقبلة على زحف شامل يخترق قلب دار الإسلام ، لا بقعقة السلاح ، بل بوسائل آخر أمضى من وقع السلاح ، أدرك ذلك ساستها ورهبانها وعلمائها وعمامة جماهيرها المثقفة . وهذا الزحف الصامت المصمم الحفيّ الوطء ، سوف يهضم ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس ، ما بين تاجر وصانع

ومُعَامِرٍ ومدرّسٍ وسائِحٍ ومبشّرٍ وجنديٍّ وسياسيٍّ وراهبٍ وطالب معرفةٍ وأفّاقيٍّ وصفّاقيٍّ ومتكسّبيٍّ . والنيّة أن تتكوّن من هؤلاء الأشتاتِ جالياتٍ كبيرةٍ تُقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطولُ عشرتهم أو تقصُر ، ولكل امرئٍ منهم اتّجاهٌ أو هوى أو أسلوبٌ أو فهمٌ . فأمرٌ مخوفٌ أن يخالطوا عالماً له دينٌ وحضارةٌ باقيةٌ الآثار ، كان له الغلبةُ والتفوّقُ والسيادةُ من قبلُ قروناً طويلاً ، كما جرّبوا وعلموا = أمرٌ مخوفٌ أن يخالطوه دون أن يكون لهذا العالم عند أكثرهم صورةٌ مستقرّةٌ في أنفسهم ، تحميمهم من التفريق والضياح فيه ، وتخصّصهم أيضاً من الانبهار بالإسلام وحضارته كما انبهر أسلافُهم غيروا ، فصارَ حتماً أن يكون في مُتناول هؤلاء صورةٌ للإسلام وحضارته ، مكتوبةٌ بدقّة ومهارة ، ومُفيدةٌ أيضاً لكلِّ عقلٍ مُتطلّع ، يُصوّرُها لهم خبيرٌ ثقةٌ مأمونٌ عندهم .

و « المستشرقون » المتبتّلون ، بلا شكٍّ عندهم ، هم أهلُ الخبرةِ بكلِّ ما في دار الإسلام قديماً ، وما هو كائنٌ فيها حديثاً = من دَقِيقِ العلوم عند خاصّة المسلمين ، إلى خفيِّ أحوال المسلمين من عاداتهم ومعايشهم وطرائق أفكارهم وخصائص حياتهم ، إلى علمٍ وثيقٍ بشأن دُوَلهم وأقاليمهم وبلدانهم التي تُعطى أكبر رُقعةٍ من الأرض . وهم قد جمعوا كلّ ذلك وعكفوا عليه وتأمّلوه ودرسوه ونظّموه وربّوه بعنايةٍ فائقةٍ ، وبهمةٍ وجَلَدٍ وتنبّهٍ ونَفَازٍ بصيرٍ . فكلُّ دارسٍ منهم مأمونٌ عند كلّ أوريٍّ ، من أوّل طبقة الرُهبان والسّاسة إلى آخر رجلٍ من جماهير الناس = مأمونٌ على ما يقوله ، مصدّقٌ فيما يقوله ، في أمورٍ لا سبيلَ لأحدٍ منهم إلى معرفتها ، لأنها تتعلّقُ بأقوامٍ لسانهم غير لسانهم ، ولا يقومُ بها إلاّ دارسٌ صابرٌ ذو معرفةٍ بهذا اللسان الغريب ، مُتصِفٌ بصفتين لا بُدَّ منهما حتّى يكون مأموناً مُصدّقاً :

الصفة الأولى : أن في قلبه كلّ الحميّة التي أثارها الصراعُ بين المسيحية المحصورة في الشمال ، وبين دار الإسلام الممتنعة على الاختراق على مدى عشرة قرونٍ على الأقلّ =

وأنّ في صميم قلبه كلّ ما تُكِنُّه المسيحيّة الشماليّة من البغضاء النافذة في غُورِ العظام ،
والتي أورتها الحروب المتطاولة ، كما وصفتها لك آنفاً في الفقرة الخامسة عشرة والسادسة
عشرة ، (ص : ٤٢ - ٤٦) .

الصفة الثانية : أنّ في صميم قلبه كلّ ما تحمله قلوبُ خاصّة الأوربيين وعامّتهم ،
وملوكتهم وشوقتهم ، من الأحلام البهيجة والأشواق الملتبّهة إلى حياة كلّ ما في دار
الإسلام من كنوز العلم والثروة والرفاهية والحضارة . أحلامٌ وأشواقٌ أورتهم إياها
الاحتكاكُ المستمرُّ قروناً بهذه الحضارة الزاهية الغنيّة التي كانت يومئذٍ في دار الإسلام .
وبهاتين الصّفتين يكون مؤهلاً لحمل هموم المسيحية الشماليّة التي ظلّت قروناً
محصورة في الشمال ، ودليلٌ إخلاصه المُطلق لهذه الهموم ، هو تبثله الذي يقطع ما بينه
وبين زهرة الحياة الدّنيا وزينتها من حوله ، حبساً بين جذرانِ تَضُمُّ رُكّاماً من أوراقٍ قديمةٍ
مكتوبةٍ بلسانٍ غير لسانِ قومه ، قد رضى لنفسه أن يبقى اسمه في دنيا الناس مغموراً
غير مشهورٍ (انظر ما سلف ص : ٤٨) .

وبديهيٌّ أن يكون « المستشرقون » ، كما عرفت صفتهم ، هم أسبقُ النَّاسِ إلى معرفة
هذه الحاجة الملحة التي تضمنُ للزّحف الأكبر على دار الإسلام أن يسيرَ على هُدى
لا يخلُ ولا يضلُّ ، ويعصمُ أكبر قدرٍ ممكنٍ من أشتات الزاحفين ، حين يدخلُ دار
الإسلام ليَطُولُ مُقامُهم بها ، ويجرى بينهم وبين مَنْ يخالطونهم ما يجرى بين الناس من
التفاوض وتجاذب الأحاديث = يعصمه أن ينهر بما يرى أو يسمع ، أو أن تضعفَ حميَّته ،
أو تلينَ قنّاته ، أو يتردّد ويتلجّج . لا بُدَّ إذن من أساسٍ يرتكزُ عليه تفكيره ، ومن صورةٍ
سابقة شاملة ثابتة يثقُ بها ويطمئنُّ إليها ، ويثقُ أيضاً بصدقها وأمانتها ، حتّى يتمكنَ من
أن يرفضَ أكثر ما يرى وما يسمع ، إذا هو خالف ما يعتقدُ أنّه الصورة الوثيقة

المأمونة التي سوَّغَهُ إياها دارسٌ عارفٌ بأحوال هؤلاء الناس . واستقلَّ « المستشرقون » بحمل هذا العبء الجديد الثالث ، (انظر ما سلف ص : ٥٤) ، فكتبوا لجماهيرهم آلافاً من المقالات ، ومئات من الكتب ، تناولتْ كُلَّ شيءٍ يخصُّ أُمَمَ دار الإسلام في ماضيها وحاضرها . كتبوا في القرآن ، وفي حديث رسول الله ﷺ وسيرته ، وفي تفسير القرآن ، وفي الفقه ، وفي تفاصيل شرائع الإسلام ، وفي تاريخ العرب والمسلمين ، وفي الأدب ، واللغة ، والشعر ، وفي الفنون والآثار ، وفي علم البلدان ، (الجغرافية) ، وفي تراجم رجال الإسلام ، وفي الفرق الإسلامية ، وفي الفلسفة عند المسلمين ، وفي علم الكلام = في كُلِّ ما ذكرتُ وما لم أذكرْ ، كتبوا وألفوا وصنّفوا ، لكن لهدفٍ واحدٍ لا غير : هو تصويرُ الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مُقنعةٍ للقارئ الأوربي ، وبأسلوبٍ يدلُّه على أنَّ كاتبها قد خبرَ ودرس وعرفَ وبذلَ كُلَّ جُهدٍ في الاستقصاء ، وعلى منهجٍ علميٍّ مألوفٍ لكلِّ مثقّفٍ أوربيٍّ ، وأنه وصلَ إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خبرةٍ طويلةٍ وعَرَقٍ وجُهدٍ وإخلاصٍ ، حتى لا يشكَّ قارئٌ في صدق ما يقرؤه ، وأنَّه هو اللبّابُ المُصنّفُ من كُلِّ كَدَرٍ ، والمُبْرَأُ من كُلِّ رِيفٍ ، وأنه الحقُّ المبينُ والصِّرَاطُ المستقيم .

• كان جوهرُ هذه الصُّورة ، المبنوثُ تحت المباحثِ كُلِّها ، هو أن هؤلاء العرب المسلمين هم في الأصل قومٌ بُدّاءُ جُهَّالٌ لا علمَ لهم كان ، جِياعٌ في صحراءٍ مجديّةٍ ، جاءهم رجلٌ من أنفُسِهِم فادّعى أنه نبيٌّ مرسلٌ ، ولَفَّقَ لهم ديناً من اليهوديّة والنصرانيّة ، فصدّقوه بجهلهم وتابَعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياعُ أن عاثوا بدينهم هذا في الأرضِ يفتحونها بسيوفهم ، حتى كان ما كان ، ودانَ لهم من غوغاءِ الأممِ مَنْ دان ، وقامت لهم في الأرض بعد قليلٍ ثقافةٌ وحضارةٌ جُلُّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان وغيرهم ، حتّى لَعَنُهم كُلُّها مسلوبةٌ وعالةٌ على العبريّة والسريانية والآرامية والفارسيّة

والحَبَشِيَّة . ثم كَانَ من تصارييف الأقدار أن يكون علماء هذه الأُمَّة العربية من غير أبناء العرب ، (المَوَالِي) ، وأن هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلامية كُلِّها معنى . هذا هو جوهرُ الصورة التي بثَّها المستشرقون في كُلِّ كُتُبهم عن دين الإسلام ، وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم ، وأن هذه الحضارة إنما هي إحدى حضارات « القرون الوسطى » المظلمة التي كان العالم يؤمِّدُ غارقاً فيها = يعنون عالمهم هم = يَجْرِي عليها حُكْمُ قرونهم الوسطى ! بثُّوا تلك الصورة في كُلِّ كُتُبهم بمهارة وحَذَقٍ وخُبْثٍ مُعْرِقٍ ، وبأسلوبٍ يُقْنِعُ القارئ الأوربي المثقف الآن كُلَّ الإقناع ، وتنحطُّ في نَظَره حضارة الإسلام وثقافته انحطاطاً « القرون الوسطى » ، ويزداد بذلك زَهُواً بأنَّ أسلافه من اليونان والآريين كانوا هم رَكَائز هذه الحضارة المزيَّفة الملفَّقة ديناً ولُغَةً وعِلْماً وثقافةً وأدباً وشعراً ، ويزداد بذلك الأوربيُّ ، أيَّا كَانَ ، غَطْرَسَةً وتعالياً وَجَبَرِيَّةً ، ولا يرى في الدُّنيا شيئاً لَهُ قيمةً ، إلَّا وهو مستمدٌّ من أسلافه اليونان والآريين والهِمَجِ الهامج !

ومن خلال الصراحة العارية التي طرحت كُلَّ حجابٍ ، أو الصراحة المتحجَّبة بالبراءة وخلوص النية وحبِّ العلم ، أو بالصراحة الحيَّة التي أمالها الحَفَرُ ، (شدة الحياء) ، إلى التبرُّج بحبِّ الإنصاف ، استطاع « الاستشراق » أن يجعل هذه الصورة حيَّةً متحرِّكةً في جميع كتبه ومقالاته ودراساته ومباحثه على اختلافها ، حتى الدراسات التي تستعصي على قبول هذه الصورة واضحة لم تخلُ من غَمَزٍ خَبِيٍّ وَلَمَزٍ خَفِيِّ يستدعي حُضُور هذه الصورة بطريقةً مَّا . وكذلك نجح « الاستشراق » في تحقيق هدفه كُلِّ النجاح ، واستطاع أن يَدْرِج الإسلام وشرائعه وثقافته وحضارته في مُسْتَنَقَع « القرون الوسطى » الذي طَمَرته « النهضة الحديثة » ووَطَنُهُ « عصر الإحياء والتنوير » بأقدامه ووَطْأَةَ المُتَنَاقِل . وبذلك عَصَمَ العقل الأوربي المثقف من أن يَزِلَّ زَلَّةً ، فيرى في دين الإسلام أو في ثقافته وحضارته ، ما يوجبُ انبهاره كما انبهر أسلافُ له من قَبْلُ تساقطوا في

الإسلام وثقافته وحضارته طواعيةً ، ثم صاروا ، مع الأسف ، من بُناة مجده على مدى اثني عشر قرناً على الأقل . واعلم أنى على عَمَدِ هُنَا أتناسى عمل « الاستشراق » فى السَّطُو على الكنوز الخبوءة كَانَتْ فى علم دار الإسلام ، ثم ما بذلوه فى نقله سِراً إلى علمائهم فى زمنِ النَّانَأة وما بعدها ، لِيَنُتُوا عليه حضارتهم العظيمة القائمة اليوم بيننا ، وكيف أغلقوا الأبواب على ذِكْر ما سَطَوْا عليه بالضَّبة والمفتاح ، حتى لا يَعْلَمَ حَبِيبَتُهُ أَحَدٌ ، حتى ولو كان أوربياً قُحّاً = وأتناسى على عَمَدِ مَنى أيضاً حديث السفاهة والبذاءة التى جرت على ألسنة ذهابينهم من المطاعن فى القرآن العظيم ، وفى رسول الله ﷺ وصحابته ، إمداداً لهيئات « التبشير » ، للقيام بعملها النبيل فى دار الإسلام وفى توابعه التى كانت محجوبة عنهم ، ثم انفسح لها الطريق مع الزحف الأكبر .

• وَبَيِّنْ لَكَ الْآنَ بَلَا خَفَاءٍ أَنَّ كُتُبَ « الاستشراق » ومقالاته ودراساته كُلُّهَا ، مكتوبة أصلاً للمثقف الأوربي وحده لا لغيره = وَأَنَّهَا كُتِبَتْ لَهُ لَهْدِفِ مُعَيَّنٍ ، فى زَمَانٍ مُعَيَّنٍ ، وبأسلوب مُعَيَّنٍ ، لا يَرَادُ به الوصول إلى الحقيقة المجردة ، بل الوصول المَوْقُف إلى حماية عَقْلِ هذا الأوربي المثقف من أَنْ يَتَحَرَّكَ فى جهةٍ مُخَالَفةٍ للجهة التى يستقبلها زحفُ المسيحية الشمالية على دار الإسلام فى الجنوب = وَأَنْ تَكُونَ لَهُ نَظَرَةٌ ثَابِتَةٌ هُوَ مُقْتَنِعٌ كُلُّهُ لِقِتْنَاعِ بَصَحَّتْهَا ، ينظر بها إلى صُورَةٍ واضحةٍ المعالم لهذا العالم العربى الإسلامى وثقافته وحضارته وأهله = وَأَنْ يَكُونَ قَادِراً أيضاً على خَوْضٍ ما يخوض فيه من الحديث مع من سوف يلاقهم أو يعاشرهم من المسلمين ، وفى عقله وفى قلبه وفى لسانه وفى يقينه وعلى مَدِّ يده ، معلوماتٌ وافرةٌ يَثِقُ بها ويطمئن إليها وَيُجَادِلُ عليها ، دون أن تضعفَ له حَمِيَّةٌ ، أو تَلِينَ لَهُ قَنَآةٌ ، أو يتردَّد فى المنافحة عنها أو يتلَجَّلُج ، أيّاً كان الموضوع الذى تدفعه المُفَاوَضَةُ إلى الخوض فيه .

و « الاستشراق » لا يُدْمُ لأنه فَعَلَ كُلَّ ذَلِكَ ، لأنه بلا شك قد أدى ما عليه لبني جلدته أحسن أداءٍ وأتمّه ، ونَصَرَ أهل دينه وأخلصَ لهم كُلَّ الإخلاصِ ، وكافَحَ في سبيلِ هَدَفِهِ بِكُلِّ سلاحٍ أجَادَ صَفْلَهُ وتقويمُهُ = أمّا الذى هو حَقِيقُ بالذِّمِّ والمعَايَةِ ، فالعَاقِلُ الذى يَظُنُّ نفسه عَاقِلاً ، والبَصِيرُ الذى يَظُنُّ نفسه بصيراً ، ثم لا يكاد عقله يدرك شيئاً هو أين بياناً من البدائث المسلّمة ، ولا يكادُ بَصَرُهُ يَرى ما هو أظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعة .

فما كتبه « الاستشراق » ، من حيثُ هي كُتِبَ أو دراساتٌ مكتوبةٌ للمثقف الأوربى خاصةً ، ولهدفٍ بعينه ، حقيقةً باحترام كُلِّ أوربى مثقفٍ = أو من كان بمنزلة الأوربى المثقف في الغربة عن العربيّة والإسلام = لأنها يَسَرَّتْ له ما لم يكن ليتيسر البتّة : أن يعرف أشياء كثيرةً متنوّعةً هو عن عالمها غريبٌ كُلُّ الغربة ، وأن يرى عالَمَها في صورة واضحةٍ مصوّرةٍ بمهارةٍ ، ومصنوعةٍ بأسلوبٍ مُقْنِعٍ مقبولٍ لا يرفضه عقله ، بل لعله يرتضيه كُلُّ الرضى . ولأنّ هذا العالم الذى يراه مصوراً عالماً غريباً عنه ، ولا سبيلَ له إلى معرفة الحقيقة فيه ، لولا الجُهدُ العظيم الذى بذله دهاقينُ المستشرقين الكبارُ في تصويره ، فهو غيرُ حريصٍ بعد ذلك على التحقق من صحّة التفاصيل التى تكونت منها الصورة ، ولا هو قادرٌ على التشكُّك في سلامتها من الآفات ، ولا يخطر بباله أن يسأل نفسه : أهى صادقة أم كاذبة ؟ أهى مطابقةٌ للحقيقة أم غير مطابقةٍ للحقيقة ؟

أمّا من حيثُ هي كُتِبَ أو دراساتٌ علميّةٌ جديرةٌ باحترام مثقفٍ غير أوربى ، أى من أبناء العرب والمسلمين خاصةً ، أى أبناء لغة العرب وأبناء دين الإسلام ، فهذا عندئذٍ موضعُ نَظَرٍ = لأن الأمر ، ولا خيارَ لى أو لك فيه ، يختلفُ اختلافاً يَبِيناً حينئذٍ ، ويتطلّبُ النظرُ في أمرين : أمرِ الكاتبِ وأمرِ المكتوبِ معاً ، وهذا يردُّك لا محالة إلى ما كتبته لك آنفاً في شأن « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، (ما سلف ص : ٢١ - ٣٣) ، سواءً كان الكاتب عربياً

أو غير عَرَبِيٍّ ، (أى مستشرقاً أوروبياً) . ولذلك يحسنُ بك هنا أن تُعيد قراءته بتأنٍ وحذرٍ ، لأنه غير لائق أن أعيد ذكره في هذا الموضع مفصلاً ، وإنما هي الإشارة إليه لا غير . وأعلمُ أنني سأبينُ لك الأمر هنا في حالة واحدة ، هي حالة استحقاق الدراسة أن توصف بأنها « علمية » ، وهل هو أمرٌ ممكنٌ أن يكون ما كتبه « المستشرقون » دراسةً « علميةً » بمعناها الصحيح ، الموجب للاحترام والتقدير . وكُنْ أبداً على ذكرٍ بأني ما قلته عن « المنهج » و « ما قبل المنهج » هو : « أصلُ أصيلٌ في كُلِّ أمةٍ ، وفي كُلِّ لسانٍ ، وفي كُلِّ ثقافة حازها البشرُ على اختلافِ ألسنتهم وألوانهم ومللهم ونحْلهم » (ص : ٢٣) ، فهو أمرٌ لا يختلف فيه اثنان من البشر مهما تباينا لغةً وثقافةً وديناً ، ولا تقوم في أمةٍ ثقافة أو حضارةٌ إلا بالالتزام بهذا الأصل الأصيل في ثقافتها أو حضارتها . (اقرأ بدقة ما كتبه آنفاً من ص : ٢١ - ٢٣) .

...

١٩ - « ما قبل المنهج » ، كما علمت ، مكوّن من شطرين : « شطر جمع المادة » و « شطر التطبيق » ، فلننظر الآن أين يقع « المستشرق » منهما ليكون الأمر واضحاً لك كُلِّ الوضوح ، وأنا مُحدّثك عنهما بإيجازٍ شديدٍ جداً ، وفيما مضى قبلُ بلاغٌ يضيء لك الطريق .

● فالشطرنِ الأوّل ، « شطر جمع المادة » كما قلتُ : « يتطلّب جمْعها من مظائرها على وجه الاستيعاب ، ثم تصنيف هذا المجموع » ، (ص : ٢٢) ، وهذا ممكنٌ للمستشرق إمكاناً ما ، مع ما فيه من العوائق الجليّة ، بلّة العوائق الخفيفة التي تحتاجُ إلى بسْط وإيضاح = « ثم تمحيصُ مفرداته تمحيصاً دقيقاً ، وذلك بتحليل أجزاء تراكيبه بدقة متناهية ، وبمهارّة وحذقٍ ، حتّى يتيسّر للدارس أن يرى ما هو زَيْفٌ واضحاً جليّاً ،

وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلةٍ ، وبلا هوى ، وبلا تسرعٍ » ، (ص : ٢٢) . وهذا مبنيٌّ على ما سبقه ، فهو ممكنٌ للمستشرق بعضه بصورةً ما ولهدفٍ ما ، ومستحيلٌ بعضه أن يكون منه عنده مثقالُ ذرةٍ بصورةٍ أخرى ، لأنه يدخل في حديثٍ آخرٍ سيأتي بعد قليل ، وهو حديث « اللغة » و « الثقافة » و « الأهواء » .

• وأما الشرطُ الثاني ، « شطر التطبيق » ، فكما قلتُ لك : « فيقتضى ترتيب المادة ، بعد نفى زنفها وتمحيص جيدها ، باستيعاب أيضاً لكل احتمالٍ للخطأ أو الهوى أو التسرع » ، (ص : ٢٢) . وهذا ، بلا شكٍ ، مترتبٌ على الشرط الأول كُله ، فما كان ممكناً فيه فهو ممكنٌ هنا ، وما كان غير ممكنٍ فهو هنا أيضاً غير ممكنٍ = « ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقةٍ من الحقائق موضعاً هو حقٌ موضعها ، لأن أخفى إساءةٍ في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خليقٌ أن يشوهَ عمودَ الصورة تشوهاً بالغ القبح والشناعة » ، (ص : ٢٢) ، وهذا غير ممكنٍ البتة ، بل هو متمتعٌ ، بل هو مستحيلٌ ، لأن عمل « الاستشراق » كُله مبنيٌّ على رسم صورةٍ محدّدةٍ قائمةٍ في نفسه ، منصوبةٍ لعينه ، يرسمها لهدفٍ معيّنٍ مقصودٍ لذاته ، ومن أجل إحداثِ هذه الصورة المُقنعة للمثقف الأوربي يُعاني مشقة « جمع المادة » ، ويكبدُ كدّاً في ممارسة « التطبيق » . وقد بينتُ لك آنفاً « أهداف الاستشراق » ، (في الفقرتين : ١٦ ، ١٧) ، وكشفتُ لك حقيقة « الصورة » ، (في الفقرة : ١٨ ، ص : ٥٩ ، ٦٠) ، فهذا العملُ وحده ، أو هذا القصدُ المتعمّد وحده ، آفةٌ خبيثةٌ كافيةٌ وحدها في إسقاط عمل « الاستشراق » كُله إلى حضيض الفساد والإفساد في « ما قبل المنهج » ، ومُفضيةٌ بعد ذلك إلى قذِفِ عمله كُله منبوذاً خارجَ حدود كُلِّ ما يمكن أن يُوصف بوجهٍ ما أنه « عملٌ علميٌّ » خالصٌ . ومُحقّرٌ لعقله من لا يذركه ، فدع عنك من يرتضيه ؟ ومُعطّيٌ على بصره من لا يبصره ، فما ظنُّك بمن يُنافح عنه ؟ فإنه كما قلتُ آنفاً : « أينُ بياناً من البداهة المسلمة ، وأظهرُ ظهوراً من الشمس الساطعة » ، (قرة :

• والنازلون في مِيدَانِ « المنهج » ومِيدَانِ « ما قبل المنهج » من الكتّاب والعلماء ، في كُلِّ لغةٍ ، وفي كُلِّ أُمّةٍ ، وفي كُلِّ مِلّةٍ ، وفي كُلِّ ثقافةٍ ، لهم شروطٌ مُحَكِّمَةٌ لَا يُمَكِّنُ إغفالُها البتّةَ ، فهي أركانٌ لَا يقومُ بناءٌ إِلَّا عليها ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَسْمَى « كاتباً » أو « عالماً » أو « باحثاً » إِلَّا مَنْ حازَ أكبرَ قَدَرٍ من هذه الشروطِ ضَرِيَةً لَازِبٍ . ولم تُوجَدِ على الأرضِ أُمَّةٌ واحدةٌ سمحت لأحدٍ أَنْ ينزِلَ ميدانَ « ما قبل المنهج » وميدانَ « المنهج » في أيِّ علمٍ كَانَ أَفْنَى ، إِلَّا وَهُوَ مُطَبِّقٌ لِلنَزولِ فِيهِ بِحَقِّهِ ، فَإِذَا اجْتَرَأَ مَجْتَرِئٌ عَارٍ من الشروطِ وفعلَ ، نُفِيَّ وَطُرِدَ طَرْدًا ، وَأَبْوَأَ مَنْ أَنْ يَعُدَّوه في الكتّابِ كَاتِبًا ، أو في العلماءِ عالِمًا ، أو في الباحثين باحثًا ، وَأُلْقِيَ عمله كُلُّهُ في سَلَّةِ المَهملاتِ ، كما يقولون . وَجَماعُ الشُّروطِ كُلِّها في هذا الشَّانِ مُنَوِّطٌ بثَلَاثَةِ أُمُورٍ : لُغَتِهِ التي نَشَأَ فِيها صَغِيرًا ، وَثقافَتُهُ أُمَّتَهُ التي يَنْتَمِي إليها وَآرْتَضَعَ لِبَنانِها يافعًا ، وَأَهْوَائِهِ التي يَمْلِكُ ضَبْطُها أو لَا يَمْلِكُها بعدَ أَنْ اسْتَوَى رَجُلًا مُبِينًا عن نَفْسِهِ ، (انظر ما سلفَ ص : ٢٧) .

• أَمَّا « اللُّغَةُ » التي نَشَأَ فِيها صَغِيرًا ، فشرطُ نُزُولِ المِيدانِ : أَنْ يَكُونَ مُحِيطًا بِأسرارِها الظَّاهِرَةِ والباطِنَةِ ، وَبَيْنَ تَمَامِ الإحاطَةِ بِها وَقُصورِ هذه الإحاطَةِ ، يَرْتَفِعُ قَدْرُ ما يَكْتُبُهُ ، أو يَنْزِلُ إلى حَضِيضِ الإسقاطِ والإهمالِ ، معِ مَخَافٍ ذَكَرْتِها لَكَ آنفًا ، (ما سلفَ ص : ٢٧) .

• وَأَمَّا « الثَّقَافَةُ » ، وَهِيَ سِرٌّ من الأسرارِ المُلْتَمَّةِ ، وَحَقائِقُها عَمِيقَةٌ بَعِيدَةُ العُورِ مَشْتَعِبَةٌ ، وَقَوَامُها « الإِيْمَانُ » بِها عن طريقِ القلبِ والعقلِ = ثم « العَمَلُ » بما تَقْتَضِيهِ حَتَّى تَذَوِّبَ في بُنيانِ الإنسانِ وَتَجْرى مِنْهُ مَجْرى الدَّمِ لَا يَكادُ يَحْسُ بِهِ = ثم « الانْتِمَاءُ » إليها انْتِمَاءً يَحْفَظُهُ وَيَحْفَظُها مِنَ التَّفَكُّكِ والانهيارِ ، وَبَيْنَ تَمَامِ الإِدْرَاكِ لِأسرارِ « الثَّقَافَةِ » وَقُصورِ هذا الإِدْرَاكِ ، يَرْتَفِعُ أَيْضًا قَدْرُ ما يَكْتُبُهُ ، أو يَنْزِلُ إلى حَضِيضِ الإهمالِ ، (ما سلفَ ص : ٢٨) .

• وأما « الأهواء » فهي الداء المُبِيرُ ، والشرُّ المستطِيرُ ، والفسادُ الأكبر ، إن هو أَلَمٌ بأيِّ عملٍ إِمَامَةٍ خَفِيَّةٍ الدَّيْبِ بَلَّةِ الوَطءِ المتثاقِلِ ، أحواله إلى عملٍ مُسْتَقْدَرٍ منبوذٍ كَرِيهِهِ ، حتى ولو جاءكَ هذا العمل في أحسن ثيابه وحُلِيِّهِ وعطوره وأتممها زينةً ، من دَقَّةِ واستيعابٍ وتمحيصٍ ومهارةٍ وحِذْقٍ وذكاءٍ ، ثم يزدادُ بشاعةً إذا كان الكاتب مُلَمًّا تمام الإِلمامِ بأسرار « اللغة » وأسرار « الثقافة » ، لأنه حينئذٍ منافقٌ خبيثُ النَّفاقِ ، وخائنٌ لغيرِ الخيانة ، (ما سلف ص : ٢٨ ، ٢٩) .

• وهذه شروط لا يختلف في شأنها أحدٌ قطُّ في كلِّ ثقافةٍ وفي كلِّ أُمَّةٍ . فإذا كان لا يُعَدُّ كاتباً أو باحثاً أو عالماً من أبناء اللغة وأبناء الثقافة أنفسهم ، إلا من اجتمعت له هذه الشروط ، فإذا عَرِيَ منها لم يكن أهلاً للنزول في ميدان « المنهج » ، فإذا فعل فهو متكلِّمٌ لا أكثرُ ، ثم لا يُلْتَفَتُ إلى قوله ولا يُعْتَدُّ به عند أهل البحث والعلم والكتابة = إذا كان هذا هكذا ، فينبغي قبل كلِّ شيءٍ ، أن نعرف من هو « المستشرق » الذي ينزل هذا الميدان ؟ وهل يمكنُ أن يكون داخلاً تحت هذه الشروط المحكَّمة المتَّفَقَ عليها في كلِّ لغة وثقافة ؟

• و « المستشرق » فتى أعجميٌّ ، ناشيءٌ في لسان أُمَّته وتعليم بلاده ، ومغروسٌ في آدابها وثقافتها ، (ألماني ، أو إنجليزي ، أو فرنسي) ، حتى آستوى رجلاً في العشرين من عُمره أو الخامسة والعشرين ، فهو قادرٌ أو مُفْتَرَضٌ أنه قادرٌ تمام القدرة على التفكير والنظر ، ومؤهلٌ أو مُفْتَرَضٌ أيضاً أنه مؤهلٌ أن ينزل في ثقافته ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » بقدمٍ ثابتةٍ . نعم ، هذا ممكنٌ أن يكون كذلك = ولكن هذا الفتى يتحوَّل فجأةً عن سلوك هذه الطريق لبدأ في تعلُّم لغةٍ أخرى ، (هي العربية هنا) ، مفارقةً كلَّ المفارقة للسان الذي نشأ فيه صغيراً ، ولثقافته التي ارتضع لِبَناها يافعاً ، « يدخلُ قِسْمُ » اللغات الشرقية « في جامعة من جامعات الأعاجم ، فيبتدىء تعلُّم ألف باء تاء ثاء ، أو أبجد

هَوَز ، في العربية . ويتلقَّى العربية نَحْوَهَا وصَرَفَهَا وبلاغَتَهَا وشِعْرَهَا وسائر آدابها وتواريخها ، عن أعجمي مثله ، ولسانٍ غير عربيٍّ ، ثم يستمعُ إلى مُحَاضِرٍ في آداب العربِ أو أشعارها أو تاريخها أو دينها أو سياستها بلسانٍ غير عربيٍّ ، ويقضى في ذلك بضع سنواتٍ قلائل ، ثم يتخرَّج لنا « مستشرقاً » يُفتى في اللسان العربيِّ ، والتاريخ العربيِّ ، والدين العربي !! ^(١) عَجَبٌ ، وفوق العَجَب !

كَيْفَ يجوزُ في عقلٍ عاقلٍ أن تكون بضعُ سنواتٍ قلائلٍ كافيةً لطالبٍ غريبٍ عن « اللغة » ، وهذه حاله ، أن يُصبحَ محيطاً بأسرار اللغة وأساليبها الظاهرة والباطنة ، وبمعجائب تصاريফها التي تجمعت وتداخلت على مرِّ القرون البعيدة في آدابها ، (انظر ما سلف ص : ٢٧) = وأن يُصبحَ بين عشيةٍ وضحاها مؤهلاً للنزول في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ؟ كيف ؟ مع أنَّ هذا الشرط صعبٌ عسيرٌ على الكثرة الكثيرة من أبناء هذه اللغة أنفسهم ، ولا يبلغ هذا المبلغ إلا القليل منهم ؟ كيف يجوز هذا في عقلٍ عاقلٍ ؟ هذا ، مع أنه أيضاً تعلّمها تلقياً من أعجمي مثله ، ولم يخاطب أهلها مخالطةً طويلةً متباديةً تُتيح له التلقّي عنهم تلقياً يبصره ببعض هذه الأسرار . غاية ما يمكن أن يجوزهُ « مستشرق » في عشرين أو ثلاثين سنة ، وهو مقيم بين أهل لسانه الذي يقرعُ سمعه بالليل والنهار : أن يكون عارفاً معرفةً ما بهذه « اللغة » ، وأحسنُ أحواله عندئذ أن يكون في منزلة طالبٍ عربيٍّ في الرابعة عشرة من عمره ، بل هو أقلُّ منه على الأرجح ، أي فهو في طبقة العوامِّ الذين لا يعتدُّ بأقوالهم أحدٌ في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » . أليس

(١) ما بين القوسين منقولٌ من فصل كتبه في كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » (ص : ١١٥ -

١٢٧) ، وفيه تفصيلٌ وبيانٌ وأدلةٌ على فساد عمل « الاستشراق » ، وعلى التهويل في شأن علم « المستشرقين » بالعربية ، فافره هناك .

كذلك ؟ هذا على أن « اللغة » نفسها هي وعاء « الثقافة » ، فهما متداخلتان ، فمحال أن يكون محيطاً بأسرارها ، دون أن يكون محيطاً أيضاً بثقافتها إحاطة تؤهله للتمكن من « اللغة » ، فمن أين يكون « المستشرق » مؤهلاً لنزول هذا الميدان ؟

• وإذا كان أمر « اللغة » شديداً لا يسمح بدخول « المستشرق » تحت هذا الشرط اللازم للقلة التي تنزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فإن شرط « الثقافة » أشد وأعتى ، لأن « الثقافة » ، كما قلت آنفاً : « سرٌّ من الأسرار المثلثة في كُلِّ أمة من الأمم وفي كُلِّ جيلٍ من البشر ، وهي في أصلها الراسخ البعيد الغور ، معارف كثيرة لا تُحصى ، متنوعة أبلغ التنوع لا يكاد يُحاط بها ، مطلوبة في كُلِّ مجتمع إنساني ، للإيمان بها أولاً من طريق العقل والقلب = ثم للعمل بها حتى تذوب في بُنيان الإنسان وتجري منه مجرى الدم لا يكاد يحسُّ به = ثم للاتناء إليها بعقله وقلبه انتباء يحفظه ويحفظها من التفكك والانحيار » ، (ص : ٢٨) وهذه القيود الثلاثة ، « الإيمان » و « العمل » و « الانتباء » ، هي أعمدة « الثقافة » وأركانها التي لا يكون لها وجودٌ ظاهرٌ محققٌ إلا بها ، وإلا انتقض بُنيان « الثقافة » ، وصارت مجرد معلوماتٍ ومعارفٍ وأقوالٍ مطروحة في الطريق ، متفككة لا يجمع بينها جامعٌ ، ولا يقوم لها تماسكٌ ولا ترابطٌ ولا تشابكٌ .

• وبديهي ، بل هو فوق البديهي ، أن شرط « الثقافة » بقيوده الثلاثة ، ممتنع على « المستشرق » كُلِّ الامتناع ، بل هو أدخل في باب الاستحالة من اجتماع الماء والنار في إناء واحد ، كما يقول أبو الحسن التهامي الشاعر :

وَمُكَلِّفُ الْأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ فِي الْمَاءِ جُذُوءَ نَارٍ

وذلك لأن « الثقافة » و « اللغة » متداخلتان تداخلاً لا انفكاكٌ له ، وبتراقدان ويتلاقحان بأسلوبٍ خفيٍّ غامضٍ كثير المداخل والمخارج والمسارب ، ويمتزجان امتزاجاً

واحداً غير قابل للفصل ، في كُلِّ جيل من البشر وفي كُلِّ أمة من الأمم . ويبدأ هذا التداخل والتراشد والتلاقح والتمازج منذ ساعة يولد الوليد صارخاً يتلمس تذى أمه تلمساً ، ويسمع رجع صوتها وهي تهدده وتناغيه ، ثم يظل يرتضع لبان « اللغة » الأول ، ولبان « الثقافة » الأول ، شيئاً فشيئاً ، عن أمه وأبيه حتى يعقل ، فإذا عقل تولاه معهما المعلمون والمؤدبون حتى يستحصد ، (أى يشتد عوده) ، فإذا استحصد وصار مُطيقاً إطفاءً ما للبصر بمواضع الصواب والخطأ ، قادراً قدرةً ما على فحص الأدلة واستنباطها فناظر وباحث وجادل ، فعندئذ يكون قد وضع قدمه على أول الطريق = لا طريق « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، فهذا بعيد جداً كما رأيت = بل على الطريق المُفضى إلى أن تكون له « ثقافة » يؤمن بها عن طريق العقل والقلب = ويعمل بها حتى تذوب في بنيانه وتجري منه مجرى الدم لا يحسُّ به = وينتمى إليها بعقله وقلبه وخياله انتهاءً يحفظه ويحفظها من التفكك والانحيار ، كما أسلفت . وهذا ، كما ترى ، شرط لازم للبدء في الإحاطة بأسرار « اللغة » ، ثم « اللغة » ، بعد ذلك ، هى التى تمهد له الطريق إلى الإحاطة بأسرار « الثقافة » ، لأنَّ أمر « الإحاطة » عندئذ منوطٌ كُلُّه بالقدرة على تمحيص مفردات « اللغة » تمحيصاً دقيقاً ، وتحليل تراكيبها وأجزاء تراكيبها بدقة متناهية ، وبمهارة وجذق وحذر ، حتى يرى ما هو زيفٌ جليلاً واضحاً ، وما هو صحيحٌ مستبيناً ظاهراً ، بلا غفلة ولا هوى ولا تسرع ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥) = ثم منوطٌ أيضاً بالقدرة الفائقة على النظر في « الثقافة » وعلى ترتيب مادتها بعد نفى زيفها وتمحيص جيدها ، باستيعاب لكل احتمال للخطأ أو الهوى أو التسرع ، متحرراً وضع كل حقيقة من الحقائق في حق موضعها ، لأن أخفى إساءة في وضع إحدى الحقائق في غير موضعها ، خليف أن يشوه عمود الصورة تشويهاً بالغ القبح والشناعة ، (انظر ص : ٢٢ ، ٦٤ ، ٦٥)

فَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ، أُنِّيَ لِلْمُسْتَشْرِقِ أَنْ يَحْوَزَ مَا لَا يَحْوَزُهُ إِلَّا مَنْ وُلِدَ فِي بُحْبُوحَةِ اللُّغَةِ وَثِقَافَتِهَا مِنْذُ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ، ثُمَّ نُشِئَ فِيهَا وَارْتَضَعَ وَأَدَّبَ حَتَّى عَقَلَ وَاسْتَحْصَدَ ؟ غَيْرُ مُمْكِنٍ . وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَنْ يَأْتِيَ « الْمُسْتَشْرِقِ » عَلَى الْكِبَرِ فَيَعَاشِرَ أَصْحَابَ هَذِهِ اللُّغَةِ وَهَذِهِ الثَّقَافَةِ وَيَخَالِطَهُمْ دَهْرًا طَوِيلًا ، وَهَبُهُ مُمْكِنًا أَيْضًا أَنْ يَنْسَى كُلَّ مَا نَشَأَ هُوَ فِيهِ صَغِيرًا وَأَدَّبَ ، أَمْمَكُنْ هُوَ أَنْ يَحْوَزَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَهُوَ مُقِيمٌ فِي بِلَادِهِ بَيْنَ أَهْلِ عَشِيرَتِهِ ، بَأَنْ يَتَعَلَّمَ عَلَى الْكِبَرِ مِنْ مُعَلِّمٍ يَعْلَمُهُ لُغَةً وَثِقَافَةً هُمَا مَعًا أَجْنَبِيَّانِ عَنْهُ وَعَنْ مُعَلِّمِهِ جَمِيعًا ؟ غَيْرُ مُمْكِنٍ . أَقْصَى مَا يَلْبِغُهُ هَذَا « الْمُسْتَشْرِقِ » بَعْدَ عَشْرَاتِ السِّنِينَ مِنَ الذَّادِ وَالْجَهْدِ ، وَبَعْدَ أَنْ تَشَيْبَ قُرُونُهُ ، (وَالْقُرُونُ ضِفَائِرُ شَعْرِ الرَّأْسِ) ، أَنْ يَكُونَ شَادِيًا لَا أَكْثَرَ ، (وَ « الشَادِي » ، الَّذِي تَعَلَّمَ شَيْئًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، أَى أَخَذَ طَرْفًا مِنْهُ) ، أَى أَنَّهُ إِنَّمَا تَعَلَّمَ لُغَةً أَجْنَبِيَّةً عَنْهُ وَيَسْ . ^(١) هَذَا صَرِيحُ الْعَقْلِ ، إِذَنْ فَخَبِّرْنِي : أَهْوُ مُمْكِنٌ أَنْ يَكُونَ مَجْرَدُ تَعَلُّمِ لُغَةٍ أَنْتَ فِيهَا شَادٍ ، كَفِيلًا بِأَنْ يَجْعَلَكَ كَاتِبًا أَوْ بَاحِثًا فِي أَسْرَارِ هَذِهِ اللُّغَةِ وَفِي ثِقَافَتِهَا ، مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُكَ أَنْتَ فِي لُغَتِكَ وَثِقَافَتِكَ ؟ أُمْمَكِنُ هُوَ ؟ مَجْرَدُ خُطُورِ إِمْكَانٍ هَذَا فِي وَهْمِكَ ، مُخْرِجٌ لَكَ مِنْ حَدِّ الْعَقْلِ . فَأَعْجِبُ الْعَجِبَ ، إِذَنْ ، أَنْ يُعَدَّ أَحَدُ شَيْءٍ مِمَّا كَتَبَهُ « الْمُسْتَشْرِقُونَ » فِي لُغَتِنَا وَثِقَافَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، دَاخِلًا فِي حَدِّ الْمُمْكِنِ ، وَأَنْ يَرَاهُ مُتَضَمِّنًا لِرَأْيِ حَقِيقٍ بِالْاحْتِرَامِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ « عَمَلًا عِلْمِيًّا » أَوْ « بَحْثًا مِنْهَجِيًّا » نَسْتَرَشُدُ بِهِ نَحْنُ فِي شُؤُونِ لُغَتِنَا وَثِقَافَتِنَا وَتَارِيخِنَا وَدِينِنَا ، كَمَا هُوَ السَّائِدُ الْيَوْمَ فِي حَيَاتِنَا هَذِهِ الْأَدْبِيَّةِ الْفَاسِدَةِ . أَلَيْسَ هَذَا شَيْئًا لَا يُطَاقُ سَمَاعُهُ وَلَا تَصَوُّرُهُ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ كَأَنَّ مَعْمُولٌ بِهِ بِلَا غَضَاضَةٍ ، أَلَيْسَ هَذَا غَرِيبًا ! أَلَيْسَ غَرِيبًا جَدًّا أَنْ لَا يَكُونَ لِمِثْلِ هَذَا شَيْءٌ الْبَتَّةَ فِي أَى لُغَةٍ وَأَى ثِقَافَةٍ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ ، أَوْ هِيَ كَائِنَةُ الْيَوْمِ ؟ وَقُلْتُ

(١) « بَسْ » بِمَعْنَى « حَسْبُ » وَ « فَقَطْ » ، مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْعَامِيَّةِ ، وَلَكِنَّهَا قَدِيمَةٌ جَدًّا ، وَيُقَالُ إِنَّ أَصْلَهَا

يوماً : « أُرأيت قطّ رجلاً من غير الإنجليز أو الألمان مثلاً ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، كان مسموع الكلمة في آداب اللغة الإنجليزية وخصائص لغتها ، وفي تاريخ الأمة الإنجليزية ، وفي حياة المجتمع الإنجليزي ، يدين له علماء الإنجليز بالطاعة والتسليم » ؟ (١)

أليس غريباً أن يكون غير الممكن ممكناً في ثقافتنا نحن وحدها ، دون سائر ثقافات البشر قديمها وحديثها ؟ غريبٌ عجيبٌ لا محالة .

• وأشياء قليلة ، ولكنها عظيمة الخطر ، أحبُّ أن أنبّهك إليها ، ونحن في حديث « الثقافة » ، حتّى لا تختلط عليك الأمور . يوجب ذلك على علمي بفساد حياتنا الأدبية الحديثة حاضريها وغابريها ، ولأنها تسير بنا اليوم في طريق الغموض ، لا في طريق الوضوح . وقد استشرى خطر هذه السيرة بما شاع في هذه الحياة من الثثرة والادعاء والتحكّم والعجرفة وقلة المبالاة والزهو الفارغ ، فأدّى بنا ذلك كله إلى أن نألّف استعمال ألفاظ مؤهمة غامضة الدلالة ، فضنّافة المعاني ، بُجراً وبلا أناة وبلا ضبط وبلا تعمّق . فالأمر يحتاج مني ومنك إلى وقفة متأنية ، ومراجعة ضابطة للفظ « الثقافة » ، لأن أمرها أجل وأخطر ممّا توهمك به النظرة الأولى . بيد أنّي لا أستطيع هنا الإفاضة في بيانها ، وما هو إلّا الإشارة الخاطفة والتحديد لا غير = وأيضاً لأنّ لفظ « الثقافة » لفظٌ مستحدث في زماننا هذا ، تفسّى استعماله على الألسنة بلا ضابط وبلا دقة وبلا مبالاة .

• « الثقافة » في جوهرها لفظٌ جامعٌ يقصد بها الدلالة على شيئين أحدهما مبنيٌّ على الآخر ، أي هما طوران متكاملان :

(١) انظر كتابي « برنامج طبقات فحول الشعراء » ص : ١١٨ .

الطُّور الأول : أُصولٌ ثابتة مكتسبة تنغرسُ في نفس « الإنسان » منذ مولده ونشأته الأولى حتى يُشارف حدَّ الإدراك البين ، جماعُها كُلُّ ما يتلقَّاهُ عن أبويه وأهله وعشيرته ومعلِّميه ومؤدِّبيه حتى يصبح قادراً على أن يستقلَّ بنفسه ويعقله ، وتفاصيل ما يتلقَّاه الوليد حتى يترعرعَ أو يُراهق ، تُفوتُ كُلَّ حَصْرٍ بل تعجزُ . وهذه الأصولُ ضرورةٌ لازمةٌ لكلِّ حيٍّ ناشئٍ في مجتمعٍ ما ، لكي تكون له « لغةٌ » يُبينُ بها عن نفسه ، و « معرفةٌ » تُتيحُ له قِسْطاً من التفكير يُعينه على معايشة من نشأ بينهم من أهله وعشيرته . وهذا على شدة وضوحه عند النظرة الأولى لأنَّك ألفتُهُ ، لا لأنَّك فكرت فيه وعمقت التفكير ، هو في حقيقته سرٌّ مُلْتَمَّ يحيرُ العقولَ إدراكَ دَفِينِهِ ، لأنَّه مرتبطٌ أشدَّ الارتباط ، بل مُتغلِّغٌ في أعماق سِرِّين عظيمين غامضين هما : سِرُّ « التُّطْقِ » وسِرُّ « العقل » اللذان تميَّز بهما « الإنسان » من سائر ما حوَّلُهُ من الخلق كُلِّه ، وتخيَّرت عقول البشر في كيف جاء؟ وكيف يعملان ؟ لأنَّ « الإنسان » لم يشهد خلق نفسه حتى يستطيع أن يستدلَّ بما شهد ، لكي يصلَ إلى حَيِّهِ هذين السِّرَّين المثلَّمين المُستغلَّقين البعيدين ، وإنَّ توهُمَ أحياناً بالإلْفِ أنهما قريبان واضحان .

ولأنَّ « الإنسان » منذ مولده قد استودعَ فِطْرَةً باطنةً بعيدةَ العُور في أعماقه ، تُوزَعُهُ ، (أى تُلهِمُهُ وتحركه) ، أن يتوجَّه إلى عبادة ربِّ يدرك إدراكاً مبهماً أنَّه خالقه وحافظه ومُعِينه ، فهو لذلك سريعُ الاستجابة لكلِّ ما يُلبِّي حاجةَ هذه الفِطْرَةِ الخفيةِ الكامنة في أغواره . وكلُّ ما يلبِّي هذه الحاجة ، هو الذي هدى الله عباده أن يسمُّوه « الدين » ، ولا سبيلَ البتَّةِ إلى أن يكونَ شيءٌ من ذلك واضحاً في عقل الإنسان إلا عن طريق « اللغة » لا غير ، لأنَّ « العقل » لا يستطيع أن يعملَ شيئاً ، فيما نعلمُ ، إلا عن طريق « اللغة » . فالدين واللغة ، منذ النشأة الأولى ، متداخلان تداخلاً غير قابل

للفَصْلِ ، ^(١) ومن أغفل هذه الحقيقة ضلَّ الطريقَ وأوغل في طريق الأوهام . هذا شأن كلِّ البشر على اختلاف مللهم وألوانهم ، لا تكاد تجد أمةً من خلق الله ليس لها « دينٌ » بمعناه العام ، كتابياً كان ، أو وثيقاً ، أو بدعاً ، (« البدع ») ، الدين ليس له كتابٌ أو وثقٌ معبود .

ولذلك ، فكلُّ ما يتلقاه الوليد الناشئ في مجتمعٍ ما ، من طريق أبويه وأهله وعشيرته ومعلميه ومؤدبيه ، من « لغة » و « معرفة » = يمتزج امتزاجاً واحداً في إناءٍ واحدٍ ، ركيزته أو ثوابته وخميزته دينُ أبويه ولغتهما ، وأبلغهما أثراً هو « الدين » . فالوليد في نشأته يكون كلُّ ما هو « لغة » أو « معرفة » أو « دين » متقبلاً في نفسه تقبُّل « الدين » ، أى يتلقاه بالطاعة والتسليم والاعتقاد الجازم بصحته وسلامته ، وهذا بينٌ جداً إذا أنت دققت النظر في الأسلوب الذى يتلقى به أطفالك عنك ما يسمعون منك ، أو من المعلم في المراحل الأولى من التعليم . ويظلُّ حال الناشئ يتدرَّج على ذلك ، لا يكاد يتفصَّى شيءٌ من معارفه من شيءٍ ، (« يتفصَّى » : أى يتخلَّص من هذا المضيق) حتى يقارب حدَّ الإدراك والاستبانة ، ولكنه لا يكاد يبلغ هذا الحدَّ حتى تكون لغته ومعارفه جميعاً قد غُمِسَتْ في « الدين » وصُبِغَتْ به . وعلى قدر شمول « الدين » لشؤون حياة الإنسان ، وعلى قدر ما يحصل منه الناشئ ، يكون أثره بالغ العمق في لغته التى يفكرُ بها . وفي معارفه التى يبنى عليها كلُّ ما يوجبه عملُ العقل من التفكير والنظر والاستدلال . فهذه هى الأصول الثابتة المكتسبة في زمن النشأة على وجه الاختصار .

(١) في حياتنا الأدبية الفاسدة ، تروج دعوة خبيثة جاهلة لفصل « اللغة » عن « الدين » ، وهذا شيءٌ لا يتيسرُ إلا بمفارقة دين ، والدخول في دين آخر يصنعونه لأنفسهم . وليان معنى « الدين » ، أرجو أن تقرأ أولاً ما كتبه في كتابي « أباطيل وأسمار » ص : ٥١٣ - ٥٥٢ ، فهو مهمٌ هنا جداً ، وأن « الدين » عندنا يشتمل على الدلالة على الأصول الصحيحة المحكمة التى يسترشد بها العقل في التفكير والنظر والاستدلال .

الطُّورُ الثاني : فروعٌ مُنبثقةٌ عن هذه الأصول المكتسبة بالنشأة . وهى تنبثق حين يخرج الناشئ من إيسارِ التسخير إلى طَلاقة التفكير . وإنما سُمِّيَتْ « الطور الأول » : « إيسارِ التسخير » ، لأنه طورٌ لا آنفكاكٍ لأحدٍ من البشر منه منذ نشأته في مجتمعه . فإذا بلغ مبلغ الرجال استوت مداركُه ، وبدأت معارفُه يتفصَّى بعضها من بعضٍ ، أو يتداخل بعضها في بعضٍ ، ويبدأ العقل عمله المُستتبَّ في الاستقلال بنفسه ، ويستبدُّ بتقليب النظر والمباحثة وممارسة التفكير والتنقيب والفحص ، ومعالجة التعبير عن الرأى الذى هو نتائجُ مُزاولةِ العقل لعمله ، فعندئذ تتكوَّن النواةُ الجديدة لما يمكن أن يسمى « ثقافة » . ويبيِّن أن سبيله إلى تحقيق ذلك هو « اللغة » و « المعارف » الأولى التى كانت في طورها الأول مصبوغة بصيغَةِ « الدين » لا محالة ، حتى لو استعملها في الخروج على « الدين » الموروث ومناقشته رَفْضاً له أو لبعض تفاصيله . هذه حالُ النَّشْأِ الصغار حتى يبلغوا منزلة الإدراك المستقل المفضى إلى حَيِّزِ « الثقافة » .

• و « ثقافة » كل أمة وكل « لغة » هى حصيلةُ أبنائها المثقفين بقدرٍ مشتركٍ من أصول وفروع ، كُلُّها مغموسٌ في « الدين » المتلقى عند النشأة . فهو لذلك صاحبُ السلطانِ المُطلقِ الخفى على اللُغة وعلى النفس وعلى العقل جميعاً ، سلطانٌ لا ينكره إلا من لا يبالى بالتفكر فى منابع الأول التى تجعل الإنسان ناطقاً وعاقلاً ومبيناً عن نفسه ، ومستبيناً عن غيره . فتقافة كُلِّ أمةٍ مرآةٌ جامعةٌ فى حَيِّزِها المحدود كُلِّ ما تشعَّت وتشتَّت وتباعَد من ثقافة كُلِّ فردٍ من أبنائها على اختلاف مقاديرهم ومشاربهم ومذاهبهم ومداخلهم ومخارجهم فى الحياة . وجوهرُ هذه المرآة هو « اللغة » ، و « اللغة » و « الدين » ، كما أسلفت ، متداخلان تداخلاً غير قابلٍ للفصلِ البتَّة .

فباطلُ كُلِّ البطالين أن يكون فى هذه الدنيا على ما هى عليه ، « ثقافة » يمكن أن

تكون « ثقافة عالمية » ، أى ثقافة واحدة يشترك فيها البشر جميعاً ويمتزجون على اختلاف لغاتهم ومللهم ونحلهم وأجناسهم وأوطانهم . فهذا تدليس كبير ، وإنّما يُراد بشيوع هذه المقولة بين الناس والأمم ، هدف آخر يتعلق بفرض سيطرة أمة غالبية على أمم مغلوقة ، لتبقى تبعاً لها . فالثقافات متعدّدة بتعدّد الملل ، ومتميّزة بتميّز الملل ، ولكلّ ثقافة أسلوب في التفكير والنظر والاستدلال مُنتزَع من « الدين » الذى تدين به لا محالة . فالثقافات المتباينة تتحاور وتتناظر وتناقش ، ولكن لا تتداخل تداخلاً يُفضى إلى الامتزاج البتّة ، ولا يأخذ بعضها عن بعض شيئاً ، إلّا بعد عَرْضه على أسلوبها في التفكير والنظر والاستدلال ، فإن استجاب للأسلوب أخذته وعدّلته وخلّصته من الشوائب ، وإن استعصى تبذّنه وأطرّحته . وهذا باب واسع جداً ليس هذا مكان بيانه ، ولكنى لا أفارقه حتّى أنْهك لشيء مهمّ جداً ، هو أن تفصل فصلاً حاسماً بين ما يسمّى « ثقافة » وبين ما يسمّى اليوم « علماً » ، (أعنى العلوم البحتة) ، لأن لكلّ منهما طبيعةً مُباينةً للآخر ، فالثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد ، والعلم مُشاع بين خلق الله جميعاً ، يشتركون فيه اشتراكاً واحداً مهما اختلفت الملل والعقائد .

• فإذا عرفت هذا واستبصرت حقيقته ، وأنعمت النظر فيه ، فعندئذ يُفضى بك النظر إلى أمر « المستشرق » . فهو حين ينظر في « ثقافة » أمة أخرى غير أمته ، إنّما ينظر فيها لأحد أمرين : إمّا أن ينظر فيها ليكتسب منها شيئاً لأتمته وثقافته ، وإمّا أن ينظر فيها لينظر ويناقش . وكلا الأمرين حق لا ينازعه فيه منازع . وفي كلا الأمرين هو واقع في مأزق ضيق : مأزق « اللغة » ومأزق « الثقافة » . لا يستطيع أن يأخذ إلّا على قدر ما فهم من « لغة » غريبة أصلاً عن لغته ، ولا يستطيع أن يناقش إلّا على قدر ما يتصوّر أنه استبانته وأدركه من « ثقافة » غريبة عن ثقافته . ولكن ليس هذا شأنه وحده ، بل هو شأنى وشأنك أيضاً في ثقافة « المستشرق » وأمه التى ينتمى إليها ، وعلى نفس القاعدة التى ذكرتها لك قبل أسطر .

• ولكن « المستشرق » ، وإن يكن قد فعل الأمرين جميعاً خدمة لأمته ، كما مضى ذكر ذلك في ثنائيا كلامي ، فإنه قد جاء فدخل مدخلاً آخر من غير هذين البابين ، ودخوله من هذا الباب الثالث هو موضع النزاع بيننا وبينه ، دخل لا مستفيداً ولا مناقشاً ، بل دخل باحثاً ودارساً عليه طيلسان العلم ، (أى الرداء المميز لأساتذة الجامعات) في ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، وهو ميدان له شروط لازمة لا تختل . دخل في « لغة » هو فيها هجين كل الهجنة ، (« الهجين » الذى في نسبه عيب قاذح) ، وفي « ثقافة » هو غريب عنها كل الغربة . ودخوله هذا عمل مُستشع في ذاته ، لأنه اجتراء على دخول هذا الميدان بغير حقه ، ولا يُسمح بمثله في ثقافة أمته هو نفسه ، لأنه لا يملك شيئاً ذا بال من مُسوغات ، ولا تسمح به طبيعة ما يمكن أن يسمى « بحثاً » أو « دراسة » ، كما بينت ذلك آنفاً (ص : ٦٦ - ٧٠) . أما « اللغة » فغير ممكن أن يكون فيها إلا طالباً شادياً يعرفهما معرفة معرفة ما ، لا تسمح بدخوله تحت شرطها ، كما بينت آنفاً . (ما سلف : ٦٦ - ٧٠) = وأما « الثقافة » ، وشرطها أشد وأقسى ، (انظر ص : ٢٨ ، ٦٨) فيحول بينه وبينها أهوال لا يجتازها إلا من عرف « اللغة » معرفة أستاذ متمكن ناشئ في هذه « الثقافة » وفي لغتها . وفوق ذلك كله ، « المستشرق » ناشئ في لغة وفي ثقافة أخرى قد رسخت في نفسه وعقله ، وهى بطبيعتها ، كما بينت آنفاً ، مصبوعة صبغة شديدة في اليهودية والمسيحية ، وهما ملتان ثابتهما ملّة الإسلام مُباينة تبلغ حد الرّفص والمناقضة . وثقافته هذه تُنازعه حيث ذهب في البحث والدرس ، فممكّن أن يناقش « ثقافة » الإسلام ، ممكّن ، لأن هذا حقه ، ولكنه مستحيل كل الاستحالة أن يكون في ثقافتنا نحن « باحثاً » أو « دارساً » يبدى رأياً يستحق النظر والاحترام ، في قرآنها وحديثها وتفسيرها وفي تفسير شرائعها ، وفي تاريخها وفي آدابها ولغتها وشعرها إلى آخر ما ذكرته آنفاً ، (ص : ٥٩) ، مستحيل ، لأنه ممتنع عليه امتناعاً لا يملك الفرار منه .

بيد أن دوافع « المستشرق » إلى هذا الدخول الجريء المُستَبَشِع وركوب هذا المركب الوعر ، كانت ضرورةً تحمله على أن يخدم أبناء جلدته وعشيرته وأهل ملته ، بما أوجبه الصراع المحتدم قروناً بين الإسلام والمسيحية المحصورة في الشمال ، فانبعث يكتب ما يكتب حاملاً هموم المسيحية الشمالية في أعماق قلبه ، (انظر ما سلف ص : ٥٨) ، لأسباب فصلتها آنفاً ، و « ليصور الثقافة العربية الإسلامية وحضارة العرب والمسلمين ، بصورة مقنعة للقارئ الأوربي (المسيحي) ، وبأسلوب يدل على أن كاتبها قد خبر ودرس وعرف وبذل كل جهد في الاستقصاء ، وعلى منهج مألوف لكل مثقف أوربي ، وأنه وصل إلى هذه النتيجة التي وضعها بين يديه ، بعد خبرة طويلة وعرق وجهد وإخلاص ، حتى لا يشك قارئ منهم في صدق ما يقرؤه ، وأنه هو اللبّاب المصفي من كل كدر ، والمبتر من كل زيف ، وأنه هو الحق المبين والصراط المستقيم » ، (اقرأ ص : ٥٩ وما قبلها وما بعدها) . وفعل « المستشرق » ذلك لأسباب تستطيع أن تُعيد قراءتها فيما سلف ، (ص : ٥٦ ، ٥٧) .

وهذا العمل على ما فيه من المَعَايَة ، هو بلا شك أيضاً ، حق خالص للمستشرق لا ينازعه فيه منازع ، لأنه كتب ما كتبه للمثقف الأوربي المسيحي وحده لا لغيره (انظر ما سلف : ٦١) ، حتى ما كان من ذلك كله سفاهة وبذاءة لا غير (ص : ٦١) ، كل ذلك حقه ، وما كان فيه من إثم فحسابه على الله سبحانه لا علينا . وكل ذلك أيضاً لا يوجب عندى أن يوصف عمل « المستشرق » هذا بأنه مبني على تحبث الطوية ، لأن تحبث الطوية يقتضي أن تكون تعرف الحق أبلج مستتيراً ، ثم تطمسه مُريداً لإفساد الحق على غيرك . و « المستشرق » بعيد كل البعد عن أن يعرف الحق مُعْتَمِداً دامساً ، فكيف يعرفه أبلج مستتيراً . و « المستشرق » ، كما علمت ، لم يعمد إلى إفساد حق على المثقف الأوربي المسيحي ، بل عمَد إلى حياطته حتى لا ينهر بدين عدوه المسلم انهاراً مجربةً

عاقبته على مرّ القرون الطوال بالتساقط في الإسلام . وفوق ذلك كلّه ، فإن هذا المسلك ، مسلك « الغاية تسوّغ الوسيلة » ، مسلك مألوف مستحسن محبّب إلى الحضارة الأوربية السائرة على هدى « مكيا فيلي » الذي هداهم إليه ، ونزل عندهم منزلة « الدين » ، وإن كان ديننا ، نحن المسلمين ، يُنكره ويأباه علينا كلّ الإباء . وإذا كان من حقنا أن نصف « المستشرق » بنخب الطويّة ، فذلك جائز لنا في عمل آخر من أعماله ربّما أشرت إليه فيما بعد .

• أما الأمر الثالث ، وهو أمر « الأهواء » ، (انظر ما سلف ص : ٦٦) ، فلن أضيع وقتي ووقتكم في الحديث فيه ، وإن كان شرطاً مهماً ، حتّى أن يبرأ منه كلّ من ينزل ميدان « المنهج » و « ما قبل المنهج » ، لأن بديهة الفطرة في الإنسان تقضى بأن « الأهواء » مرفوضة في كلّ عمل يستحق أن يوصف بأنه عمل شريف أو عمل علمي . وظاهر من كلّ ما كتبه لك آنفاً أن « الاستشراق » ، من فرع رأسه إلى أخمص قدميه ، غارق في « الأهواء » . والثقافة الأوربية والحضارة الأوربية تستقبل « الأهواء » بلا نكير ولا أنفة ، بل هي تسوّغ استعمال رذيلة « الأهواء » في الدنيا وفي الناس بلا حرج ، لأنها حضارة قائمة على المنفعة والسلب ونهب الأمم وإخضاعها بكُلّ وسيلة لسلطانها المتحضّر !! والدلائل على ذلك لا تخفى على بصير ذي عينين ثبصران ، فهي تسوّغ ذلك في العلم وفي الثقافة وفي السياسة وفي الدين وفي كلّ شيء ، ما دام جالباً للمنفعة أو دافعاً للمضرة ، بل تسوّغها أيضاً في الدعوى الغريبة العجيبة التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الأمم ، دَعَوَى أنها « حضارة عالمية » ، وفحواها أن العالم كلّه ينبغي أن يخضع لسلطانها وسيطرتها ، ويتقبّل برضى غطرستها وفجورها الغنيّ الأخاذ الفاتن !

وأخيراً ، هذا تمام خبر « الاستشراق » وحقيقة « المستشرق » الذي انتفض بهموم المسيحية الشمالية ، فكتب من الكتب ما كتب لأهل ملّته وخاض في مغمعان حياة

أمتة الثقافية والسياسية مدافعاً شديداً الحمية ، ومحامياً عن أقوامه أبلغ المحاماة ، وهو شيء لا يعنينا ، أو كان ينبغي أن لا يعنينا هو ولا ما كتبه في ثقافتنا قلامه ظفر ، لما عرفت من استحالة قدرته على معرفة العربية إلا مثل تحلة القسم ، (أى قليلاً ، بمقدار ما يكفر المرء قسمه ولا يبالغ) ، ومن عجزه المطلق عن استبانة وجه الحق في ديننا وثقافتنا ، لأنه مكفوف عنهما بحجاب من ثقافته التي نشأ فيها وليداً واستمر حتى شابت قروته . فما باله شغل ناسنا بالحديث عنه ؟ أجل ، كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان مما أفضى إلى انتدابه إلى إلقاء محاضرات في جامعاتنا العربية والإسلامية ؟ وأعجب من ذلك استلحاقه بهيئات الجامع اللغوية في بلاد عربية إسلامية ، يا للعجب ! أى ناس نحن !

٢٠ - كيف كان ذلك ؟ ولم كان ما كان ؟ قصة طويلة عريضة ملوها

الغرائب والعجائب ، والمضحكات والمبكمات ، والحسرات والآهات ، من مبدئها إلى منتهائها . ليتنى أستطيع على المكان ، (أى الآن) ، أن أقصها عليك كاملة بتفاصيلها ، ولكن أتى يكون لي ذلك الآن ؟ فاقنع منى بالاختصار المفهم ، والإيماء الخاطف ، واللمحة الدالة ، إبراء للذمة ، ذمتى أنا ، وأداء للأمانة التي حُمِلْتُهَا لأستودعها بين يديك . وأنت مخير بين خطتين لا ثالث لهما : إما أن تتقصى المكنون الغائب من تفاصيلها المشتتة في تاريخك وكتبك ، بعقل وهمّة وجدّ ويقظة وبصر وإدراك ، وبأنفة من قبول الذل والعار والمهانة = وإما أن تملأها فتطرحها عن كاهلك قابلاً لمزيد من الذل والعار والمهانة ، مستحلياً خداع النفس بأوهام سؤلها لك حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، والتي ألفت بكل فسادها في حياتنا اللغوية والثقافية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية ، بل في صميم حياتنا الدينية أيضاً ، حتى أوشك أن يضيع كل شيء كان غير قابل

للضياغ . فأخترَ لنفسك منهما ما شئت . فإن اخترت الخُطَّة الأولى ، فاصبر على لأوائها ومَشَقَّتها ولا تَجْزَعْ ، وكنْ رابطَ الجأش لا تستحوذُ عليك المخاوفُ والرَّهبةُ ، ولا تهوَّنَكَ أسماءُ الرجالِ المُحدِّثين الكبارِ ، والتي لها دوى وضخامةٌ ، فإنَّما هى طَبْلُ فارغٌ ، ورقٌ منفوخٌ ملؤه هواءٌ . وأعلم أن الأمرَ جِدُّ كُلِّهِ ، فإن داخلَه الهزلُ خرجت منه صِفَرُ اليدين . ولا يَغُرُّكَ زُخْرُفُ الألفاظِ الوَسِيمةِ المتألِّفةِ ، مثل قولهم : « الجديدُ والقديمُ » و « الأصالةُ والمعاصرةُ » ، و « التجديدُ والتقدُّمُ » ، و « الثقافةُ العالميةُ » و « الحضارةُ العالميةُ » و « التخلفُ والتحضُّرُ » ، فإنَّما هى ألفاظٌ لها رنينٌ وفتنةٌ ، ولكنها مليئةٌ بكلِّ وهَمٍ وإيهامٍ وزهوٍ فارغٍ مُميتٍ فاتكٍ ، تُوغِلُ بنا فى طريقِ المهالكِ ، وتستترُّ العَقْلَ حتى يرتطمُ فى رَدْغَةِ الخبالِ ، (أى طينته اللزجة) ، فإن استبان لك أولُ الطريقِ ولكن هبَّت وتردَّدت ، فاستمعْ عندئذٍ لنصيحةِ الحسن البصرى رضى الله عنه : « إِنَّ مَنْ يُخَوِّفُكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ ، أَشَفُّ عَلَيْكَ مِمَّنْ يُؤْمِنُكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ » ، كان الله فى عونى وعونك .

● غِبَر ما غِبَر على يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م بسقوط القسطنطينية حصن المسيحية الشمالية الشاغل المنيع ، وعلى تدفق كتائب الإسلام فى قلب أوربة العارقة فى حَمأة قرونها الوسطى ... غِبَر ما غِبَر على فَرَحَةٍ أذهلت دار الإسلام عن فجيعتها بسقوط الأندلس كُلِّهِ بعد أربعين سنة فى قبضة المسيحية الشمالية يوم سقطت غِرْنَاةُ آخرِ حصون الإسلام فى الأندلس ، (٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م) ... وَغِبَر ما غِبَر على جَزَعِ المسيحية الشمالية وشعورها بالإخفاق والمذلة والعار ، (اقرأ ما سلف : ٤١ وما بعدها) ، وعلى ما كان من توغُّل محمد الفاتح فى قلب أوربة وتساقط رعايا الرُّهبان فى الإسلام طواعيةً واختياراً ، ودخولهم بحماسة ويقين فى جحافل الإسلام الزاحفة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦) ... غِبَر ما غِبَر ، ودخلت دار الإسلام فى سِنَةِ

لذيذة أورثتها نشوة النصر المؤزر ، ودخلت أوربة كلها فى عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار ، وبلغ السيل الزبى ، فكانت يقظة محسوسة فى جانب ، وغفوة لا تحس فى جانب ، وشال الميزان ، (اقرأ ما سلف : ٤٤ ، ٥٠) ، وانطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، فإذا دار الإسلام محصورة فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية فى الشمال ، وشيئا فشيئا فقدت دار الخلافة فى القسطنطينية هيبتها وسيطرتها ، وصارت لأوربة هيئة مرهوبة وسيطرة ، (اقرأ ص : ٥٢) .

يومئذ كان قد مضى على فتح القسطنطينية قرنان ، مئتا عام ويومئذ آس قلب دار الإسلام ركزا خفيا فأرهف له سمعه . سمع نقيض أركان دار الخلافة وهى تقوض ، فتوجس توجسا غامضا لشر مستطير آت لا يدري من أين ؟ فهب من جوف الغفوة الغامرة أشتات من رجال أيقظتهم هذه هذا التقوض ، فانبعثوا يحاولون إيقاظ الجماهير المستغرقة فى غفوتها . رجال عظام أحسوا بالخطر المبهم المحدث بأمتهم ، فهبوا بلا تواطؤ بينهم . كانوا رجالا أيقاظا مفرقين فى جنبات أرض مترامية الأطراف ، متباعدة أوطانهم ، لا يجمعهم إلا هذا الذى توجسوه فى قرارة أنفسهم مبهما من خطر محدق . أحسوا الخطر فرأوا إصلاح الخلل الواقع فى حياة دار الإسلام : خلل « اللغة » و « خلل العقيدة » و « خلل علوم الدين » و « خلل علوم الحضارة » . وبأناة وصبر عملوا وألفوا وعلموا تلاميذهم ، وبهمة وجد أرادوا أن يدخلوا الأمة فى « عصر النهضة » ، نهضة دار الإسلام من الوسن والنوم والجهالة والغفلة عن إرث أسلافهم العظام . من هؤلاء خمسة من الأعلام أذكرهم لك هنا مجرد ذكر باختصار : (١)

(١) كتبت فى مجلة الهلال فى عددى مايو ويونيه سنة ١٩٨٢ ، فصلا عنهم ، وقطعتنى الشواغل عن إتمام القول فى شأنهم وشأن « النهضة » التى أحدثوها ، وأسأل الله أن يوفقنى لإتمامها بعونه سبحانه .

- ١ - « البغدادى » ، « عبد القادر بن عمر » ، صاحب « خزانة الأدب » (١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) فى مصر .
- ٢ - « الجبترى الكبير » ، « حسن بن إبراهيم الجبترى العقيلى » ، (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) فى مصر ، وسأحدثك عنه بعد قليل .
- ٣ - « ابن عبد الوهاب » ، « محمد بن عبد الوهاب التيمى النجدى » ، (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) فى جزيرة العرب .
- ٤ - « المرتضى الزبيدى » ، « محمد بن عبد الرزاق الحسينى » ، صاحب « تاج العروس » (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٧٢ - ١٧٩٠ م) فى الهند وفى مصر .
- ٥ - « الشوكانى » ، « محمد بن على الحولانى الزيدى » ، (١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) فى اليمن .

وإذا أنعمت النظر فى هذه التواريخ ، علمت أن « عصر النهضة » عندنا واقع بين منتصف القرن الحادى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثانى عشر ، ويقابله منتصف القرن السابع عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، تذكر هذا ولا تنسه أبداً ، فهو الذى يكشف لك اللثام عن التغير الفاضح الذى طفحت به حياتنا الأدبية الفاسدة المهلكة .

هَبَّ « البغدادى » فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ، فألف ما أُلِّفَ ليرد على الأمة قُدرتها على « التدقيق » ، تدقيق اللغة والشعر والأدب وعلوم العربية ^(١) وهَبَّ « ابن عبد الوهاب » يكافح البدع والعقائد التى تخالف

(١) اقرأ ما كتبه عن « التدقيق » فى كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٣٤ ، وفى مواضع من هذا الكتاب

الذى بين يديك .

ما كان عليه سَلَفُ الأُمَّة من صفاء عقيدة التوحيد ، وهي ركن الإسلام الأكبر ، ولم يقنع بتأليف الكتب ، بل نزل إلى عَامَّة الناس في بلاد جزيرة العرب ، وأحدث رَجَّة هائلة في قلب دار الإسلام = وهبَ « المرتضى الزبيدي » يبعثُ التُّراثَ اللُّغويَّ والدينيَّ وعلوم العربية وعلوم الإسلام ، ويُحْيِي ما كَادَ يَخْفَى على الناس بمؤلفاته ومجالسه = وهبَ « الشوكانيُّ الزبيديُّ الشيعيُّ » مُحييًّا عقيدة السلف ، وحرَّم « التقليد » في الدين ، وخطَّم الفرقة والتناؤد الذي أدَّى إليه اختلاف الفرق بالعصبية = أما خامسهم ، وهو « الجبرتي الكبير » ، فكان فقيهاً حنفياً كبيراً نابهاً ، عالماً باللغة ، وعلم الكلام ، وتصدَّر إماماً مُفتياً وهو في الرابعة والثلاثين من عُمره ، ولكنه في سنة ١١٤٤ هـ (١٧٣١ م) ، وَلَّى وجهه شَطْرَ « العلوم » التي كانت تراثاً مستغلِقاً على أهل زمانه ، فجمع كتبها من كُلِّ مكانٍ ، وحرَّص على لقاء من يعلمُ سِرَّ ألفاظها ورُموزها ، وقضى في ذلك عشر سنواتٍ (١١٤٤ - ١١٥٤ هـ) ، حتى ملك ناصية الرُّموز كُلِّها ، في الهندسة والكيمياء والفلك والصنائع الحضارية كُلِّها ، حتى النَّجارة والخراطة والحِدادَة والسِّمَكَة والتجليد والنقش والموازين ، وصارَ بيته زاحراً بكلِّ أداة في صناعةٍ وكلِّ آلةٍ ، وصارَ إماماً عالماً أيضاً في أكثر الصنائع ، ولجأ إليه مَهَرَة الصُّنَّاع في كُلِّ صناعة يستفيدون من علمه ، ومارس كُلَّ ذلك بنفسه ، وعَلَّمَ وأفادَ ، حتَّى علَّمَ خَدَمَهُ في بيته ، ويقول ابنه عبد الرحمن الجبرتي المؤرِّخ ، (تاريخ الجبرتي ١ : ٣٩٧) :

« وحضَّرَ إليه طُلَّابٌ من الإفرنج ، وقرأوا عليه علم الهندسة ، وذلك في سنة تسع وخمسين (١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م) وأهدوا إليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة ، وذهبوا إلى بلادهم ونشروا بها العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القُوَّة إلى الفعل ، وأسْتخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء ، وجَرِّ الأثقال ، واستنباط المياه ، وغير ذلك » .

وهؤلاء « الإفرنج » ، هم « المستشرقون » ، كما قصصْتُ عليك من أخبارهم ، ومن اتَّصلهم بالعلم الحثِّي عند علماء دار الإسلام ، لحلِّ رُموز الكتب العربيَّة ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ ، ٥٣ - ٥٥) . و « الجبرتيُّ الكبير » رحمه الله ، كان على خُلُق أهل الإسلام ، فلم يَضَنَّ على أحدٍ من هؤلاء الإفرنج بشيءٍ من علمه ، ولا أساءَ بهم الظنَّ ، (اقرأ ما سلف : ٤٨) ، بل عمل بما أدَّبه به نبيُّه ﷺ إذ يقول : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلْجَامٍ مِنْ نَارٍ » ، ^(١) ولو علم « الجبرتيُّ » بخبِيئةِ أنفسهم وهم يتملَّقونه ويتخشَّعون بين يديه ، فلا أدري ماذا كان يفعلُ ، وهو الفقيه المُفتي رحمه الله ؟

هذا طَرَفٌ لا يجزىءُ عن « النهضة » التي كانت في دار الإسلام في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، قصصتُه عليك خَطْفاً ، لتعرفَ بعد ذلك ما كان كيفَ كان ؟

• دَوَّتْ أسماء هؤلاء الخمسة في أرجاء دار الإسلام ، وأشتاتٍ غيرُهُم ، مُؤَذِّنَةٌ بيقظةٍ جديدة ، وإحياءٍ لعلم الأمة ولُغتها وثقافتها ، واستعادةٍ لسيطرة الأمة على أسباب حضارتها الزاهرة القديمة ، وإرادةٍ لبعثها بعثاً جديداً ، دون شعورٍ واضحٍ أو علمٍ مستبين ، بالذى كان يجرى في ديار المسيحيَّة الشماليَّة من يَقْظَةٍ ونهضةٍ وَبَعَثٍ جديد . ونصيحةٌ وتنبيهٌ : لا تنظرُ إلى الفرقِ الهائلِ الكائنِ اليومَ بين الشمالِ المسيحى والجنوبِ الإسلامى ، فإنَّكَ إنْ فعلتَ ضَلَلْتَ عن الحقيقة . والحقيقةُ يومئذٍ أنَّ الفرقَ بيننا وبينهم كانَ خُطوةً واحدةً تُستدركُ بالهَمَّةِ والصَّبْرِ والدَّابِّ والتصميمِ لا أكثر ، بل أكبر من ذلك ، فإنَّ اليَقْظَةَ الأوربيَّةَ كانت بعدُ في أوَّل الطريقِ وتَنَكَّىءُ اتكاءً شديداً على ما كانَ عندنا من

(١) هو حديث أنى هريرة ، رواه أبو داود في السنن ، « كتاب العلم » والترمذى في « كتاب العلم » ، ورواه أحمد في مسنده في مواضع مختلفة أهمها برقم : ٧٥٦١ (١٤ : ٥ من شرح أخى رحمه الله) ، وكتب أخى فضلاً مهماً جدًّا في حلِّ مشكلة تحيط بهذا الخبر .

العلم المستطور في كتبنا برموزه التي تحتاج إلى استبانة وفهم ، وعلى العلم الحى الذى عند أهل دار الإسلام ، كما حدثك الجبرتي المؤرخ عن أبيه الفقيه الجليل الجبرتي الكبير ، (انظر ما سلف قريباً) ، وقراءة « المستشرقين » عليه ليبتدوا به اهتداءً مما إلى حل هذه الرموز واستبانتهما وفهمهما . وكل الفرق بين اليقظتين يومئذ هو أن يقظتنا كانت هادئة سليمة الطوية منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضرتها في حدود الإسلام ، وإن كانت يومئذ « يقظة » متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال ، ولكنها كانت قريبة التواصل ، وشيكة الالتئام = وأما يقظتهم هم ، فكانت متفجرة بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفي ، وشملها مجتمع بالضغينة المتقادمة ، وهدفها إعداد العدة لاختراق دار الإسلام بالدهاء والخداع والمكر ، كما حدثك آنفاً فأطلت الحديث ... أى هما يقظتان كانتا في زمن واحد ، إحداهما من طبيعتها الرفق المهذب ، والأخرى من طبيعتها العدوان الفاجر ، فأنظر الآن ماذا كان بعد ذلك ، لأمر أراد الله أن يكون . ودع عنك ما تقوله اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة .

● كما قلت لك آنفاً ، كان « المستشرقون » منذ نأثاة « الاستشراق » = وإلى هذا اليوم = يحبون دار الإسلام من أطرافها إلى قلبها ، يلاقون الخاصة من العلماء ، ويخالطون عامة المثقفين والذمءاء ، (اقرأ ص : ٤٨) ، وفي قلوبهم حمية الحقد المكتم ، وفي النفوس العزيمة المصممة ، وفي العيون اليقظة ، وفي العقول التنبه ، وفي الوجوه البشر والبراءة ، وفي الألسنة الخلاوة والتملق ، ولبسوا لجمهرة المسلمين كل زي ، وتوغلوا يستخرجون كل مخبوء ، (اقرأ ص : ٥٣ وما بعدها) = وكانت بلادهم يومئذ قرية عهد بعصر النهضة وعصر اليقظة وعصر الإحياء ، فهم على أتم معرفة بأسرار اليقظة كيف تبدأ وإلى أين تنتهى ، فأدركوا إدراكاً واضحاً لا لاجة فيه أن ما كان يجري في دار الإسلام منذ منتصف القرن الحادى عشر الهجرى ، (السابع عشر الميلادى) ، إلى منتصف القرن الثانى عشر

الهجرى ، (الثامن عشر الميلادى) ، إنما هو « يَقْظَةُ » حَقِيقِيَّةٌ ، و « نَهْضَةُ » كاملةٌ ، و « إحياءٌ » صحيحٌ ، مُنْبِتُ كُلِّهِ مِنْ يُنْبِوعِ صَافٍ عَتِيقٍ ، طَمَسَتْ معالمه كُرُّ الدُّهُورِ والقرونِ ، هو جميعُهُ فى حوزَةِ دارِ الإسلامِ ، وهم فى يَقْظَتِهِمْ هذه يومئذٍ عالَةٌ عليه ، ولا يَسْتَقُونَ إِلَّا مِنْ ثِمَادِهِ بعد جُهِدٍ جهيدٍ ، (« الثَّمَادُ » ، خُفِرَ فيها ماءٌ قليلٌ) ، فوجِفَتْ قلوبُهُمْ وَرَجَفَتْ مِنْ هَوْلٍ ما هم مقبلون عليه ، إذا تَمَّتْ لدارِ الإسلامِ « اليَقْظَةُ » واستوت وبلغَتْ أَشَدَّهَا ، واستقامت خُطواتُها على سَنَنِ الطريقِ .

• وعلى عادة « المستشرقين » التى حَدَّثَتْكَ عنها ، (اقرأ ص : ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٦) ، وهُمْ حَمَلَةٌ هُموم المسيحية الشمالية ، والذَّادَةُ عنها وَحُمَاتُهَا المستبسلون ، هُبُوا هَبَّةَ الْفَرْعِ مِنْ هذه « اليَقْظَةُ » ، فتسارعوا ينقلون كُلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ ممَّا هو جارٍ تحت أَعْيُنِهِمْ فى دارِ الإسلامِ . ووضعوه بَيْنًا جَلِيًّا ، مشفوعاً بمخاوفِهِمْ ومُلاحظاتِهِمْ ونُصَحِهِمْ وإرشادِهِمْ ، تحت أبصار ملوك المسيحية الشمالية وأمرائِها ورؤسائِها وقادِتها وسَاسَتِها ورُهبانِها ، وبصُرُّوهم بالعواقبِ الوَخِيمةِ المَخُوفةِ مِنْ هذه « اليَقْظَةُ » الوليدة التى بدأت تَنسَاحُ فى أرجاء دارِ الإسلامِ . وتناجوا بينهم نَجْوَى طويلاً ، يُقَلِّبونَ النَّظَرَ فى أهدافِهِمْ ووسائلِهِمْ ، (اقرأ ما سلف ص : ٤٥ وما بعدها) ، وتبينوا الخطرَ الداهِمَ الذى جَاءَ يَتَهَدَّدُهُمْ ، إذا ما تَمَّتْ هذه « اليَقْظَةُ » ، واشتدَّ عُوْدُهَا ، واستقامتْ خُطواتُها على الطريقِ اللاحِظِ . وببديهة العقلِ ، لم يكن للمسيحية الشمالية يومئذٍ خيارٌ ، طريقٌ واحدٌ لا غيرٌ ، هو العملُ السَّريعُ الحَكْمُ ، واهتِبالُ القَلْبَةِ المحيطة بهذه « اليَقْظَةُ » الوليدة ، كما حَدَّثَتْكَ آنفاً ، ومعاجلَتُها فى مَهْدِهَا قبل أن يَتَمَّ تمامُها ويستفحل أمرُها ، وتصبح قُوَّةً قادِرَةً على الصِّراعِ والحركة والانتشارِ ، فإنَّ تَمَّ ذلك ، فما هو إِلَّا أن تعودَ الحربُ بين الشمالِ والجنوبِ جَدْعَةً ، وعندئذٍ لا يَضْمَنُ أَحَدٌ مَعْبَةَ الصِّراعِ المشتعلِ بين سِلَاحِيْنِ متكافئِيْنِ ، وثقافِيْنِ مُتكامِلِيْنِ . لا يَضْمَنُ أَحَدٌ لِأَيِّ الْفَتْنِيْنِ تكونُ الدُّوْلَةُ والغَلْبَةُ والسِّيَادَةُ = ومرةً أُخرى أقول

لك : لا تنظر الآن إلى الفرق الهائل الكائن اليوم بين الشمال المسيحي والجنوب الإسلامي ، فإنك إن فعلت ضللت عن الحقيقة ، والحقيقة يومئذ أن الفرق بيننا وبينهم كان خطوة واحدة تُستدرك باليقظة وبالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر . ولعلهم « الاستشراق » يومئذ بهذه الحقيقة ، كان فرغهم الأكبر . لا تنس هذا أبداً ، وكُنْ على حذرٍ من الضلال ، ومن التضليل والتغريب الذي تعجُّ به اليوم حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، وألسنتها الثائرة المتشدقة بأوهام « الأصالة والمعاصرة » و « القديم والجديد » و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزلية : « قضية موقفنا من الغرب » ! ياله من عارٍ فاضح ، وياله من عبثٍ رزين مُتعاقل ! ما علينا ؟

• « الاستشراق » كما رأيت قبل هو عينُ « الاستعمار » التي بها يُنصِرُ ويحدِّق ، ويذه التي بها يُحسُّ ويبطش ، ورجله التي بها يمشى ويتوغَّل ، وعقله الذي به يفكر ويستبين ، ولولاه لظلَّ في عميائه يتخبَّط . ومن جهل هذا فهو ببدائه العقول ومُسلِّماتها أجهل . فلما فرغ « الاستشراق » فرغت معه كلُّ المسيحية الشمالية ودولها التي كانت أساطيلها تطوق دار الإسلام من أطرافها البعيدة ، وتتوغَّل بسيطرتها على سواحلها ، متحسِّسةً طريقها إلى قلب هذه الدار المترامية الأطراف ، بالدهاء وبالمكر وبالخدعة ، وبالتنمر أحياناً حين يتطلب الأمر التنمر والترويع .

كانت دُول أوربة كُلُّها في صراعٍ مستميتٍ فيما بينها على نهش أطراف دار الإسلام ، واستنزاف ثرواتها وكنوزها وخيراتها بشرافةٍ لا تشبع . وكان أكبر الصراع المتوحش على الطرف البعيد في الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام في دار الخلافة (تركية) أن تصنع لإنفاذها شيئاً ذا بالٍ ، بل هي يومئذ مشغولة أيضاً بالحفاظ على وجودها وهيبتها لا أكثر . كان أكبر دولتين يومئذ : إنجلترا وفرنسا ، وكان السبق لإنجلترا ،

فأنشأت ما يسمونه « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، وهو أول جهازٍ استعماريٍّ قوٍّ وذلك في سنة (١٦٠٠ - ١٨٥٨ م / ١٠٠٩ - ١٢٧٥ هـ) ، وتبعتها فرنسا فأنشأت جهازها الاستعماري باسم « شركة الهند الشرقية الفرنسية » (١٦٦٤ - ١٧٦٩ م / ١٠٧٥ - ١١٨٣ هـ) ، ولا يغرك لفظ « شركة » ، فإنه في الحقيقة جيشٌ غازٍ مسلّحٌ ، مهمته النهبُ والسلبُ وقطعُ الطريق ، وتخويفُ الضعفاء الذي لا يملكون عن أنفسهم دَفْعاً . بدأ الصراعُ بين « الشركتين » في الهند = أي « اللصين » = صراعاً مستحراً مستميتاً ، وظلَّ محتدماً حتى قضت « الشركة البريطانية » على « الشركة الفرنسية » قضاءً مبرماً ، على يد القائد البريطاني المحنك « روبرت كلايف » (١٧٢٥ - ١٧٧٤ م / ١١٣٨ - ١١٨٨ هـ) في معركة فاصلة سنة ١٧٥٧ م / ١١٧١ هـ) وطردتها من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فخرجت هي والأسبان وغيرهم من حلبة الصراع في الهند داميةً وجوهم وأكبأدهم ، واستأثرت إنجلترا وحدها بالصيّد الغزير .

ففي ذلك الوقت جاءهم النذير ، نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْهِم الذي تهددهم به « يقظة » دار الإسلام بقيام محمد بن عبد الوهاب في جزيرة العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، وظهور الجبتي الكبير (١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) في مصر هو الزيّدي ومن قبله البغدادي (انظر ص : ٨١ ، ٨٢) . كان نذير « الاستشراق » مروّعاً وحاسماً . أمّا إنجلترا صاحبة « الشركة الهندية الشرقية البريطانية » فأسرَع مُستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، وبالذّهاء والمكر والدسائس جاءت في زيّ الناصر والمعين لتدسّس إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » = يقظة تنقية « الدّين » مما تراكم عليه من البدع المفسدة لعقيدة التوحيد = لتتخذ بذلك عندها يداً ، وهذه اليد تسيطر عليها وتحتويها ، وأبعدت إنجلترا الرحلة من ناحية أخرى ، تولّب عليها من حولها لتطوّقها تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . وهذا هو أسلوب بريطانيا حيث حلت من الأرض .

وأما فرنسا التي عادت من الهند تلغق جراح هزائمها ، فكان وقع النذير مختلف الأثر ، مختلف الأسلوب ، في قصة طويلة من تنبّه « الاستشراق » لما يجرى في دار الإسلام . فإذا كانت إنجلترا قد ظفرت بنصيب الأسد في الهند ، فإن لفرنسا لتصيباً قريباً تُعدّ العُدّة للظفر به ، لا يفصل بينها وبينه إلا بحر ضيق ، ممكن أن يكون لها عليه السلطان الأعظم . ومن قبل ظلت تدبّر الأمر زمناً طويلاً لتظفر بهذا النصيب في مصر وفي الجزائر ، ومعنى ذلك أنها عادت مرة أخرى تفكر في اختراق دار الإسلام ، الأمر الذي كان مستعصياً نحو عشرة قرون أو أكثر . وكان نذير « الاستشراق » يومئذ يحذر المسيحية الشمالية من هذه « اليقظة » المخوفة العواقب ، يقظة « اللغة » على يد الشيخين الكبيرين البغدادى والزبيدى وتلاميذهما ، ويقظة « علوم الحضارة » على يد الشيخ الجبّتي الكبير وتلاميذه . « يقظة » في ديار تضمّ أقدم بيتين من بيوت العلم على ظهر الأرض ، عاشا جميعاً متواصلين اثنا عشر قرناً مؤثلاً للعلم والعلماء ، هما « الجامع العتيق » بالفسطاط (جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه) و « الجامع الأزهر » بالقاهرة ، وهما اسمان يترددان في أرجاء دار الإسلام من المشرق إلى المغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . فاليقظة التي تأتي من قبلهما سوف تؤدّي إلى يقظة دار الإسلام كلها ، بما فيها اليقظة المتفجرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب . فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟

وقيض الله لفرنسا قائداً أوربياً محنكاً مظفراً شديد البأس ، خواصاً لغمرات الموت ، ضرسته الحروب في أوربة حتى صار اسمه مثيراً للرعب في القلوب بأنه قائد لا يقهر ، هو الصليبيّ المكيافليّ المغامر المفتون الفاجر : « نابليون » ، (١٧٦٩ - ١٨٢١ م / ١١٨٣ - ١٢٣٧ هـ) ، فلما فرغ من حروبه في أوربة منصوراً نصرّاً مؤزراً ، أصاح سمعه لنذير « الاستشراق » ، ولنصحه وإرشاده ، فقدّر أن الحين قدحان

ليكونَ أوَّلَ قائدٍ أوربيٍّ استطاعَ بقوَّته التي لا تُقهر ، أن يَحترقَ قلبَ دار الإسلام من الشمال ، وأن يُداهم « اليَقْظَة » التي أَرَقَّتْ مِنّام « الاستشراق » ، وأن يبطشَ بها في عُقر دارها بَطْشَةً جَبَّارٍ عاتٍ لا يُتقى على شيءٍ ، وفوق ذلك كُلِّه : أن يُردَّ لفرنسا هيبتها التي ضاعت يوم طردها بريطانيا طرداً مخزياً من دار الإسلام في الهند القصية البعيدة ، وبذلك تنفردُ فرنسا وحدها بالجمدِ السنِّي كُلِّه ، وتكلِّلها المسيحية الشمالية عندئذ بأكاليل الغار .

وفي أوَّلِ يولييه سنة ١٧٩٨ م / ١٧ من المحرم سنة ١٢١٣ هـ هَوَى نابليون هُوَيَّ العُقَاب على مَهْد « اليَقْظَة » في الديار المصرية ، هَوَى على الإسكندرية فجأةً بجحافلِه وأساطيلِه مزوَّدةً بكلِّ أداةٍ للحرب جديدةٍ مما تمخَّض عنه علم أوربة يومئذٍ ، مصطحباً معه عشرات من صغارِ « المستشرقين » وكبارهم ، وطائفةً من العلماء في كُلِّ عِلْمٍ وفنٍّ ، معهم كُلُّ غريبةٍ مما كشف عنه العلم المُستحدث . فاستباح الإسكندرية ودمر ما دمر ، ثم طوى الأرض طياً مكتسحاً في طريقه شمال مصر ، حتى دخل القاهرة في العاشر من صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٤ يولييه ١٧٩٨ م) . ودَعِرَ الخَلْقُ ، فبدأ يُداهنُ الناس ، وحاول أن يستميل « المشايخ » في رجال الأزهر ، كي يستجيبوا لِمَحالِه ومخاتلته ، فلمَّا رأى امتناعَهُم على تطاول الأيام ، عَجَلَ فأطلق جنوده الغزاة ، ليطفئوا ما استقرَّ في قلوبهم من نار الأحقاد المتوارثة على دار الإسلام ، وأترك الجبرتي المؤرخ يصف لك ما حدث في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ ، (٢٠ أكتوبر سنة ١٧٩٨) ، قال الجبرتي ، (تاريخ الجبرتي ٣ : ٢٦) بلفظه :

« بعد هَجْعة من الليل ، دخل الإفرنج المدينة كالسَّيْل ، ومروا في الأزقة والشوارع ، لا يجدون لهم ممانع ، كأنهم الشياطين أو جُنْد إبليس ، وهدموا ما وجدوه من المتاريس ... ثم دخلوا إلى « الجامع الأزهر » وهم راكبون الخيول ، وبينهم المُشاة

كالوعول ، وتفوقوا (أى : قاءوا) بصحنه ومقصورته ، وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأزوقة والحارات ، وكسروا القناديل والسهارات ، وهشموا خزائن الطلبة ، والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع ، والأواني والقصاصع ، والودائع والمخبآت ، بالدواليب والخزانات ، ودشّوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وأحدثوا فيه تغوطوا ، وبألوا وتمخّطوا ، وشربوا الشراب وكسروا أوانيها ، وألقوها بصحنه ونواحيه ، وكلّ مَنْ صادفوه به عرّوه ، ومن ثيابه أخرجوه . (١)

وكان ما كان بعد ذلك وقبل ذلك ، من تهديم القصور والمساجد وتخريب الديار وسرقتها ونهبها ، بحقدٍ وشراسة . وبالطبع ، وظاهرٌ جدًّا ، أن « الحملة الفرنسية » بقيادة نابليون ، ومعها مستشرقوها وعلماءها ، لم يتكبّدوا المشقة فما فوقها بقطع البحار ، والبرارى والقفار ، إلا ليخرجوا هذه الأمة من الظلمات إلى النور ، أى من عصر الجهالة المظلمة إلى عصر العلم المضئ ، أى لنبدأ « عصر النهضة الحديثة » فى بلادنا نحن ، أو كما يقال !! هكذا ينبغى أن نقول لأبنائنا فى المدارس والجامعات !! ألم أقل لك أنّها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والحسرات والآهات ؟

...

• « قصة مقحمة » ، وأنا أصحّح تجارب هذه الرسالة لطبعها ، وقفتُ على فصل مهم جدًّا ، كتبه الدكتور زكى نجيب محمود فى الأهرام ، (الاثنين ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٥) ، فرأيتُ أن أقحمها بين الكلامين ، لكى تصحّح بها الأخطاء التى وقعت أنا فيها فى سياق الحديث عن « الحملة الفرنسية » بتسرّعى وجِدّتى يقول الدكتور زكى :

(١) للأستاذ محمد جلال كشك كتاب سماه : « ودخلت الخيل الأزهر » ، فقرأه لأنه مفيد .

« جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون ، ووصلت إلى شواطئ الإسكندرية سنة ١٧٩٨ ، أى قُبَيْلَ فاتحة القرن التاسع عشر بستين ، وكان مع الحملة جماعة من العلماء الفرنسيين في تخصصاتٍ علمية مختلفة ، فكان ممّا صنعه أولئك العلماء ، أن استدعوا كبار علماء الأزهر الشريف ، جماعة بعد جماعة ، ليطلعوهم على عجائب العلوم الجديدة . من ذلك ، مثلاً ، أن يوقفوهم صفّاً ، مشبكي الأيدي جاراً مع جاره ، ثم يمسون الواقف بسلكٍ مكهرب ، فتسرى رعدة الكهرباء في جميعهم ، وأما هم فيأخذهم العجب ، وأما العلماء الفرنسيون فيأخذهم الضحك . ولقد حدث يوماً أن اغتاز من تلك الألاعيب الصيبانية أحد الشيوخ ، فقال لهم ما معناه : هل في علمكم الجديد ، ما يجعل إنساناً موجوداً هنا موجوداً في بلاد الغرب في وقتٍ واحد ؟ فأجابوا بقولهم : إنه ليس في علومه ذلك ، لأنه محال ، فردّ هو قائلاً : لكن ذلك ممكن في علومنا الروحانية .

« وإني لأنظرُ إلى تلك اللحظة التي قال فيها الشيخ ذلك الذي قاله للعلماء الفرنسيين على سبيل التحدّي ، أنظر إليها على أنها لحظة البدء في أحد طريقتي اتخذناهما من ذلك الحين وإلى هذه الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمات . فطريقٌ منها اختاره الرافضون للغرب ، أى الرافضون للعصر وما أنتجه من علوم ترتّب عليها ما ترتّب من حضارة جديدة = وطريق آخر اختاره من أراد ممّا ألاّ تُقفل أمام العصر الجديد أبوابنا ونوافذنا ، وكانت نقطة البدء في الطريق الثاني هي رفاعة رافع الطهطاوى . »

انتهى ما كتبه الدكتور زكى ، وأنا لا أستطيع أن أعلّق عليه إلاّ بالتسليم الخاشع لبراعته في تأريخ الحملة الفرنسية والمشايخ المصرية وعلماء الأزهر الشريف ، وإنما أقحمته لك هنا متبرّعاً ، لتستفيد عقلاً جديداً لا يملك مثلى أن يُفيدك إيّاه . ونعوذ إلى ما كنّا فيه

(ثم اقرأ ما سيأتى في الفقرة رقم : ٢٢) .

• فاقراً الآن معنى تاريخك بعين عربيّة بصيرة لا تغفل ، لا بعين أوروبية تخالطها نخوة وطنية ، كما فعل أستاذنا عبد الرحمن الرافعي ، غفر الله له ذنوبه ، في كتابه « تاريخ الحركة القوميّة ، وتطوّر نظام الحكم في مصر » .

قضّى نابليون بحملته الصليبية التي غزت مصر ، على أكبر قوة مقاتلة في دار الإسلام بعد قوّة دار الخلافة . قضى على بأس المماليك المصرية وشتتهم ومزقهم كلّ ممزق ، وتتبعهم ينهب القرى في الأقاليم ويبيد من أهلها ما يبيد . وبقي جمهور الأمة في القاهرة أعزل بلا سلاح يدفع به عن نفسه ، وبلا حكومة تدير شؤونه . واضطرب أمر الناس ومآج ، فأنشأ نابليون حكومة جديدة سماها « الديوان » ، وهو مهزلة من المهازل السخيفة ، ولكنّ حياتنا الأدبية الفاسدة تعدّ « الديوان » نظاماً جديداً جاء يصلح فساد نظام المماليك المصرية !! تعدّه كذلك ، لأنها تنظر بعين أوروبية تخالطها وطنيّة غافلة . وكلّ ما في الأمر أن نابليون وضع هذا النظام الهازل الماكر ، لأنه كان قد قرّر في نفسه أن فرنسا ينبغي أن تبقى في مصر إلى الأبد . ومعنى هذا : أن يكون مصير مصر ، هو مصير « الجزائر » التي اقتحمها الفرنسيون بعد ذلك سنة ١٨٣٠ م (١٢٤٦) ، وفعلوا بأهلها ما فعلوا ، ولا أظنك تجهل ما فعلوا بدار الإسلام في الجزائر .

بقي هذا القائد المفتون نحو سبعة أشهر في القاهرة يخرب ويفعل الأفاعيل ، وفي فبراير سنة ١٧٩٩ م (رمضان ١٢١٣ هـ) خرج منها ليدوّخ سورية بقوّته التي لا تُقهر ، وظلّ يقاتل بها نحو ثلاثة أشهر ، وحاصر « عكا » ، ولكنّ المقاومة التي لقيها هناك ، اضطرتّه إلى رفع الحصار عنها في ٣٠ مايو سنة ١٧٩٩ م (ذى الحجة ١٢١٣ هـ) بعد أن فقد آلافاً من جيشه وعشرات من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه ، وعلى رأسهم المستشرق الداهية « فانتور » خليله ومستشاره في شؤون دار الإسلام . كانت

هزيمته في « عكا » هزيمة منكرة ، فآبَ إلى القاهرة وفي قلبه الخوف من العواقب التي تَفْجُوهُ بها دار الإسلام ، واستشف ببصيرته وذكائه أن أمر الحملة قد انتهى إلى غير رجعة ، وأحسَّ بما تغلَّى به القاهرة غلياناً سوف يُفضي إلى الانفجار ، فانتهر فرصة اضطراب الأمور في بلاده فرنسا ، واتَّخذ الليل جَمَلاً ، وكرَّر راجعاً إلى فرنسا في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ ، (١٨ ربيع الأول ١٢١٤ هـ) ، وترك الأمر كُلَّهُ لخليفته « كليبر » ليعاني منه ما يُعاني ، وقد كنَّه عنه عزمته على السَّفر ، ثم راوغه حتَّى رحل قبل أن يلقاه .

• وما كاد « كليبر » يستقرَّ على عرش خلافة نابليون أشهراً قلائل ، حتى أفاقت القاهرة من ذُهوُلها واستعدَّت لمقاومة الغزاة ، وانفجرت الثورة فيها شهراً كاملاً ، (٢٠ مارس - ٢١ إبريل ١٨٠٠ م / ٢٣ شوال - ٢٤ ذى القعدة ١٢١٤ هـ) وارتكب « كليبر » في سبيل إخمادها أفعطع ما يرتكبه قاطع طريق مجنون من الفظائع والجرائم ، وضرب القاهرة بمدافعها فخرَّب الدُّور والقصور والمساجد والحمامات والزوايا والقباب والأسوار ، « حتى بقي ذلك كُلُّه خراباً متصلاً » ، كما يقول الجبرتي ، مما لا تزال آثاره شاهدةً باقيةً إلى يوم الناس هذا ، لمن ينظر بعين عربية ، لا بعين أوربية تخالطها وطنيَّة ! وأُخمدت الثورة ، وظنَّ « كليبر » أن مصر كُلُّها قد دانت له بالطاعة ، ولكنه لم يهنأ بظنِّه هذا شهرين حتى انقضَّ عليه عُقابُ كاسير ، هو المجاهد « سليمان الحلبي » ، فعاجله بطعنة خنجرٍ في قلبه فخرَّ وهو يصيحُ : « إلى أيُّها الحراس » ، « وخرَّ صريعاً لليديْن وللقمم » ، وذلك في يوم السبت (٢١ من المحرم ١٢١٥ هـ / ١٤ يونيه ١٨٠٠ م) . ما كان أذكى نابليون ! لقد توقَّع هذا المصير ، فتجأ بجلده هارباً ، وهو يُنشد ما قاله بشار بن بُرد :

إِذَا أَنْكَرْتَنِي بِلَدَّةٍ أَوْ نَكَّرْتَهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَى سَوَادٍ ^(١)

(١) « أنكرته ، ونكَّرتُه » ، كرهته وأوجست منه خيفة ، و « البازي » ، ضربٌ من الصقور الجارحة ، وهو يخرجُ من وكره بغلس قبيل الفجر . و « على سواد » يعني خرج فجراً يُلْفَه سواد الليل . وكذلك فعل نابليون .

• ثم خلف « كليبر » على عرش نابليون في مصر ، « مينو » القائد المكيافلي الشقي الكذاب المنافق الأرعن في يونيه ١٨٠٠ م (المحرم ١٢١٥ هـ) . كان حاكماً لرشيد من قبل نابليون ، فأصاخ سمعهُ لسخفاء « الاستشراق » ومخادعهم الكبار ، فقرر ، أو قرروا له ، أن يتقرب إلى شعوب دار الإسلام ، بإعلان إسلامه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأنه « أحب الإسلام وأهله ورغب فيهما ، تاركاً لدين النصرانية والأديان الرديئة » ، ^(١) ثم ظن أكذب الظن أنه من أسرة فرنسية عريقة ، فهو خليف بأن يصاهر أسرة من أهل رشيد ، شريفة النسب ، من بيت النبوة ، فأجمع أمره على محاولة التقدم إلى الشيخ الجارم العريق النسب ، أن يزوجه إحدى آبنتيه ، فلم يكد الخبر ينمى إلى الشيخ حتى أسرع مُبادراً فزوجهما رجلين من المسلمين قبل أن يتقدم إليه هذا الخبيث العريق الحباثة ، ولكن وقع في حبال « مينو » السيد محمد البواب أحد أعيان رشيد ، ولا ندرى كيف كان ذلك ، ^(٢) فزوجه ابنته المطلقة « زبيدة » في الخامس والعشرين من شهر رمضان ١٢١٣ هـ ، (٢ مارس ١٧٩٩ م) . وطير « مينو » الخبر يومئذ إلى نابليون بعد رحيله إلى فرنسا ، فما أنكر ذلك عليه . ولكن انظر يا سيدى إلى رجل عربى مسلم ، في حياتنا هذه الأدبية الفاسدة ، يكون كُلُّ تعليقه ، بعد أن روى خبر زواج هذا الخبيث بهدوء وأناة فقال : « وكانت حادثة زواج مينو ، فريدة في بابها ، لم يسبقهُ إليها أحد من قواد الجيش الفرنسى ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » . يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة في التعبير ، يعبر العربى المسلم ! ويقول : « تهكم زملائه » ؟ . ^(٣) ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات ، والآهات والحسرات ؟

(١) ما بين القوسين هو نص ما جاء في وثيقة زواجه .

(٢) ولكن من الممكن أن ندرى ، بل نستيقن ، إذا نحن أحسنا معرفة ما فعله جهاز الاستشراق فيما قبل

مجيء الحملة ، كما سأشير إليه في قضية المشايخ والديوان في الفقرة الآتية رقم : (٢٢) .

(٣) هو نص كلام الرافعى في « تاريخ الحركة القومية » ٢ : ٢١٤ .

وبقى « مينو » فى إمارته ، يلاقى الأمرين ، وينزل بالناس المصائب والبلايا ، ويعيثُ هو وبقايا الحملة الفرنسية فى الأرض فساداً وتخريباً ، حتّى انتهى جلاء هذه الحملة الجاهلة التى جاء بها الفتى الصليبيّ المُحترق « نابليون » ليحترق دار الإسلام فى أعظم معقل من معاقلها ، حيث « الجامع العتيق » بالفسطاط و « الأزهر الشريف » بالقاهرة ، وليدمّر « البيضة » التى كانت فيها تدميراً لا يُبقى ولا يذر ، ثُمَّ كان الجلاء الأخير من الإسكندرية ، يوم الاثنين ٢١ ربيع الآخر ١٢١٦ هـ / ٣١ أغسطس ١٨٠١ م ، وخرجت فرنسا من مصر على عَجَلٍ ، ولكن ...

...

٢١ - ولكن ، هل يلىق بى أن أكف ، وأدعك مُصغيّاً إلى تترقب بقية الحكاية ؟

... رحلت فلؤل جيش الفتى السفّاح المغرور « نابليون » ، وجَلَّتْ عن بلادٍ واسعةٍ عريضةٍ تركتها بَلَقَعاً تصفر فيه الرّيح ، وأنكشحت عن عاصمةٍ عتيقةٍ تركتها خراباً . (١) كان خراباً شاملاً ، وتدميراً لمدينة زاهرةٍ من أجمل مُدن العالم يومئذٍ ، بعمارتها وفنونها ، وبركها ومنتزهاتها ، أقدم على تدميرها تدميراً كاملاً بَرَبَرِيٍّ جاهلٍ مُستخفٍ فى زِيٍّ متحضرٍ ! ولكن صار هذا التدمير ، فى عَيْنِ حياتنا الأدبية الفاسدة ، هو رسول الحضارة الذى جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر الثور والتّنوير !! لا تضحك ولا تبك ، ولكن أطرق إطرافه الخزي والمهانة والعار . وكيف لا تطرق إطرافه الخزي إذا انكشف لك الحجاب عن نية هذا المكيافلى الخبيث . كان

(١) لا تحسب أن « انكشع » عامية ، بل هى عربية صحيحة . « أنكشع القوم » ، ذهبوا وتفرقوا .

هدف هذا البربري المتحضر (!!) أن يخرب عاصمة من أكبر عواصم دار الإسلام وأجملها ، ويتركها تاريخاً يُروى في وثائق « علماء الحملة الفرنسية » ، ^(١) أى يتركها أثراً بعد عين ، حتى إذا تمكّن في الأرض هو وجنسُه ، أنشأ على أنقاضها البائدة مدينة فرنسيّة جديدة ، تعبّر تعبيراً فصيحاً عن العبقرية الفرنسية ، والفنّ الفرنسى ، والجمال الفرنسى ، والرقّة الفرنسية !! يعمرها يومئذ شعب فرنسى أصيل كريم المحتد ، يخدمه شعب عربى مستأنس مروض ترويضاً حسناً على إلف العادات الفرنسية الشريفة ، والتقاليد الفرنسية النبيلة ، والفجور الفرنسى الخالد كما سأحدثك عنه فيما بعد ، وليس الذى حدث فى دار الإسلام فى « الجزائر » عنك ببعيد .

ولكنهم لم يرحلوا عن القاهرة المخربة ، وعن الشعب الذى استنزفوا ثروته بالضرائب والإتاوات مدة ثلاث سنوات ، حتى سرق « المستشرقون » المصاحبون للحملة الفرنسية ، و « مستشرقون » آخرون من كل جنس ، سرقوا كل نفيس من الكتب ، وكانت القاهرة يومئذ من أغنى بلاد العالم بالكتب . ودليل السرقة قائم بين أعيننا إلى هذا اليوم ، يصيحُ شاهداً على نفسه بالسُّطو على ذخائرنا التى يمتنون علينا بعد ذلك ، فى حياتنا هذه الأدبية الفاسدة : أنهم حفظوها لنا ، ونشروا لنا نفائسها ، (اقرأ ما ذكرته عن هذا النشر فيما سلف ص : ٥٤ ، ٥٥ ، والتعليق عليه) . دليل السرقة قائم فى جميع مكتبات أوربة ، صغیرها وكبيرها ، فى فرنسا وإنجلترا وهولندة وروسية وغيرها من البلدان ، وفى الأديرة والكنائس ، وفى جميع أرجاء العالم المتحضر !! وكان همّهم الأكبر يومئذ هو السطو على كتب « علوم الحضارة » أولاً ، ثم على كتب « التاريخ » ، ثم على كتب « الآداب » كلّها بلا تمييز . ورحم الله

(١) هو كتاب « علماء الحملة الفرنسية » المعروف باسم « وصف مصر » وقد سجلوا فيه كل صغيرة وكبيرة فى مصر ، لكى يصبح وثيقة تاريخية ، يتلذذون بها حين يقرأونها .

الشيخ الجبرتي المؤرخ ، فإنه أرخ لدمار القاهرة ، ولكنه بغفلته لم يؤرخ لنا تاريخ هذا السطو على كُتب المساجد والمدارس وبيوت العلماء والأمراء والممالك المصرية إلا في مواضع متفرقة قليلة بلا بيان واضح ، وإنما هي الحسرة لا غير . من ذلك أنه ذكر في مقدمة كتابه (تاريخ الجبرتي ١ : ٦) بعد أن عدّد أسماء كتب التاريخ التي كانت في القاهرة ، ثم قال :

« قلت : وهذه أسماء من غير مسميات ، فإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشّنة بقيت في بعض خزائن الأوقاف بالمدارس ، مما تداولته أيدي الصحّافين ، وباعها القومّة والمباشرون ، ونقلت إلى بلاد المغرب والسودان ، ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم » ، انتبه لهذا النص فهو مهم .

ثم قال أيضاً (تاريخ الجبرتي ٣ : ١٨٣) ، وهو يذكر قصة شروط الصلح للجلاء عن القاهرة ، ومن الشروط : أن الفرنسيين : « يستصحبون معهم ما يحتاجونه من أوراقهم وكتبهم ، ولو التي شروها من مصر » ، هكذا في الشرط ، والصحيح : « ولو التي سرّقوها من مصر » . ورحم الله الشيخ الجبرتي ما كان أشدّ غفلته عن أمور كثيرة لم يذكرها واضحة ، بما فيها مكتبة أبيه « الجبرتي الكبير » ، ماذا فعلوا بها ؟ وذلك لأنه كان مشغولاً عنها بتدبير أمر نفسه في مَعْمعة هذا التدمير الشامل للقاهرة وبيوتها وقصورها ومساجدها وعمائرهما . و « لعل له عُذراً وأنت تلوم » .

• لم يكن هذا السطو الجائع على كُتب دار الإسلام في القاهرة ، والذي تولّى كِبَرُهُ « مستشرقو » الحملة الفرنسية وأعوانهم من اليهود ومستشرق سائر بلاد المسيحية الشمالية = لم يكن هذا سطواً لجرّد رغبة « الاستشراق » في أداء عمله ، من استمداد لثقافة أممه من علم دار الإسلام المسطور في الكتب ، (اقرأ ما سلف : ٤٧ - ٤٩ ، ٥٤ -

٥٦ ، ولشدة حاجة يقطتهم ونهضتهم يومئذ إلى هذا العلم ، لا ، بل كانت الغاية الأولى المقدمة على كُلِّ غايةٍ ، هي تجريد دار الإسلام في القاهرة من أسباب « اليقظة » التي جاءت الحملة الفرنسية لوأدها في مَهْدِها ، وللقضاء عليها قبل أن تتفاقم . ووفرة هذه الكتب النفيسة في القاهرة يومئذ ، هي التي يَسَّرَت الطريقَ إلى هذه « اليقظة » التي حمل عبءَ البدءِ بها « الجبرتي الكبير » وتلامذته ، و « البغدادى » و « الزبيدى » وتلامذتهما ، فكان لا بُدَّ للاستشراق وفلول الحملة الفرنسية من إتمام ما جاءت الحملة من أجله ، فهو الهدف الأكبر : وأد « اليقظة » في عُقر دارها . وبلا شك كانت سنوات الحملة الثلاث ، وما أصاب القاهرة فيها من التدمير الشنيع وسفح الدماء ، وما عمَّ أحياءها من الثَّوَرَاتِ والفتن الكبار والصغار ، ثم قمعها بفجور وشراسة ، وتحضُّر أيضاً ، = كان ذلك كله حَدَثاً متمادياً كافياً أدى إلى تشتيت شمل تلامذة « الجبرتي » و « البغدادى » و « الزبيدى » وتفرُّقهم في الأرض ، وضياعهم في الهرج والمرج . بل أنا لا أستبعد عن هؤلاء السفاحين العتاة ، أن يكون ذُهاة « الاستشراق » على علمٍ بأعيانهم وأسمائهم ، منذ كان « المستشرقون » يترددون على البيت العامر بالصناديقية ، (حارة قرب الجامع الأزهر) ليقروا على صاحبه « الجبرتي الكبير » ، كما حدثتكَ آنفاً ، (اقرأ ص: ٨٣) = لا أستبعد أن يكون وَكُرُ « الاستشراق » قد أغرى سُفهاء السفاحين بتعمد قتل بعضهم غيلةً أو جَهرةً ، لا أستبعد ، والله أعلمُ أى ذلك كان . فكان السبب الأكبر الدافع إلى هذا السطو الجائع ، هو أن يحولوا بين « بقايا البقايا » من تلامذة أئمة « اليقظة » الثلاثة الكبار ، وبين أسباب « اليقظة » ، وهي الكتب النفيسة ، وأن يتركوهم في حربة القاهرة حَسْرَى حيارى حيرة « الجبرتي » الصغير المؤرخ ، حين شرع في تأليف تاريخه ، فافتقد كتب « التاريخ » التي « ذهبت بقايا بقاياها في الفتن والحروب » ، وأخذ الفرنسيين ما وجدوه إلى بلادهم ، أو كما قال . حسرةً قاتلةً ، ولكن حياتنا

الأدبية ، أو نهضتنا الحديثة ، كما يسمونها ، لا تلقى بالاً إلى حسرة مسكين بائس حائر كالجبرتى الصغير !

• وُئِدَتْ « اليقظة » أو كادت ، وخُرِبَتْ ديارها أو كادت ، واستُوصِلَتْ شَافَةُ أبنائها أو كادت ، واقتُلِعَتْ أسبابها بالسَّطو أو كادت ، والحمد لله على نَعْماء « الحملة الفرنسية » التى كان سَفَاحُهَا المُبِيرُ « المتحضر ! » ينوى أن ينشئ لبقايا السَّيْفِ والتدمير من أبناء القاهرة العتيقة المهْدَمَةِ « قاهرةً جديدةً » ، يستمتعون فيها بجمالها وفنونها ، ومسارحها وملاهيها ، وقصورها ومتنزهاتها ، ويتبخترون فى شوارعها خَدَمًا فارهين للِسَادَةِ الأحرارِ أبناءِ « الحرية والإخاء والمساواة » !

لقد شغلتنى قصَّةُ وَادِ « اليقظة » وقصَّةُ الخرابِ والتدمير ، وقصة السَّطوِ الدنى = شغلتنى عن ندالة هذا السَّفَاحِ الصليبيِّ المُبِيرِ ، وما كان من بشاعة سفحه الدَّمَاءِ فى القاهرة ، وأوامره إلى قَوَادِهِ فى الأقاليم أن يُوغَلَبُوا فى سَفَكِ دماءِ « التُّركِ » ، أى المُسلمين المصريين ، وأن يتشَبَّهوا به ، إذ يقتل فى القاهرة وحدها كُلَّ يومٍ خمسة أو ستة ، ويأمر أن يُطَافَ برؤوسهم فى شوارع القاهرة ، ويقول : « هذه هى الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجَّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبةً من السلاح » ، ^(١) فى قصة طويلة فظيعة ليس لها شبيهة ، هى أفضع من بلايا « جنكيزخان » .

... وشغلتنى أيضاً عن « جهاز الاستشراق » ، وهو الجهازُ المستكنُّ فى أحشاء « جهاز الاستعمار » و « جهاز التبشير » ، يَرَبُّهُما ويهديهما الطريق ، (« يربأ » ، يَرْقُبُ من

(١) اقرأ أخبار ذلك كله فى كتاب الرافعى : « تاريخ الحركة القومية » ١ : ٢٨٣ وما بعدها . والذى قرأت

هنا من نص بعض رسائل نابليون إلى قَوَادِهِ فى يولييه سنة ١٧٩٨ .

مكان عال ويتطَّلَع) ، ولولاه لاستبهمت عليهما المسالك وهامًا في أودية الضلال . كان هذا الجهازُ الخبيث المتخفَّى في عباءة العلم والبحث ، قد اكتسب خبرةً واسعةً جدًّا بدار الإسلام وأهلها وسكانها ، منذ انساح في قلب دار الإسلام في تركية وهو يدبُّ مستخفياً في أرجائها ، ثم في الشام ومصر وجوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (اقرأ ما سلف : ٥٣) = ومنذ مُقامه في دار الإسلام في الهند أكثر من مئة وخمسين سنة ، في ظلَّ الشركتين الكبيرتين : « شركة الهند الشرقية البريطانية » ، و « شركة الهند الشرقية الفرنسية » ، وغيرهما من « شركات » دول المسيحية الشمالية ، (اقرأ ما سلف : ٨٧ ، ٨٨) . كانت خبرةً متغلغلةً بجماهير الأمة مجتمعةً ، ثم بطوائفها المختلفة ، ثم بأفراد رجالٍ بأعيانهم واحداً واحداً ، معروف الاسم والمكان والحركة . كانت خبرةً بمواطن الضعف والقوة ، وبمكامن الهوى الميال الذي يستجيب ، والإرادة المصممة التي تمتنع عن الاستجابة ، أى كانت خبرةً مدروسةً منظَّمةً واضحة المعالم في ذهن « الاستشراق » . ومع تطاول السنين عليه ، اكتسب لنفسه أعواناً من اليهود وشذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، يستأجرهم لتوسيع رُقعة خبرته تارةً ، ولبتِّ أفكارٍ مدروسة بين جماهير دار الإسلام خاصتها وعامتها ، وللتحكُّم في تصريف أموره وبلوغ غاياته تارةً أخرى = ثم للتمكُّن من إشعال نارِ الفتنة حين يقتضى الأمر إحداثَ فتنٍ تفرِّق شمل الناس وتمزِّقهم وتشغلهم عن الكيد الخفي الذي يُراد بهم . كُلُّ هذا كان يتمُّ في هدوءٍ وصبرٍ وتسُّرٍّ ، ومن وراءِ العفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، وعن حقيقة هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع في كُلِّ زِيٍّ : زِيَّ التاجر ، وزِيَّ السائح ، وزِيَّ الباحث المتقِّب ، وزِيَّ العالم الذي لا يشغله شيءٌ غير العلم ، وزِيَّ المُسلم الذي رضى بالله ربًّا وبالإسلام ديناً !! (اقرأ ما سلف ص : ٥٣) .

فالحملة الصليبية الفرنسية التي استجابت لنذير « الاستشراق » ، كان « الاستشراق » مستكنًا في أحشائها وأحشاء قائدها العظيم « نابليون » ، يرشده « الاستشراق » ويهديه . وهى لم تُقدِّم على اختراق دار الإسلام فى مصر ، إلا وهى مُزوَّدة بأدق التفاصيل عن هذه الأرض وسُكَّانها ، ومدخلها ومخارجها ، ومشايخها وعلمائها ، وعامَّتها وسوقها ، ونسائها ، ورجالها ، وجيشها وشعبها . جاءت ومعها الدَّجالون العُتاة « علماء الحملة الفرنسية » ومستشرقوها وخبرائها وأعوانها من اليهود وشذاذ الآفاق ، وكلُّهم يدُّ واحدة على إحداث انبهارٍ مفاجئٍ يصدمُ وعيَ الشعب خاصَّته وعامَّته صدمةً تذهله عن المكر المَسْتور المُفضي إلى تدمير رُوح المقاومة أو إضعافها إضعافاً يُتيح للغزاة تثبيت أقدامهم فى الأرض والسيطرة عليها سيطرةً كاملةً ، حتى لا تدع للمقاومة طريقاً إلا طريق الاستسلام العاجز للمصير المُظلم ، مصيرٍ مُعتمٍ لا يستفيق الشعب إلا وهو مُرتكسٌ فى ظلماته عاجزاً غير قادرٍ على طلب المخرج من ظلماتها المدهمة ، فى « القاهرة الجديدة » زاهرة زاهية الألوان ، قامت على أنقاض « القاهرة قديمة » مدمِّرة غابت فى قتام الذكريات !!

• كان أوَّل الطريق إلى هذا المصير المُظلم إنشاء « الديوان » ، ^(١) وليس يعينى هنا من أمره شىء إلا حُبُّهُ المدفون فيه ، والحُذْعة التى ينطوى عليها ، فيما تصوَّره « الاستشراق » . وهذا « الديوان » ، أمر بإنشائه نابليون منذ أول يوم دخل فيه القاهرة ، (الثلاثاء ١٠ صفر ١٢١٣ / ٢٤ يولييه ١٧٩٨) ، وذكر فى أمر إنشائه أسماء مشايخ

(١) « الديوان » صورة هزلية « لحكومة دستورية ! » ، كما يتوهم الرافعى ! ، تحكم القاهرة ، وكان لكل مدينة أخرى ديوانها الحاكم ، وتستطيع أن تقرأ هذه المهزلة فى « تاريخ الجبرق » ، أو فى « تاريخ الحركة القومية » للرافعى ، ولكن أقرأها بعين عربية بصيرة ، لا بعين أوربية تخالطها وطنية قومية ، كما فعل الرافعى وغيره .

بأعيانهم يتكوّن منهم « الديوان » . وهذا الذكر المفاجيء وحده دليل على أن الأمر كان مُعدّاً إعداداً كاملاً قبل أن تطأ قدمه أرض مصر ، وأنّ الأسماء قد آخِثِرَتْ بعد تدبير مُحكّم ودراسة قام بها « الاستشراق » وأعوّاه منذ فكر في شنّ الحملة على مصر . وقاعدة اختيارهم : « أن يكونوا من أعيان البلاد الذين امتازوا بمركزهم العلمى وكفائتهم ، وطريقة استقبالهم للفرنسيين » . (١) ومعنى ذلك أنّه يريد أن يُودِع سُلطة الحكومة الظاهرة المموّهة ، في يد فئة ذات هيبة عند الناس ، وأن يكونوا جميعاً ممّن يُمكن أن يستجيبوا بشكلٍ ما استجابةً تدين بالولاء لجيشه الغازى ، ليروّض بهم قوى المقاومة ويخدعها ويفتّ في عضدّها . وهذا شيء لا يُقدّم على مثله بهذه السرعة ، إلا بعد خبرة سابقة بأصحاب هذه الأسماء وبمواطن ضعفهم التى تقعد بهم عن المقاومة ، وتُسوّل لهم أن يُحسِنوا « استقبال الفرنسيين » الذين انتهكوا حرمة ديارهم وأوطانهم . ولا سبيل إلى معرفة ذلك كلّهُ إلّا عن طريق جهازٍ مدربٍ قد طال عهده باختبار النَّاس وتقصى أحوالهم من قريب . وهذا الجهاز هو « جهاز الاستشراق » الذى كان يعرف لغة أهل البلاد ، والذى كان يتجوّل فى الأرض المصرية من قبل ويلبس لأهلها كلّ زيّ ، كما حدثتكَ آنفاً . وكلّ المنشورات التى كان أصدرها هذا المكيفلى ، لُتْلِقَى وتذاع على المصريين منذ أول دخوله أرض مصر ، تدلّ صياغتها على أنّ صاحبها وصاحب مضمونها له خبرة طويلة بألفاظ أهل الإسلام ، وبعقائدهم ومشاعرهم . فبيّن أنّ صاحبها هو « الاستشراق » لا غير ، وهو يظنّ أنه قادرٌ بتمويهه ومكره ومداهنته ، أنّه بهذه الصغائر السخيفة قادرٌ على أن يخدع أمةً كاملةً عن قتال عدوّها الغازى ، فكان ردُّ الأمة على هذا الخداع السخيف والتمويه الساذج بألفاظ أهل الإسلام = ثم على خديعة « الديوان » الفاضحة ،

(١) « تاريخ الحركة القومية » ١ : ١٠٤ .

هو اندلاع الثورات في أقاليم الوجه البحرى والصعيد ، وأكبرها ثورة القاهرة وأحيائها في يوم السبت ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ ، (٢١ أكتوبر ١٧٩٨) ، أى بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض دار الإسلام بحوافله وعُدده ، فارتكب في قمعها من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء أيضاً ، وسَفَح الدماء الغزيرة ما ارتكب ، ولكنه نَذَر وأَوْفَى بنَذره أن يَزِيد ، فَيُضْحَى عند مَشْرِقِ كُلِّ شمس بخمسة أو ستة ، تُقَطَّع رؤوسهم ويُطاف بها في أنحاء القاهرة ، كما أسلفت (ص: ١٠٠: تعليق: ١) . ولا شكّ عندى أن هؤلاء الخمسة أو الستة هُم من طُلاب العلم في الأزهر ، ومن المحرّضين على مقاومة هذا الغازى المنتهك لحرمة دار الإسلام = وأنّ « الاستشراق » هو الذى كان يقدّمهم لهذا الجزّار المُشْمَعِل ، (أى السريع النشيط) ، وأنه كان يتخيّرهم له ، لأنه كان على معرفة سابقة بهم ، وأنهم كانوا من الطلبة النابهين من ورثة « الجبرتيّ الكبير » و « الزبيدي » ، أى أنهم كانوا من طلاب « اليقظة » التى جاءت الحملة الفرنسية قبل كلّ شيء لوأدها في مهدها . وإلا فحدّثنى ما كان معنى اختصاص خمسة أو ستة بالذبح عند مَشْرِقِ كُلِّ شمس ، وهذا هو وجنوده يعيشون فى الأرض ويلبسون المئات من صناديد المقاومة ومعاوير ثورة القاهرة ؟ ورحم الله « الجبرتيّ المؤرخ » ، فإنه سقط عنه فى كتابه أن يقيّد لنا أسماء القتلى ، وصفاتهم ، وأسماء هذه الذبائح الذى كان يُضْحَى بها جزّار القاهرة . « لعلّ له عُذراً وأنتَ تلوم » !

• كان « الاستشراق » كامناً فى أحشاء نابليون . هو الذى يُوجّهه ويلقّنه ويدربّه على أساليب المداهنة التى يظنّ أنها تروّج على أهل دار الإسلام ، وكان رأس الاستشراق فى الحملة الفرنسية هو « فانتور » المستشرق الداهية المحنك المتستّر الخفيّ

الوطء^(١) (انظر ما سلف ص: ٩٣) ، كان خليل نابليون وَجِيهَ الذى لا يفارقه فى الحِلِّ والتَّرْحَالِ ، فهو الذى أَوْحَى إليه ما أَوْحَى ، وأَوْهَمَهُ أَنْ « تدجين » المشايخ الكبار من رجال الأزهر فى « الديوان » = (« التدجين » ، الاستئناس ، من قولهم « داجنٌ » لكل ما يألف البيوت من طائر أو بهيمة مستأنسة) = ضمانٌ كافٍ لكسب ثقة جماهير دار الإسلام فى مصر حتى تستكين له وتخضع ، وظلَّ هذا الوَحَى الجاهل الساذجُ كامناً فى أحشاء الجزائر ، ولم تعظه ثورة القاهرة والأقاليم بعد ثلاثة أشهر من مجيئه ، ولا وعظته هزيمته فى « عكا » ، فإنه بعد فراره بنفسه من مصرٍ محتومٍ ، كما أسلفت (انظر ص: ٩٤) كتب رسالته إلى « كليبر » كبشِ الفداء (!!) يقول له فيها :

« يجبُ أن تحذر رُوحَ التعصُّب وتُؤمِّمها إلى أن تتمكن من استئصالها . إذا حُزَّت ثقة كبار مشايخ القاهرة ، فإنَّك تجمع حولك أفكارَ مصر بأجمعها ، وأفكار كلِّ زعيمٍ من زعماء الشعب . لا شيء أقلَّ خطراً من المشايخ الذين يرهبون القتال ولا يعرفون طُرُقَه ، ولكنهم مثل القسيسين ، يُوحون بالتعصُّب ، دون أن يكونوا هم أنفُسُهم متعصِّبين » . (٢)

ومسكينُ هذا الجزائر ، فإنَّ تدجينَ المشايخ الكبار فى « الديوان » ، لم يمنع الثورة أن تقوم ، وذلك لأنَّ « المشايخ الكبار » لهم عند عامة المسلمين ، هيبةُ العلم ، وطاعتهم

(١) قضى « فانتور » أربعين سنة يتجول فى دار الإسلام قبل أن يلتحق بالحملة الفرنسية ، قال عنه الجبرتى : « كان ليبيا متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلليانى والفرنساوى » ، تاريخ الجبرتى ٣ : ٦٨ ، وسماه « فتوره » .

(٢) هذا من نص ترجمة الرسالة كاملة فى كتاب أحمد حافظ عوض ، (فتح مصر الحديث : ٤٠٩ ، ٤١٠) ، أما الرافعى فى « تاريخ الحركة القومية » ، (٩٧ - ١٠١) فإنه يعثر الرسالة بعثرة مفسدة ، لينزع منها سُمُّها ، غفر الله ذنوبه ، وسيأتى بعد قليل ما هو أشنع من هذا من فعل الرافعى .

واجبة علينا فيما هو طاعة لله ولرسوله ، ولكن هيبة العلم ليست بممانعة جماهير الأمة من عصيانهم وترك طاعتهم إذا هم خالفوا صريح أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ بقتال الغزاة لدار الإسلام ، فإن قتال الغزاة عند المسلمين واجب وفرض عين على كل قادر على القتال ، إلا في حالة واحدة : إلا أن يخافوا أن يضطلمهم العدو لقلة عددهم وكثرة عدد العدو ، (« اضطلمهم العدو » ، استأصل شأفتهم وأبادهم) ، فجائز عندئذ أن يلجأوا إليهم السلم ، (« ألقى إليه السلم » ، استسلم له وصالحه) ، بيد أن في قتالهم الشهادة ، وهي إحدى الحسنيين ، (« الحسنيان » ، النصر أو الشهادة) . وفي حالة هذا الجزار ، أن جيشه قلة فاجرة تغزو كثرة مسألة تفرق عنها حمايتها من جيش المماليك المصرية ، فصار واجبا على الكثرة أن تقاتل هذه القلة بكل سلاح ما استطاعت إليه سبيلا . ولذلك لم تستمع الأمة عامتها وخاصتها للمشايخ المدجنين في « الديوان » لمهادنة الغازي ، واستمعت لصغار طلبة العلم في الأزهر الذين رفضوا نصيحة المشايخ الكبار بمهادنة الفرنسيين . رفضوها طاعة لله ولرسوله ﷺ ، وقامت ثورة القاهرة والأقاليم . وموقف « المشايخ الكبار » له تفسير ليس هذا مكانه الآن ، ولكنهم ضعفوا وجبنوا وأخطأوا على كل حال (اقرأ الفقرة الآتية رقم : ٢٢) .

وأرجح أن هذا الجزار وشيطانة المستشرق « فانتور » ، لم تنفعهما عظة ثورة القاهرة وهزيمة « عكا » ، لأن غياب « الاستشراق » وغطرسته وتعاليه لم تمكنهما من فهم هذه الحقيقة التي دلت عليها الثورة الجائحة التي هددت مصير الحملة الفرنسية وحددت تحديداً ظاهراً أدى إلى أن يلوذ جزأها بالفرار ، تاركاً مصير حملته وحليفته « كليبر » للمقادير تقضى فيهما قضاءها . لم يفهم هذان العلجان ، (« العلج » الرجل الشديد من العجم) ، هذه الحقيقة على صورتها الصحيحة ، فسميها « تعصبا » ، مع أنها إحدى

البدائيه المسلّمة ، لأن دفع عُدوان الغازي وكراهيته حقّ طبيعيّ لكلّ جماعة من البشر يغزوها غازٍ في عُقرِ ديارها ، بديهةً مُسلّمة بلا ريبٍ = وأخطأ أيضاً في تشبيه مشايخ دار الإسلام بالقسيسين في ديار المسيحية الشماليّة ، لأنّ المشايخ لا حرّية لهم وراء الكتاب والسنة ، والأمة كلّها مطالبةٌ أن تحاكمهم بما يوجبهُ الكتاب والسنة . أما القسيسون فالإلهم وحدهم الحكم المطلق بآرائهم ، ليس لأحدٍ من رعاياهم أن يسألهم ، وليس في أيدي رعاياهم شيء يحاكمونهم إليه ، وإنما هي الطاعة المُصمّنة لحُكم الرهبان والقسيسين . وهذا فرق ظاهرٌ بين رعايا الإسلام ورعايا المسيحية ، لا يعنى عنه إلا « مستشرق » ، وجزّار .

• أيقن الجزّار وشيطنائه « فانتور » أن تدجين المشايخ الكبار في « الديوان » قليلة جدّواه فيما كانوا يؤمّلان من طاعة الجماهير وخضوعها ومهادنتها للغزاة . أرقتهما خيبة الأمل في تدجين المشايخ ، فلمّا خرجا إلى سورية لتدوينها وطلّ حصار « عكا » ، وأيقنا بأخوة أن الدائرة ستدور عليهما وعلى جيشهما = أيقنا أيضاً أن محاولة اختراق دار الإسلام بالسلاح كانت زلّة لا تُقال عُثرُها ، ولكن لا سبيل إلى التراجع . وكلّ الدلائل كانت تدلّ على أن دار الإسلام في مصر = بعد تمزّق جيش المماليك المصرية ، وهم حُماة مصر = قد بدأت تُخرج من غمار الجماهير المصرية جيشاً جديداً قادراً على الفتك بالحملة القليلة العدد ، وإن كانت مُزوّدة بأحسن العدد . ومع ذلك لم يياس الجزّار المغرور أن تجرى المقادير على وفق آماله ، وعسى ولعلّ ، فربّما كانت الغلبة لهذه القلّة المزوّدة بما ليس في أيدي الجماهير الكثيفة مثله من سلاح متفوّق . عسى ولعلّ ، وبيّنا النيّة على هذا الأمل ، وبحثا عن وسيلة أخرى يُقدّران أن تكون أبلغ أثراً ، وأجدى في السيطرة على الجماهير الكثيفة . وانتهى حصار « عكا » بالهزيمة الفادحة ، (انظر ما سلف

ص : ٩٣ ، ٩٤) ، وتخلّى عن الجزار شيطانه ، وهلك « فانتور » فيمن هلك من قوّاده وعلمائه ومستشرقيه والآلاف من جُنده الغزاة ، وعاد إلى مصر كاسفّ البال ، ثم رحل عنها بعد قليل إلى فرنسا ناجياً بحُشاشةٍ نَفْسِهِ من مَصِيرٍ كان كأنّه يراه ماثلاً عياناً . ولم يكذ يستقرّ حتى أرسل إلى « كليبر » ، خليفته على مصر ، رسالةً طويلةً مُتفاوتةً مضطربةً عجيبة الاضطراب ، ليسكن رَوْعَ « كليبر » ويسدّد حُطاهُ في سياسته في مصر !! والذي يهمنى هنا من هذه الرسالة ^(١) = وقد اقتبستُ منها آنفاً ، (ص : ١٠٥ / تعليق : ٢) = ما جاء في خواتيمها ، وهو قوله لكليبر ، (هذا النص من ترجمة حافظ عوض) :

« ستظهر السفنُ الحربيّةُ الفرنسيّةُ بلا ريبٍ في هذا الشتاء أمام الإسكندرية
« أو البرُّلس أو دمياط . يجب أن تبني برجاً في البرُّلس .

« اجتهد في جمع ٥٠٠ أو ٦٠٠ شخصاً من المماليك ، حتّى متى لاحت السفنُ
« الفرنسيّة تقبضُ عليهم في القاهرة أو الأرياف وتسفرهم إلى فرنسا . وإذا لم تجد عدداً
« كافياً من المماليك ، فاستعِضْ عنهم برهائن من العرب ومشايخ البُلدان ، فإذا ما وصل
« هؤلاء إلى فرنسا يُحجزون مدةً سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثنائها عظمة الأُمّة
« (الفرنسيّة) ، ويعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولَمّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم
« حزبٌ يُضمُّ إليه غيرهم .

« كُنْتُ قد طلبتُ مراراً جوقة تمثيلية ، وسأهتمُّ اهتماماً خاصاً بإرسالها لك ،
« لأنّها ضرورية للجيش ، وللبُدءِ في تغييرِ تقاليد البلاد .

...

(١) ينبغي دراسة هذه الرسالة بعناية ، وينظر صحيح غير النظر الذي ذهب إليه الرافعي في كتابه .

• وقبل كُلِّ شيءٍ ، ينبغي أن أقطع سياق الكلام ، لأقف بك على ضرب شنيع من ضروب فساد حياتنا الأدبية وتلوُّثها بالأهواء الغالبة التي تستخفى ، ثمَّ تستهين بعقلي وعقلك . فأول من وقف على هذه الرسالة أحمد حافظ عوض في كتابه « فتح مصر الحديث » (ص : ٤٠٧ - ٤١١) فقال :

« وهذا الكتاب (يعنى الرسالة) محفوظ بالنصِّ الأصليِّ في وزارة الحرية الفرنسية (وثيقة غمرة ٤٣٧٤) ، ولأهمية هذا الخطاب ، وعدم وجود أثرٍ له في اللغة العربية ، رأينا أن نأتى على تعريبه بدقّة وإتقان » ، ثم ساق نص الرسالة . وكتاب أحمد حافظ عوض منشور في سنة ١٩٢٥ ، فجاء الراجعي ، غفر الله له ذنوبه في ديسمبر سنة ١٩٢٩ ، فذكرها في كتابه « تاريخ الحركة القومية » (٢ : ٩٧ - ١٠١) ، أى بعد أربع سنوات ، فقال :

« أما رسالته (نابليون) إلى الجنرال كليبر ، فهي وثيقة على جانب عظيم من الأهمية ، كتبها بإمعانٍ وتفكير ... وهي رسالة مطوّلة أشبهُ بتقرير وإف ، لذلك رأينا أن نعرِّبها مع شيءٍ من الشرح والبيان » .

والعنى ذكر أحمد حافظ عوض وكتابهِ وترجمته ، مع أنه يعرف الكتاب وصاحبه بلا شكٍ عندي أنا خاصّةً ، ^(١) واستأنف للرسالة ترجمةً جديدةً ولم يسقها متكاملةً ، بل بعثها وقطّعها وجزّأها في نحو خمس صفحاتٍ من كتابه ، استناداً إلى ما سماه شرحاً وبياناً . فلما جاء عند النص الذي نقلته لك آنفاً ، قال ما يأتي :

(١) بل أقول لك : إن كتاب الراجعي إن هو إلا تطبيق للبرنامج الذي وضعه أحمد حافظ عوض لتأليف كتاب في تاريخ مصر في القرن التاسع عشر . اقرأ مقدمة كتاب « فتح مصر الحديث » تعلم أنه هو الذي سنّ للراجعي الطريق بلا شكٍ ولا ريب ، ومع ذلك فلم يذكره الراجعي بكلمة واحدة في مقدمته أو في كتابه !

« وتعرِّض في رسالته إلى مشروعات استعمارية ومساائل ثانوية لم يفتِّه التفكير فيها في تلك الأوقات العصيبة ، فأوصاهُ باعتقال خمسمئة أو ستمئة من المماليك أو من رهائن العرب ومشايخ البلاد (العمد) ، وإرسالهم إلى فرنسا ، في حالة استئناف المواصلات البحرية ، ليبقوا بها سنة أو سنتين ، وغاية نابليون من ذلك : [أن يروا عظمة الأمة الفرنسية ، ويقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ولُغتنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم] . »

« ثم وعدَ الجنرال كليبر بأن يرسل له فرقة من الممثلين كان قد أوصى عليها من قبل [لتسدَّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية] . »

والاختلاف بين النصَّين بيِّن جدًّا ، ودلالة أحدهما غير دلالة الآخر ، ومعناه غير معناه . فرَّق بين : « يعتادون على تقاليدنا ولُغتنا ، ولَمَّا يعودون إلى مصر ، يكون لنا منهم حزبٌ يُضَمُّ إليهم غيرهم » = وبين : « يقتبسوا عاداتنا وأفكارنا وأخلاقنا ، ويعودوا إلى مصر فينشروا هذه المقتبسات بين مواطنيهم » ، لأنَّ الأوَّل دالٌّ على أنه يريدُ أن يستفسدهم ويُبهرهم ويَعُدِّهم ويمَنِّهم ، ويكونُ منهم في مصرَ حزباً تحت سيطرته يكونُ نواةً لحزبٍ أكبر منه . فهذه سياسة متبعة مؤسَّسة على مكيافليَّة نابليون = أمَّا الثاني فإنه ينزِعُ سَمَّ هذه العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّهُ أمر « اقتباس » من عادات فرنسا وأفكارها وأخلاقها ولُغتها ، ونشر ما يقتبسونه بين المواطنين المصريين ، وهذه مجردُ أمنيَّة ساذجة تكون أو لا تكون .

وكذلك القول في قوله في شأن فرقة الممثلين . فرَّق بين : « إنها ضرورية للجيش ، وللبداء في تغيير تقاليد البلاد » ، وبين : « لتسدَّ حاجة الجيش ، ولتألف البلادُ شيئاً جديداً من العادات الغربية » ، فالأوَّل دالٌّ على غرضٍ مقصودٍ لذاته هو « تغيير تقاليد البلاد » ،

فهذه أيضاً سياسة مكيفالية = أما الثاني فإنه ينزع أيضاً سَمَّ العبارة ، ويجعل الأمر كُلَّهُ مجرد عرض شيء جديد على الناس حتى إذا استحسنوه ألقوه ، وهذه مجرد أمنيّة ساذجة تكون أو لا تكون . هذا كُلُّه فضلاً عن مقدّمة الرافعي التي تجعل هذه السياسة المكيفالية الخبيثة ، مجرد مسألة ثانوية لا خطرَ لها ، يا سبحان الله !!

فنصّ ترجمة أحمد حافظ عوض أولى بالثقة من نصّ ترجمة الرافعي ، وأدُلّ على سياسة جزّار القاهرة ومدمّرها ومُفسدِ أخلاقِ الشذاذِ من أبنائها مدة إقامة جيشه فيها . وليس النصّ الفرنسي بين يديّ الآن ، ولكنّي أرى في أولهما الأمانة وسلامة الطويّة ، وفي ثانيهما ترك الأمانة وتبييت النية على نزع سَمَّ العبارة إكراماً لنابليون العظيم !! مع أن كلا الرجلين في كتابيهما كان كاتباً مُدجّناً ، وكان صَعُوه ، (أى مَيْله) إلى نابليون العظيم !! وإلى فرنسّا مصدرِ النور والتنوير !! وكما يقول المثل العامّي : « ما أسخّم من سِتّي إلا سيدي » !

هذه بين يديك تقاليدُ حياتنا الأدبية الفاسدة فساداً يستعصى على الإصلاح الشّامل السّريع الأمين . وقبيحٌ جدّاً أن تتغاضى حياة أدبيّة عن مثل هذا القُبْح ، فضلاً عن أن ترضاه ، فضلاً عن أن تتواصى به حتى يكون سنّة مألوفة ، لا يكاد ينكرها قارئ أو أديب أو أستاذ ، وإلْف القبيح متلقّة للإحساس والعقل جميعاً ، ولكن لهذا كُلُّه سببٌ واضحٌ ، سوف أحدثك عنه في الفقرة التالية :

...

٢٢ - لمّا مضى مئتا عامٍ على فتح القسطنطينية ، حصن المسيحية الشمالية الشاخ في يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٨٥٧ هـ / ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣ م ، غرقت دار الإسلام في غفلة هائلة شاملة أحدثها الغرور بالنصر القديم على المسيحية الشمالية ، وبالنصر الحديث وفتح القسطنطينية وتدفّق جيوش دار الإسلام في قلب أوربة ، وعميت دار الإسلام يومئذ عن اليقظة الهائلة الشاملة التي أحدثتها الهزائم القديمة

والحديث في ديار المسيحية ، والتي قامت على الإصرار والمجاهدة والمثابرة وإصلاح نخل الحياة المسيحية الشمالية ، حتى آنفكت عنها أغلال « القرون الوسطى » بَعْتَةً ، وانبعث نهضة « العصور الحديثة » ، فارتفعت كِفَّةُ المسيحية الشمالية ، وانخفضت كِفَّةُ دار الإسلام ، وبدأت « المرحلة الرابعة » للصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٣ - ٤٥) .

ويومئذ تحدّدت أهداف المسيحية الشمالية ، وتحدّدت وسائلها ، ولم يغب عن أحدٍ منهم قطُّ أنهم في سبيل إعداد أنفسهم لحرب صليبية رابعة ، لا بقعة السلاح ، وما هو إلا سلاحُ العمل والعلم والتفوق واليقظة والفهم والتدبير ، ثم الضبر والمكر والدهاء واللين والمداهنة وترك الاستشارة ، استشارة عالم ضخم مجهول ما في جوفه ، ولا قيل لهم بتدقيق أمواجه الزاخرة ، والتي كان « الترك » الظافرون طلائعها الظاهرة لهم عياناً في قلب أوربة ، (اقرأ ما سلف : ٤٦ - ٥١) . وبدأ الزحف البطيء المتتابع الخفي الوطء يخرق دار الإسلام في ترقية والشام ومصر والجزائر لابساً كل زي : زي التاجر ، وزي السائح ، وزي العالم الباحث ، وزي المسلم طالب العلم ، وعلى الوجوه البشر والطلاقة والبراءة ، وفي الألسنة الحلاوة والخلاصة والمماذقة . وعلى مرّ الأيام والشهور والسنوات ، توغّلوا زرافاتٍ ووحداناً في قلب دار الإسلام يأخذون أهلها من وراء الغفلة ، ويستخرجون كلّ مخبوءٍ كان عندهم من أحوال الخاصة والعامة ، والعلماء والجهلاء ، والحلماء والسفهاء ، والملوك والسوقة ، والجيوش والرعية ، ويُرَوِّزون (أى يختبرون) القوة والضعف ، والذكاء والغفلة ، وتدسّسوا حتى إلى أخبار النساء في خدورهن ، ولم يتركوا شيئاً إلا خبروه وعجموه ، وفتّشوه وسبّروه ، وذاقوه واستشفّوه ، متعاونين متآزرين ، تحت رعاية « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وإرشادهم وتوجيههم ، (اقرأ ما سلف : ٥٣ - ٥٦ / ٨١ - ٨٦) .

مضت السُّنُونُ و « الاستشراق » في عَمَلٍ دائمٍ وتدييرٍ متبادٍ ، وسياحةٍ في دار الإسلام ، ولا يكفُونُ عن إمداد ملوك المسيحية الشمالية بكلِّ ما علموا من أحوال دار الإسلام ، وما رأوه عياناً فيها ، وما خبروه عن الغفلة المطبقة على دار الإسلام ، فنشأت بفضلهم طبقة « الساسة » الذين صاروا يُعِدُّون ما استطاعوا من عُدةٍ لردِّ غائلة الإسلام ثم قَهَره في عُقر داره ، وتحقيق الأحلام والأشواق التي كانت تُخامرُ قلب كُلِّ أوربيٍّ ، أن يظفر بكنوز الدنيا المدفونة في دار الإسلام وما وراء دار الإسلام . وهذه الطبقة من الساسة هم الذين عُرفوا فيما بعد باسم رجال « الاستعمار » ، (اقرأ ما سلف : ص ٤٨ ، ٤٩) . فلما كاد القرن السابع عشر الميلاديُّ ينصرم ، كانت تركيبة لم تفقد بعد هيتها في قلوب ساسة المسيحية الشمالية ، ولم تنس ساسة فرنسا خاصة الحرب الصليبية السابعة المعروفة باسم « واقعة المنصورة » والتي انتهت بهزيمة الفرنسيين ، والتي هلك فيها ثلاثون ألفاً منهم ، وأُسِر فيها لويس التاسع ملكُ فرنسا وطائفةٌ من ضباطه ، وجُعِلوا في « دار ابن لقمان » ، وتولَّى أمر حراستهم الطواشي « صبيح » ، وذلك كان في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلاديِّ ، أي بعد أربعة قرون ، كان أوَّل من حرَّض فرنسا على اختراق دار الإسلام في مصر ، هو الفيلسوف الرياضي الألماني « لينتزر » (جوتفريت فلهلم) (١٦٤٦ - ١٧١٦ م) ، وكان قد التحق بالسلك الدبلوماسي ، وقضى أربعة أعوام في باريس (١٦٧٢ - ١٦٧٦ م) ، في بلاط لويس الرابع عشر ، فقدم إليه في سنة ١٦٧٢ م تقريراً يحرضه فيه على اختراق دار الإسلام في مصر ، ويقولُ له فيه : « إنَّكم تضمنون بذلك بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد المشرق (أي في دار الإسلام) ، إلى ما شاء الله ، وتكسبون عَطْفَ المسيحية وتستحقون ثناءها ، وهنالكَ لا تخسرون عَطْفَ أوربة ، بل تجدونها مجمعةً على الإعجاب بكم » ، فأعجَبَ

لفيلسوف رياضي ألماني لم تشغله رياضته ولا فلسفته عن تحريض فرنسا على غزو مصر ، لتكسب عطف المسيحية الشمالية وتستحق ثناءها ، وتضمن بسط سلطانها على دار الإسلام إلى ما شاء الله !! ، وذلك قبل حملة نابليون بأكثر من مئة سنة .

كان تقرير « لينتزر » الفيلسوف الرياضي !! منبهةً لسانة فرنسا على غزو دار الإسلام في مصر ، وذلك بعد منتصف القرن السابع عشر الميلادي ، ولم يكن ذلك من « لينتزر » عفو الخاطر ، بل كان عن متابعة واعية لملاحظات « المستشرقين » الذين كانوا يجوبون دار الإسلام ، ويملئون مثقفى المسيحية الشمالية بما خبروه وسبروه من دخائل دار الإسلام في مصر وغير مصر ، لأن « المستشرقين » كانوا هم حملة هموم المسيحية الشمالية ، والمجاهدين المتبتلين في سبيلها ، كما حدثتكم آنفاً في مواضع متفرقة .

وظل هذا التحريض كامناً في قلب ساسة فرنسا منذ منتصف القرن السابع عشر ، وهو ينمو على الأيام ، وينمو معه الإعداد لغزو دار الإسلام في مصر . ومضت مئة عام حتى كان عهد لويس الخامس عشر ، وكبير وزرائه « الدوق دي شوازل » ، الذى طمع أن تحتل فرنسا مصر ، عن طريق المفاوضة مع تركية ، التى بدأت تضمحل قوتها وهيبتها ، والتى شجبت سلطانها على مصر وكاد ينحل ، ولكنه لم يفعل شيئاً حتى سقطت وزارته في سنة ١٧٧٠ م . وجاء عهد لويس السادس عشر (سنة ١٧٧٤ م) ، وكان الكونت « سان بريست » سفير فرنسا فى الآستانة منذ سنة ١٧٦٨ م ، وأقام فيها ست عشرة سنة يرقب اضمحلال تركية ، وكان شديد الاهتمام بدار الإسلام فى مصر ، فكتب غير مرة إلى حكومته يحضها على احتلال مصر ، تحقيقاً لمطامع « دى شوازل » . فأوفدت الحكومة الفرنسية « البارون دى ثوت » ، المجرى الأصل الذى استوطن فرنسا ، أوفدته إلى تركية ، فلما عاد سنة ١٧٧٦ م ، قدم تقريراً إلى الحكومة الفرنسية ، بأن تركية فى سبيل الانحلال لا محالة ، ونصح الحكومة بالإقدام على احتلال مصر ، فأوفدته

الحكومة مرة أخرى إلى ثغور الدولة العثمانية ، وبدأ رحلته سنة ١٧٧٧ م ، فدرس سواحل مصر ومواقعها ، وقدم تقريراً إلى الحكومة بين فيه مزايا احتلال مصر وسهولة تحقيق هذا الاحتلال . ثم انتهت أيضاً سفارة « الكونت سان بريست » وعاد من الآستانة سنة ١٧٨٣ م ، فقدم إلى حكومته تقريراً ثانياً في شأن احتلال مصر ، ونصح حكومته بأن ذلك يَكْسِبُ فرنسا مركزاً ممتازاً في العالم . وفي هذا الوقت نفسه ، كان قنصل فرنسا في الإسكندرية المسيو « مور » ، فقدم إلى حكومته تقريراً يتضمن رأيه في قرب تفكك السلطنة العثمانية ، وينصحها بضرورة احتلال مصر ، فجاء تقريره مؤيداً لتقارير « دى سان بريست » و « البارون دى ثوت » ، ولكن الحكومة الفرنسية ترددت ، ولم تأخذ بنصائحهم . احتفاظاً بسياستها حيال تركيا ، القائم ظاهراً على الود والصداقة ، وتَحَسُّباً ، للبوارد التي ظهرت مقدّمة للثورة الفرنسية .

وبدأت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ م ، وانتهت بإعدام لويس السادس عشر في يناير ١٧٩٣ م ، وتتابعت شكاوى التجار الفرنسيين المقيمين بمصر إلى حكومة الثورة ، يشكون ما أصابهم من سوء معاملة المماليك المصرية وما يَلْقَوْنَه من العَنَتِ ، فعينت الحكومة المسيو « شارل مَجَالُون » قنصلاً عاماً لفرنسا في مصر سنة ١٧٩٣ م ، وكان « مجالون » هذا تاجراً فرنسياً أقام بمصر أكثر من ثلاثين سنة مشغلاً بالتجارة ،^(١) فأخذ يرسل إلى حكومته التقارير والمذكرات ، مبيناً فيها عن عبث المماليك المصرية بمصالح التجار الفرنسيين في مصر ، ومصرّحاً بأن هذا العبث لا يمكن أن يزول إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردّهم ، وحرّض حكومة الجمهورية على أن تتأهب لاحتلال

(١) انظر أى خبرة يستفيدها هذا التاجر المثقف من مُقامه في دار الإسلام بمصر أكثر من ثلاثين سنة !! وهو بلا شك قد أجاد العربية ، بل لعله لم يدخل مصر إلا وهو عارف بالعربية ، وهو الأرجح ، أى هو في حَيْزِ « الاستشراق » بلا شك ، كما سترى .

مصر . وفي سنة ١٧٩٧ م ، ارتحل « مجالون » إلى فرنسا ، وأخذ يحضّر رجال الدولة على احتلال مصر ، ويبيّن لهم المزايا التي تنالها حكومة الجمهورية بهذا الاحتلال . واقتنع المسيو « تاليران » وزير الخارجية الفرنسية بآراء « مجالون » ، هو ونابليون بونابرت ، فقدم تقريراً إلى حكومة الديركتوار ، ونصح الحكومة بإنفاذ الحملة . فكان ما كان من حملة نابليون على مصر في سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تخفيض « مجالون » بسنة واحدة .

لم يكن « الاستشراق » غائباً طرفة عين عن مقدّمى هذه التقارير والمذكرات التي رُفعت إلى الحكومة الفرنسيّة ، بل كان حاضراً حضوراً كاملاً ببديهية العقل ، لأنّه صاحب الفضل الأوّل في نشأة طبقة الساسة الذين هم رجال « الاستعمار » ، والذين توجّهوا كلّ التوجّه لإعداد العُدّة لاختراق دار الإسلام ، (اقرأ ما سلف : ٤٩) ، و « الاستشراق » هو الذى كان يُمدّهم بخبرته الواسعة المتبادية بأحوال دار الإسلام ، ولولاه ما عرفوا قبلاً من ديبير = ولأنّه أيضاً كان دائم الحضور في دار الإسلام أبداً ، يلاقي الخاصة من العلماء ، ويخالط العامّة من المثقفين والدهماء ، ويستخرج خبء ما في هذه الدار من أحوال خاصته وعامته ، وعلمائه وجهاله ، وملوكه وسوقته ، وجيوشه ورعيته ، وكلّ دقيق وجليل يوماً بعد يوم ، في ملاحظة واعية لا تغفل ولا تنام ، (اقرأ ما سلف : ٤٨ ، ٥٣) .

ولو تأملت قليلاً تواريخ تقديم هذه التقارير والمذكرات ، منذ عهد « لينتزر » سنة ١٦٧٢ م ، ثمّ ما جاء بعد مئة عام ، من طمّع الدوق « دى شوازل » في مفاوضة تركية في أمر التنازل عن مصر لفرنسا في سنة ١٧٦٩ م ، وبعده الكونت « سان بريست » والكونت « دى ثوت » وتقاريرهم منذ سنة ١٧٨٦ م إلى سنة ١٧٨٣ م ، وبعدهما المسيو « مجالون » من سنة ١٧٩٣ - ١٧٩٧ ، قبل حملة نابليون بعام واحد ، بل قبل ذلك أيضاً حضور طُلاب الإفرنج ، (وهم المستشرقون) ، إلى مصر وقراءتهم علم

الهندسة على الشيخ الجبرتي الكبير في سنة ١١٥٩ هـ / ١٧٤٦ م ، (ماسلف : ٨٣) =
لو تأملت هذه التواريخ لرأيته جميعاً واقعة وقوعاً تاماً في عصر يقظة دار الإسلام ونهضتها
الصحيحة التي تولّى أمرها الخمسة الكبار من رجالنا ، وهم : « البغدادى » في مصر ،
(١٠٣٠ - ١٠٩٣ هـ / ١٦٢٠ - ١٦٨٣ م) ، ثم « الجبرتي » الكبير في مصر ،
(١١١٠ - ١١٨٨ هـ / ١٦٩٨ - ١٧٧٤ م) ، و « ابن عبد الوهاب » ، في جزيرة
العرب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) ، و « المرتضى الزبيدي » في
مصر ، (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ / ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م) ، و « الشوكاني » في اليمن
(١١٧٣ - ١٢٥٠ هـ / ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م) ، (اقرأ ماسلف : ٨٢) . فهذه
« النهضة » وهذه « اليقظة » ، لا يعرفها على حقيقتها ، ولا يعرف مغبتها غير
« الاستشراق » ، فيومئذ هب « المستشرقون » ، حملة هموم المسيحية الشمالية ، هبوا هبة
الفرع ، وتسارعوا ينقلون كل صغيرة وكبيرة ، ووضعوه بيناً جلياً تحت أبصار ملوك
المسيحية الشمالية وأمرائها ورؤسائها وقادتها وساستها وعلمائها ورهبانها ، وبصروهم
بالعواقب الوخيمة المخوفة من هذه « اليقظة » الوليدة ، وبينوا لهم الخطر الداهم الذي جاء
يتهددهم إذا ما تمّ تمام هذه « اليقظة » واشتدّ عودها ، واستقامت خطواتها على الطريق
اللاحب = وأنه ليس للمسيحية الشمالية خيار سوى العمل السريع المحكم ، واهتبال
الغفلة المحيطة بهذه « اليقظة » الوليدة ، ومعالجتها في مهدها قبل أن يتمّ تمامها ويستفحل
أمرها ، وتصبح قوة قادرة على الصراع والحركة والانتشار ، فإنه إن تمّ ذلك ، فما هو
إلا أن تعود الحرب بين الشمال والجنوب جذّة ، وعندئذ لا يضمن أحد مغبة الصراع
المشتعل بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين متكاملتين . لا يضمن أحد لأى الفئتين
تكون الدولة والغلبة والسيادة . فرع « الاستشراق » لعلمه أن الفرق بيننا وبينهم كان
يومئذ خطوة واحدة تُستدرك باليقظة وبالهمة والصبر والدأب لا أكثر ، (اقرأ ماسلف : ٨٦ ،
٨٧) . وكما ترى عياناً ، فإن « الاستشراق » هو عين « الاستعمار » التي بها يُبصر

ويحدِّق ، ويدهُ التي بها يُحسُّ ويبطش ، ورجلُهُ التي بها يمشي ويتوغَّل ، وعقلُهُ الذي به يفكِّر ويستبين ، ولولاهُ لظلَّ في عَمِيائِهِ يتخبَّط ، (ما سلف : ٨٧) .

وقد حدثتكَ من قبل ، (اقرأ ما سلف : ٨٨ ، ٨٩) أن نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية بالخطر المُدْلِهَم الذي تهددهم به يقظة دار الإسلام كان نذيراً مروّعاً حاسماً . أما إنجلترا فأسرع مستشرقوها إسراعاً حثيثاً إلى سواحل جزيرة العرب الشرقية ، حيث قام « محمد بن عبد الوهاب » ، وبالدعاء والمكر والدسائس جاءت في زِيِّ الناصر والمعين ، لتندسَّس إلى يقظة « ابن عبد الوهاب » ، لتتخذ عندها يداً ، وبها تسيطر عليها وتحتويها ، ومن وراء ستار كانت تؤلِّب تركية وتؤلِّب جاراتها وتخوفهم ، لتطوِّق اليقظة تطويقاً يحول بينها وبين الانتشار . أما فرنسا التي طردتها إنجلترا من الهند كلها سنة ١٧٦١ م / ١١٧٥ هـ ، فأبت إلى ديارها تلعبُ جراحها ، وجعلت تُعدُّ العُدَّة وتفكِّر في اختراق دار الإسلام في مصر ، لوأد « اليقظة » المخوفة العواقب التي بعثها « البغدادى » . و « الزبيدى » و « الجبرتى الكبير » في مصر ، فهي « يقظة » يُحشَى أن تؤدَّى إلى يقظة دار الإسلام كُلِّها ، بما فيها اليقظة المتفجِّرة المتحركة الجديدة في جزيرة العرب ، فإذا تم اندماج اليقظتين فلا يعلم إلا الله كيف يكون المصير ؟

أظنه بات الآن منكشفاً لك كلُّ الانكشاف ، حَبءُ العلاقة بين تواريخ « اليقظة » و « النهضة » يومئذ في دار الإسلام ، وتواريخ التقارير والمذكرات التي كتبها رجال « الاستعمار » من ساسة المسيحية الشمالية = وبات منكشفاً لك أيضاً كلُّ الانكشاف ، أنه لولا خبرة « المستشرقين » حملة هموم المسيحية ورهبانها المتبتلين الذي كانوا يحبون دار الإسلام ويُقيمون فيها فيُطِيلون الإقامة ، ثم يُمدُّون هؤلاء الساسة بالملاحظات والمخاوف ، لَمَا اتفقت هذه التواريخ هذا الاتفاق البين الذي عَمِيَتْ عنه اليوم حياتنا الأدبية الفاسدة كُلُّ الفساد ، وألستُها الثرثرة المتشدِّدة بأوهام « الأصالة

والمعاصرة» و « القديم والجديد » ، و « الثقافة العالمية » ، وبالقضية الهزلية « قضية موقفنا من الغرب » ، على الصورة التي لا يزال يردها الدكتور زكى نجيب محمود فيما يكتب ، مستدلاً بحادثة لم تحدث قط بين مشايخ الأزهر وعلماء الحملة الفرنسية ، ليس لها سند تاريخي صحيح ولا باطل ، وإنما هي كذب مُصمّت ، لا أدري مَنْ تكذّبه ، ففتن به الدكتور زكى وحُجّب إليه تردّاده مرّات فيما يكتب ، (انظر ما سلف : ٩١ ، ٩٢) .

والذى لا شك فيه أن « جذور قضيتنا » كامنة في نذير « الاستشراق » للمسيحية الشمالية ، والذى أدّى إلى انقراض الفتى الصليبيّ المُحترق المبير « نابليون » بغتة على دار الإسلام في مصر ، لوأد « اليقظة » و « النهضة » ومعاجلتها في مهدها قبل أن يشتدّ عودها وتستفحل ، فيسفع الدماء سفحاً لم يفعل مثله « جنكيزخان » ، فيضحي عند مشرق كلّ شمس بخمسة أو ستة ، ويطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ويأمر قوّاده أن يتشبهوا به ، (ما سلف : ١٠٠ ، ١٠٤) ، ويهديه « الاستشراق » أن يختارهم من الطلبة الناجين من ورثة « الزبيديّ » و « الجبرتيّ الكبير » ، (ما سلف : ١٠٤) ، ليستأصل بذلك « اليقظة » من جذورها ، ويشتت بالإرهاب مَنْ أفلت من برائته الملوّنة الدامية . ولكي يضمن هذا الجزار بعد ذلك أن لا يشبّ الصراع المشتعل بين سلاحين متكافئين ، وثقافتين مكتملتين . وضع هذا الفتى الأهوج المحترق مشروعه الذى بيّنه لخليفته « كليبر » : « أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من الممالك ، فإن لم يجد عدداً كافياً من الممالك ، فليستعص عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفّرهم إلى فرنسا ، فيحجزوا فيها مدة سنة أو سنتين ، ليشاهدوا في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادوا على لغتنا وتقاليدنا . فإذا عادوا إلى مصر كان لنا منهم حزب يُضمّ إليه غيرهم » ، ووعده كليبر أن يرسل إليه جوقة تمثيلية « لأنها ضرورية للبدء في تغيير تقاليد البلاد » ، (ما سلف : ١٠٨) = وأراد بذلك أن يضمن تمزيق « الثقافة المتكاملة » التي هي ثقافتنا ، وأن

يقتلعها من جذورها ، ويحفر لها قبراً تتألق أنواره الفرنسية الساطعة ، ويدفن فيه « اليقظة » و « النهضة » إلى غير رجعة .

ثم يكتب إلى الجنرال « زاو نشتك » قومندان المنوفية ، في ٣٠ يولييه ١٧٩٨ م : « يجب أن تعاملوا التُّرك ، (أى المسلمين) ، بمنتهى القسوة ، وإني هنا أقتل كُلَّ يوم ثلاثة ، أمرُّ أن يُطاف برؤوسهم في شوارع القاهرة ، فهذه هي الطريقة الوحيدة لإخضاع هؤلاء الناس ، وعليكم أن توجَّهوا عنايتكم لتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، (ماسلف : ١٠٠) ، وكذلك فعل نابليون نفسه في القاهرة بالإرهاب ، فسارع الناس إلى إخفاء الأسلحة ، وكانت أسلحة الأهالي والجند الفرنسيين متكافئة ، أما تفوق الفرنسيين فكان فيما عندهم من المدافع التي استعملوها في هدم الدُور والمساجد ودك القاهرة دكاً متواصلاً . فأراد نابليون « بتجريد البلاد قاطبة من السلاح » ، أن يضمن بهذا « التجريد » أن يُبطل قدرة « السلاح المتكافئ » على مقاومة جُنده وإبادتهم جَهرةً وَاغتيالاً ، وأن يصل بسفحه الدماء إلى إخضاع الناس ، كما قال .

هذه هي « جذور القضية » التي غفل عنها الناس يومئذٍ ، ولا تزال حياتنا الأدبية الفاسدة اليوم غافلة عنها كُلَّ الغفلة ، فكثَّابنا ومؤرِّخونا اليوم هم كما قال المتنبي في ملوك زمانه :

أَرَانُبُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ مُلُوكُ ، مُفَتَّحَةٌ عُيُونُهُمْ نِيَامُ

والأرنُبُ تنام مفتوحة العين ، فرما جاءها القنَّاصُ فوجدها كذلك ، فيظنُّها مستيقظة ، فإن كان على علم بحالها أخذها من قريبٍ أخذاً هيناً بلا مؤونة ولا تعب !!

...

ولكن ، لا أستطيع أن أترك حتى تكون على بيِّنة واضحة من عمل

« الاستشراق » في دار الإسلام ، فإنه كان عملاً دائماً طويلاً الأمد ، متعدّد وجوه النشاط ، منذ أخذ يدبّ ديباً مستخفياً في نأناة زحفه الخفيّ الوطء على دار الخلافة في تركيا ، وعلى الشام ، وعلى مصر ، وعلى جوف إفريقية وممالكها المسلمة ، (ما سلف : ٥٣ ، ١٠١) . فعلى تطاول السنين ، ومع ازدياد خبرته يوماً بعد يوم بكلّ صغيرة وكبيرة في دار الإسلام ، ومع شعوره بالأمن وهو يجوب دار الإسلام غير مُروّع ، ولسماحة أهل الإسلام عامتهم وخاصتهم مع مَنْ دينه يُخالف دينهم من اليهود والنصارى ، لأنهم أهل كتاب وأهل ذمّة من أتباع الرسولين الكريمين موسى وعيسى ابن مريم عليهما السلام ، فيسرّ ذلك لهم خاصة أن يُدهنوا العلماء والعامة وينافقوهم ويؤهمهم بالمكر والمحال أن صدورهم بريئة ، وقلوبهم خالصة لحُبّ العلم والمعرفة = وأيضاً لما كانت دار الإسلام غارقة فيه من العفلة المطبقة التي أورثتهم إيّاها الاستئمان إلى النصر القديم على المسيحية الشمالية ، واغترارهم بالنصر الحادث القريب بفتح القسطنطينية وتدفع جيوش الترك المظفرين في قلب ديار المسيحية الشمالية ، (انظر ما سلف : ٤٨) = كلّ ذلك زاد « الاستشراق » أماناً واطمئناناً ، وأغراه إغراءً شديداً بإعداد العدة لتحقيق « الأهداف » و « الوسائل » التي طوى عليها قلبه ، بفهم وبصيرة وإخلاص وعقل وصبر ودهاء ورفق وتسرّ ، (اقرأ ما سلف من : ٤٧ - ٥١) .

ومن يومئذ بدأ « الاستشراق » تحقيق الزحف الشامل الذي يُعدّ لاختراق قلب دار الإسلام بلا قعقة سلاح ، زحف صامت مصمّم خفيّ الوطء ، سوف يضمّ ألوفاً مؤلفة من أشتات الناس على اختلاف أجناسهم ، ما بين تاجر وصانع ومغامرٍ وسائح ومبشرٍ وسياسيّ وراهب وطالب معرفة وأفاقيّ وصفّاقٍ ومتكسّبٍ ، والنية أن تتكون على الزمن من هؤلاء الأشتات جالياتٌ كبيرة تقيم في دار الإسلام ، تعاشر المسلمين فتطول عشرتهم أو تقصر ، (اقرأ ما سلف : ٥٦ ، ٥٧) . كان « الاستشراق » هو الذي يُعبئ هذه الجيوش ويحمّل أفرادها ما يحمله هو من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذيهم بكلّ ما في

قلبه من الأحقاد المكتمة ، ولهب البغضاء الغائرة في العظام ، ويدبرهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداينة والتفاف في معاشرة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبه ، ومراقبة كل صغيرة وكبيرة من أحوال من يخالطونهم من العامة والخاصة ، والملوك والسوقة ، والرجال والنساء .

وتطاولت السنون حتى استطاع « الاستشراق » أن يكون في قلب دار الإسلام جاليات صغيرة متخيرة بفهم ودقة من شعوب المسيحية الشمالية ، عمادها الرجال الذين يحترفون التجارة ، ويعرفون العربية وغيرها من لغات دار الإسلام ، وقيمون في دار الإسلام مدداً طويلة ، حتى يالفوا الناس ويألفهم الناس ، ويتقوض جدار التوجس والتخوف والشك في هذه الأشباح الغريبة التي تتجول في الطرقات والشوارع آمنة غير مفرجة ولا مروعة . فلما كان زمان « اليقظة » و « النهضة » في دار الإسلام في مصر خاصة ، في القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجرى ، (القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادى) ، (انظر ما سلف : ١١٦) ، هب « الاستشراق » هبة الفرع الأكبر ، وكان نذيره الحاسم المروغ للمسيحية الشمالية بالخطر المدهم الذى تهددها به « اليقظة » و « النهضة » التى انبعثت من مصر خاصة = يومئذ كانت الجاليات الصغيرة قد صارت جاليات كبيرة من تجار شعوب المسيحية الشمالية ، وتفاقم أمرها حتى أفزع الممالك المصرية ، وارتابوا في هذه الكثرة التى أخذت تتوافد زرافات ووحدانا باسم التجارة ، وخامرهم الشك في مقاصدهم وفي تحركاتهم ، فأخذوا يفرضون الإتاوات الثقيلة المختلفة على متاجرهم ، ويسومونهم العنت والمشقة حتى تبور تجارتهم ، وحتى يضطروهم إلى الرحيل عن مصر . فأوعز « الاستشراق » الفرنسى خاصة إلى التجار أن يجأروا إلى حكومتهم بالشكوى من سوء ما يصيبهم من معاملة الممالك المصرية ، وعلى رأس هؤلاء التجار « مجالون » الذى كان تاجراً مقيماً في مصر أكثر من ثلاثين سنة ، (انظر ما سلف : ١١٥) ، والذى ظل يقدم إلى حكومة فرنسا التقارير والمذكرات عن عبث الممالك المصرية بمصالح التجار

الفرنسيين ، وأنه لا سبيل إلى إزالة هذا العبث إلا إذا استخدمت الجمهورية الفرنسية القوة في ردّهم ، وذلك (سنة ١٧٩٣ م) وما بعدها ، ثم رحل « مجالون » إلى فرنسا سنة ١٧٩٧ م ليحضّر رجال الدولة على احتلال مصر . فاستجاب له « تاليران » وزير الخارجية ، و « نابليون بونابرت » ، فكانت « الحملة الفرنسية » على مصر سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ، أى بعد تحضيضه بسنة واحدة ، (ما سلف : ١١٦) .

وفي خلال هذه الفترة ، ما بين ما كان من تحريض الفيلسوف الألماني « لينتزر » لويس الرابع عشر الفرنسي على غزو مصر في سنة ١٦٧٢ م ، (انظر ما سلف : ١١٣ ، ١١٤) ، وبين صرخة « مجالون » في سنة ١٧٩٣ م وسنة ١٧٩٧ م = كان « الاستشراق » يتولى في مصر عملاً خبيثاً آخر ، ويجتد فيها جنّداً من الأرمن والأروام والمالطيين وغيرهم ، ويحملهم ما في قلبه من هموم المسيحية الشمالية ، ويغذّيهم بالأحقاد المكّمة ، ويلهيب بغضائه الغائرة في العظام ، ويدرّبهم على الدهاء والمكر ، وعلى اتخاذ أقنعة البراءة والبشر والمداينة والنفاق في معاشرّة أهل دار الإسلام ، ويعينهم بخبرته الواسعة على اليقظة والتنبّه والمراقبة = ويخشّد معهم أيضاً طوائف من يهود الشمال ومن اليهود المقيمين في دار الإسلام في مصر ، ويستزلّ طوائف من شذاذ الآفاق من أهل دار الإسلام وغير دار الإسلام ، كنصارى الشام وسفلة المغاربة ، يستأجرهم لتوسيع خبرته تارة ، وتارة أخرى لبث أفكار دّرّسها « المستشرقون » ، أو ظنوا أنهم درسوها وأتقنوها ، ويحاول « الاستشراق » أن يُشيعها بين جماهير دار الإسلام في مصر خاصّتها وعامّتها ، وللتحكّم في تصريف أموره وغاياته ، ثم للتمكّن من إشعال نار الفتنة حين يقتضى الأمر إحداث فتن تُفرّق شمل الناس وتمزّقهم وتشتعلهم عن الكيد الخفى الذى يُراد بهم . وكلّ هذا كان يتمّ في هدوء وصبرٍ وتسترٍ ، ومن وراء الغفلة ، غفلة أهل دار الإسلام عن جذور قضيتهم ، (اقرأ ما سلف : ١٠١) . وقد ظهر أثر هذه الحشود جلياً واضحاً في زمان الحملة الفرنسية ، وفي البلايا التى حدثت منهم خلال ثورات القاهرة التى اشتعلت على جيش الغزاة الفرنسيين ، مما

كاد يفث في عَضُد الثَّوَار ويبعثر خطاهم ويشَتَّ شَمْلهم . وتستطيع أن تقف على جليّة أمر هذا البلاء فيما أثبتته الجبترى الصغير في تأريخ الحملة الفرنسية من كتابه ، وفي الجزء الأول والثاني من تأريخ الحركة القومية للرافعى ، ^(١) لولا ما في هذا الكتاب من الغفلة وسوء التأويل للأحداث والألفاظ ، فأحذره أشدّ الحذر .

...

وفي خلال هذه الفترة أيضاً ، تكاثر عدد « المستشرقين » حملة هموم المسيحية الشمالية ، وتوافدوا على مصر في كلّ زِيّ : زِيّ طلبة العِلْم والمعرفة ، وزِيّ السائح المتجول في ربوعها شمالاً وجنوباً ، وأخطرهم شأناً مَنْ لبس منهم زِيّ أهل الإسلام ، وجاور في الأزهر ، ولازم حضورَ دروس المشايخ الكبار ، وصلى مع أهل الإسلام وصام بصيامهم ، وخالط جماهير طلبة الأزهر مسلماً لا يرتاب فيه أحدٌ ، ولا يعرف أحدٌ حقيقته أو أصل بلاده التي جاء منها ، وإِنما هو مسلم كسائر المسلمين الذي يجاورون في الأزهر من كل جنس ولون . وكثيرٌ من هؤلاء من أقام في دار الإسلام إقامةً طويلةً متهاديةً ، كالمستشرق الداهية المحنك المنتسّر الخفى الوطء « فانتور » ، الذى قضى أربعين سنة يتجول في دار الإسلام ، والتحق بعدئذ بالحملة الفرنسية ، فكانَ شيطان نابليون ومستشاره وخليله ونجيه الذى لا يفارقه في الحِلّ والتَّرحال ، (انظر ما سلف : ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) ، وكان ، كما قال الجبترى : « لبيباً متبحراً يعرف اللغات التركية والعربية والرومية والطلباني والفرنسى » ، (تاريخ الجبترى ٣ : ٦٨) . ومع أن الجبترى الصغير لم يحدثنا عنهم قطّ في تاريخه قبل الحملة الفرنسية ، لأنه كان غافلاً كلّ الغفلة ، إلا أنه حدثنا عنهم زمن الحملة الفرنسية فقال :

(١) انظر ما كتبه عن الرافعى فيما سلف : ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ - ١١١ .

« وكثيرٌ من الكتب الإسلامية مترجمٌ بلغتهم ، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض ، ويُعبرون عنهم بقولهم : « شفاء شريف » ، والبُرْدَةُ للبوصيري ، ويحفظون جملةً من آياتها وترجموها بلغتهم ، ورأيت بعضهم يحفظُ سوراً من القرآن ، ولهم تطلُّع زائد للعلوم ، وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات ، واجتهادٌ كبيرٌ في معرفة اللغة والمنطق ، ويدأبون في ذلك الليل والنهار . وعندهم كتبٌ مُفردةٌ لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها ، بحيث يسهُلُ عليهم نقلُ ما يريدون من أيِّ لغةٍ كانت إلى لغتهم في أقرب وقت » ، (تاريخ الجبرق ٣ : ٣٤ ، ٣٥) .

وهذا الذي حدثنا عنه الجبرق بعد الحملة لا يتمُّ لأحدٍ إلا بعد أن يكون قد أطلَّ الإقامة في دار الإسلام ، وبعد التلقُّى الطويل عن المشايخ الكبار والصغار ، وبعد الاندماج الكامل بأهل الإسلام . وإغفالُ الجبرقي الحديث عن أحدٍ منهم قبل الحملة ، دليلٌ بينٌّ على أنَّ ذلك كُلُّه قد تمَّ في خفاءٍ وتسترٍ ، لم يُتَّحْ لمثل الجبرقي أن يتنبه لهم ، أو أن يعرف من أمر وجودهم في مصر شيئاً يحمله على التنبيه . و « فانتور » الذي أقام في دار الإسلام في مصر وغيرها أربعين سنة ، لم يعرف الجبرقي عنه شيئاً إلا بعد مجيئه مرافقاً للحملة الفرنسية ، فلقبه عندئذ مكشوف القناع ، فوصفه لنا بما وصفه ، كما مرَّ آنفاً .

ولم تكن إقامة « المستشرقين » في دار الإسلام في مصر ، مجرد طلب العلم والمعرفة ، بل كانوا يتجولون ويراقبون عمل الجاليات التي حشدوها وتولوا تغذيتها وتربيتها على ما في قلوبهم من حمل هموم المسيحية الشمالية ، وإعانتها بخبرتهم الواسعة على اليقظة والتنبيه والمراقبة = وأيضاً كانت إقامتهم لمراقبة « يقظة » دار الإسلام التي أفرعتهم حتى أرسلوا نذيرهم الحاسم المروِّع للمسيحية الشمالية = وأيضاً لتكون خبرتهم بجماهير الأمة مجتمعاً وبطوائفها المختلفة ، خبرةً متغلغلةً تفضي إلى خيرة بأفراد رجال بأعيانهم واحداً واحداً ، معروفاً عندهم باسمه ومكانه وحركته ، وبمواطن ضعفه وقوته ، وبمكامن

الهوى الميَّال الذى يستجيب ، والإرادة المصمَّمة التى تمتنع عن الاستجابة . فهى خبرة مدروسة منظَّمة واضحة المعالم فى ذهن « الاستشراق » ، (ما سلف : ١٠١) .

• وفى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى (سنة ١١٩٠ هـ / ١٧٧٦ م) ، لا يُدرى كيف اختلَّت هبة المشايخ الكبار فى قلوب بعض المماليك ، فأخذوا بالعسف القبيح أحد المشايخ ، (هو الشيخ عبد الباقي بن الشيخ عبد الوهاب العفيفى) ، أهانوه وقبضوا عليه ، ووضعوا الحديد فى رقبته ورجليه ، وأحضره فى صورة منكِّرة ، وحبسه الأمير المملوك فى حاصل أرباب الجرائم من الفلاحين . فركب الشيخ على الصعيديّ العدويّ والشيخ الجدَّاويّ وجماعة كثيرة من المتعمِّمين . وقال الشيخ الصعيديّ العدويّ للأمير : ما هذه الأفعال وهذا التجارى (أى الجرأة) ؟ فقام الأمير على أقدامه وصرَّخ : والله أكسير رأسك . فصرخ عليه الصعيديّ وسبّه وقال له : « لعنك الله ولعن اليسرَّجى (تاجر الرقيق) الذى جاء بك ، ومنَّ اشتراك ومن جعلك أميراً » . وتوسَّط بينهما الحاضرون من الأمراء يسكنون جدَّته وجدَّتهم ، وأحضره الشيخ عبد الباقي من السجن ، فأخذوه (أى المشايخ) وخرجوا به وهم يسبُّونه وهو يسمعهم . (الجبري : ٢ : ١٨) .

• واتفق فى ذلك الوقت أيضاً أن امرأة ذهبت تشكو الشيخ عبد الرحمن العريشى (مفتى الحنفية) إلى المملوك يوسف بك ، فأحضره وحبسه عند الخازندار ، فركب إليه شيخ السادات ، وكلمه فى أمره وطلبه من محبسه . فلما رأى العريشى شيخ السادات رمى عمامته وصرخ وخرج يعدو مسرعاً مكشوف الرأس وهو يقول : « بيتك خراب يا يوسف بك » ، وكان يوسف جالساً مع شيخ السادات فقام على أقدامه ، وضار يصرخ على خدمه : « أمسكوه ، اقتلوه » ، وشيخ السادات يقول له : « أى شيء هذا الفعل ؟ اجلس يا مبارك » . ونزل الشيخ وأخذ العريشى فى صحبته إلى داره ، وتلافوا القضية وسكتوها . يقول الجبري : « ثم حصل ما حصل فى الدعوى المتقدمة وما ترتب عليها من الفتنة ، وقُتل الجامع (الأزهر) ، وقتل الأنفس » (الجبري : ٢ : ١٨) .

• وقد نقلت هاتين الحادثتين لأنهما بدء الانشقاق الذى حدث بين المماليك والمشايخ ، ولأنهما نبّها المشايخ إلى عسف المماليك وجورهم ، ثم تتابعت الحوادث بعد ذلك ، وكانت ثورة الجماهير على مظالم المماليك ، وذهابهم إلى الجامع الأزهر ، وشكواهم إلى المشايخ ، فترك المشايخ دروسهم ، ويغلقون الجامع الأزهر ، ويخرجون على رأس الجماهير ، ويطالبون المماليك برفع الظلم عن الناس ، حتى كانت آخر حادثة وقعت بينهم فى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٤ م ، (أى قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات) ، حين جاء أهل قرية بشرية بلبيس يشكون الأمير محمد بك الألفى وأتباعه الذى ظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه ، واستغاثوا بالشيخ الشرقاوى ، فاغتاط حين سمع شكواهم ، فحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ ، وقفلوا أبواب الجامع ، وأمروا الناس بإغلاق الأسواق والخوانيت . ثم ركبوا فى ثانى يوم ومعهم خلق كثير من العامة وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات . فأرسل لهم المماليك أميرًا يسألهم عن مطالبهم ، فقال المشايخ : « نريد العدل ، ورفع الظلم والجور ، وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها وأحدثتموها » . فقال لهم : « حتى أبلغ » ، وانصرف ولم يعد لهم بجواب ، وانفضّ المجلس . وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر ، واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية ، وابتأوا بالمسجد . وفى اليوم الثالث اجتمع الأمراء وأرسلوا إلى المشايخ ، فحضر الشيخ السادات ، والسيد النقيب (نقيب الأشراف عمر مكرم) ، والشيخ الشرقاوى ، والشيخ البكرى ، والشيخ محمد الأمير ، ومنعوا العامة من السير خلفهم ، ودار الكلام بينهم وطال الحديث ، وانحطّ الأمر على أنهم تابوا ورجعوا بما شرطه العلماء عليهم ، وانهقد الصلح بينهم على أن يرفعوا عن الناس المظالم المحدثه والكشوفيات والتفاريذ والمكوس ، وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس ، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة . وكان

الرسالة : ٢٢ / الثورة على المماليك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها

القاضي حاضراً بالجلس ، فكتب حُجَّةً عليهم بذلك . فوقع الأمراء عليها ، ^(١) ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون : « حَسْبَ ما رسم ساداتنا العلماء ، بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بَطَّالة من مملكة الديار المصرية » = ويعقب الجبرتي على ذلك بقوله : « وفرح الناس وظنوا صحتَه ، وفتحت الأسواق ، وسكن الحال على ذلك نحو شهر ، ثم عاد كُلُّ ما كان مما ذُكر وزيادة » (الجبرتي ٢ : ٢٥٨ ، ٢٥٩) .

• وأخفى الجبرتي عنَّا كُلَّ ما كان في سنة ١٢١٠ / ١٧٩٥ م ، وبدأها بقوله : « لم يقع فيها من الحوادث التي يُعْتَنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » ، وبدأها بسطر واحد في غُرة ذى الحجة ، ثم شرع يذكر الوفيات ، (٢ : ٢٦٢ إلى ٢٦٧) . ثم جمع السنتين ١٢١١ ، ١٢١٢ هـ / ١٧٩٦ ، ١٧٩٧ م ، معاً وقال أيضاً : « لم يقع فيهما من الحوادث التي تقيّد في بطون الطروس سوى ما تقدمت الإشارة إليه ... وحضر طائفة الفرنسيين إثر ذلك في أوائل السنة التالية ، كما سيأتى خير ذلك مفصلاً » ، ثم شرع في ذكر الوفيات (٢ : ٢٦٧ - ٢٧٥) ، ختمَ الجزء الثاني من تاريخه . وهذا أمر غريبٌ جدًّا ، كأنَّ مظالم المماليك التي عادت جَذعة ، ونَقَضَهم الحُجَّة التي وقَّعوها بعد شهرٍ واحدٍ من تحريرها ، لم يكن لها وقعٌ عند جماهير الناس ولا عند المشايخ . هذا أمرٌ مستبعدٌ بلا شك ، وإنما شُغِلَ الجبرتي عن سرِّد حوادثها بما نزل بالبلاد من البلاء الماحق بحضور الفرنسيين ، فاختصر السنوات الثلاث اختصاراً ليس له شبهه في كتابه .

(١) أخطأ الجبرتي خطأ كبيراً حين لم يثبت في كتابه نصَّ هذه الوثيقة كاملةً وعليها توقيع الأمراء ، ولكن مضمونها على كل حال أفضل مئات المرات من وثيقة « الماجنا كارتا » (سنة ١٢١٥ م) ، التي حاول الإنجليز ، فيما بعد ذلك بقرون ، تفسيرها على أنها ضمانات للحريات . وقد ضاعت هذه الوثيقة فيما ضاع وأتلف في زمان الحملة الفرنسية .

• كُلُّ هذا كان يَقَعُ بِمَرَأَى وَمَسْمُوحٍ مِنْ « المُسْتَشْرِقِينَ » وَأَعْوَانِهِمْ ، وَأَدْرَكَ « المُسْتَشْرِقُونَ » أَنَّ هَذِهِ الْحَوَادِثَ الْمُتَتَابِعَةَ الَّتِي انْتَهَتْ بِإِعْلَانِ الْمَمَالِيكِ تَوْبَتَهُمْ وَرَجُوعِهِمْ عَنْ مَظَالِمِهِمْ ، حَتَّى اضْطُرُّوا إِلَى تَوْقِيعِ وَثِيقَةٍ يَشْهَدُونَ فِيهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالتَّوْبَةِ ، وَتَعَهُدُوا فِيهَا بِرَفْعِ الْمَظَالِمِ عَنِ النَّاسِ ، إِنَّمَا كَانَ نَتِيجَةً مُتَوَقَّعَةً نَابِعَةً مِنْ « الْيَقِظَةِ » وَ « النَّهْضَةِ » الَّتِي أَخَذَتْ تَعَمُّ دَارَ الْإِسْلَامِ فِي مِصْرَ = وَتَبَيَّنُوا أَيْضاً أَنَّ مَشَايِخَ الْأَزْهَرِ قَدْ صَارُوا طَلِيعَةَ هَذِهِ « الْيَقِظَةِ » وَقَادَتَهَا ، وَأَنَّ سُلْطَانَهُمْ عَلَى الْعَامَّةِ وَالْجُمَاهِيرِ ، قَدْ أَرَهَبَ الْمَمَالِيكَ وَأَفْرَعَهُمْ . وَلَوْلَا أَنَّ الْجَبْرِتِيَّ قَدْ أَخْفَى عَنَّا مَوْقِفَ الْمَشَايِخِ وَالْجُمَاهِيرِ فِي ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ بَعْدَ تَوْبَتِهِمْ ، ثُمَّ نَقَضَهُمُ الْعَهْدَ وَعَوْدَتِهِمْ إِلَى الْجَوْرِ وَالظُّلْمِ ، لَرَأَيْنَا الصِّرَاعَ وَاضِحاً جَلِيّاً بَيْنَ الْمَشَايِخِ قَادَةِ الْجُمَاهِيرِ ، وَبَيْنَ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ غَرَّهُمْ مَا كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِهِ مِنَ السُّلْطَانِ عَلَى الْجُمَاهِيرِ ، وَمَا اسْتَمْرَأُوهُ مِنْ إِيقَاعِ الْجَوْرِ وَالْمَظَالِمِ ، وَسُكُوتِ الْجُمَاهِيرِ وَاسْتِكَاتِهِمْ لَهُمْ زَمناً طَوِيلاً قَبْلَ ذَلِكَ = وَلَعَرَفْنَا أَيْضاً أَسْمَاءَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَشَايِخِ الَّذِينَ كَانُوا طَلِيعَةَ « الْيَقِظَةِ » وَقَادَتَهَا فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ مِنْ تَارِيخِ دَارِ الْإِسْلَامِ فِي مِصْرَ = وَلَرَبَّمَا عَرَفْنَا أَيْضاً أَسْمَاءَ مَنْ آتَخَزَ مِنْ أَمْرَاءِ الْمَمَالِيكِ يَوْمَئِذٍ إِلَى الْمَشَايِخِ وَالْجُمَاهِيرِ ، وَأَنْشَقَّ عَنْ جَمْهَرَةِ الْأَمْرَاءِ الْمَمَالِيكِ الَّذِينَ أَصْرَّوْا عَلَى جَوْرِهِمْ وَمَظَالِمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَرَجَعُوا عَنْ تَوْبَتِهِمْ الَّتِي شَهِدُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي الْوَثِيقَةِ أَنَّهُمْ تَابُوا وَرَجَعُوا عَنِ الْمَظَالِمِ .

• وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ أَقْبَقْنَا الْجَبْرِتِيَّ عَلَى أَسْمَاءِ سِتَّةِ مِنَ الْمَشَايِخِ الْكِبَارِ الَّذِينَ شَارَكُوا فِي الثَّوْرَةِ عَلَى الْمَمَالِيكِ وَهُمْ : « الشَّيْخُ الْعَرِيشِيُّ » مِنْتَى الْخَنْفِيَّةِ ، وَ « الشَّيْخُ السَّادَاتِ » ، وَالسَّيِّدُ نَقِيبُ الْأَشْرَافِ « عَمْرٌ مَكْرَمٌ » ، وَ « الشَّيْخُ عَبْدِ اللَّهِ الشَّرْقَاوِيُّ » شَيْخُ الْأَزْهَرِ ، وَ « الشَّيْخُ الْبَكْرِيُّ » ، وَ « الشَّيْخُ مُحَمَّدُ الْأَمِيرُ » . وَهَؤُلَاءِ السِّتَّةُ كَانُوا ضَمْنِ التَّسْعَةِ الَّذِينَ سَجَّلَ أَسْمَاءَهُمْ « نَابِلْيُون » فِي أَمْرِهِ الَّذِي أَصْدَرَهُ بِتَكْوِينِ « الدِّيَوَانِ » فِي أَوَّلِ سَاعَةٍ وَطِئَتْ قَدَمُهُ فِيهَا الْقَاهِرَةُ ، (يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ ١٠ صَفَرِ سَنَةِ ١٢١٣ هـ / ٤ يُولْيَةِ سَنَةِ ١٧٩٨ م) ، وَكَانَ تَمَامُ التَّسْعَةِ : « الشَّيْخُ مُصْطَفَى الصَّاوِي » ، وَ « الشَّيْخُ سَلِيمَانُ

الفيومي » و « الشيخ موسى السرسى » ، فرفض ثلاثة من الستة الأول أن ينضموا إلى الديوان ، وهم : « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » ، فأحل محلهم نابليون ثلاثة آخرين هم : « الشيخ مصطفى الدمنهورى » و « الشيخ يوسف الشبراخيتى » و « الشيخ محمد الدواخلى » .

كيف استجاب هؤلاء التسعة من المشايخ العلماء الكبار لغايز مسيحي بهذه السرعة العجيبة ؟ كيف استجابوا وهم يعلمون صريح أوامر الله وأوامر رسوله بقتال الغزاة لدار الإسلام ؟ كيف استجابوا وهم كانوا بالأمس القريب قد ثاروا على الأمراء المماليك يطالبونهم بإقامة الشرع ؟ كيف خافوا وضعفوا وأخطأوا الطريق ، وكان لهم مندوحة فى رفض الاستجابة ، كما فعل ثلاثة من إخوانهم العلماء الكبار ؟ ينبغى أن يكون لهذه السرعة فى الاستجابة بلا تردد تفسير يقبله العقل ، ويمهّد لهم عذراً يقبله العقل أيضاً على مَضْض .

• لما أظّل زمان مجيء الحملة الفرنسية ، وكان معلوماً بلا شك للمستشرقين المقيمين فى دار الإسلام فى مصر ، نَشِط « الاستشراق » وأعوانه وجالياته من شذاذ الآفاق الذين عبّأهم وجنّدهم ، كما أشرت إليه فيما سلف (ص : ١٢٣) = نَشِط « الاستشراق » نشاطاً سريعاً خفيّ الوطاء فى ميادين مختلفة ، لبث أفكار درسوها وأحكموها ، وأرادوا أن يشيعوها بين جماهير دار الإسلام فى مصر ، للتحكّم فى تصريف أموره وغاياته ، ولتتمكّن من إشعال نيران الفتن حين تنزل الحملة الفرنسية أرض مصر ، ليفرقوا بهذه الفتن شمل الناس ويمزقوهم ويشغلوهم عن الكيد الخفى المكيفلى الذى يراؤ بهم ، (ما سلف : ١٠١ ، ١٢٣) .

كان أكبر نشاط « الاستشراق » موجّهاً إلى المشايخ الكبار الذين ثاروا بالأمس القريب على طائفة الأمراء من المماليك المصرية مرّات ، حتّى خضعوا ووقعوا على وثيقة

يشهدون فيها على أنفسهم بالشر ، ويعتدون به تبرعاً بظلم حتى أوقعوها على جماهير الأمة ، وبالتزام أوامر الشرع ، ونكثهم لم يقوا بذلك ، نقضوا الوثيقة ، وعادوا بعد شهر واحد إلى جورهم ومظالمهم وزيادة ، كما قالوا ، الجور ليساً مطلب قريباً . ولا شك أن نقض هذه الوثيقة ، قد أوثق قلب المشايخ الكبار غضباً وكراهة لمطابقة الأمراء المماليك الذين لا يرعون لله إلا ولا عبداً ولا زمناً ، ولا يقسمون بشرع حرمة ، ولا للمشايخ هبة ولا كرامة . كان هذا كله معلوماً واضحاً عند « المستشرق » وأعوانه وحواشيه .

فلما دنا نزول جنود الفرنسيين نحو الإسكندرية ، كانت الأخبار قد وصلت إلى القاهرة غامضة ، فلم يتم أمراء المماليك بشيء من ذلك ولم يكرهوا به اعتماداً على قوتهم ، فقالوا وزعموا : أنه إذا جاءت جميع الأفواج لا يتقدم في مقابلتهم ، وأنهم يدوسونهم بخيولهم ، (الجزء ٣ : ٢) . وعلقتهم خرج « المستشرق » من مكانه ، وخرج « المستشرقون » الذين كانوا يترقبون بريق أهل الإسلام ، وشاورون في الأزهر لطلب علم الدين والدنيا مسلمين ، وتعالفون للمشايخ الكبار ، درسهم ويوتهم ، لا يميزهم شيء عن سائر المسلمين المجاورين في الأزهر من كل جنس وأصل وطأوا على المشايخ الكبار ، وبرفق ودهاء ومكر فاقحهم في شأن الفرنسيين الذين شاخ أنهم قد دنا نزولهم أرض مصر ، فنصيحة لله ولرسوله وأتباعه فيما هم عليه على علم بشأن هؤلاء الفرنسيين ، وأن الذي يحملهم على القدوم إلى الديار المصرية هو ما كان المماليك يعاملون به الجالية الفرنسية بإذلال واحتقار ، ويظلمون تجارهم بأنهم الإنشاء والتعدي ، كما يظلمون جماهير أمة الإسلام في مصر بالأوان من الحر والظلم والمهانة ، وإقدامهم على مخالفة الشرع ، وعلى نقض العهود والمواثيق ، وجراتهم على هبة المشايخ الكبار بلا رعاية لكرامتهم = وأن كل هدف الفرنسيين هو رفع الظلم الواقع على تجارهم ، وتخليص حق الأمة الإسلامية من يد الظالمين ، والقضاء على دولة المماليك الفاسدة الظالمة ، ووضع أمور البلاد في يد العلماء والفضلاء من أهالي مصر .

وظلّوا يفتّلون لهم في الذرّوة والغارب برفقٍ ودهاء ، حتى انتهوا إلى أن الفرنسيّس لم يُقدّموا على نيّة القضاء على دولة المماليك ، إلّا باتفاقٍ مع السلطان العثماني ، لأنهم أحبّأوه المخلصون ، والمماليك كثيراً ما امتنعوا عن طاعة السلطان ولم يمتثلوا لأمره = وأنهم يحترمون النبيّ ﷺ والقرآن العظيم ، وأنهم هم الذين نزلوا في رومية وخربوا كرسيّ البابا الذي كان دائماً يُحُثّ النصارى على محاربة المسلمين . واستمع المشايخُ لهذا وأمثاله ، ولقّة علمهم بما هو خارجٌ عن حدود القاهرة ، ألّا مثّل هذا الحديث قلوب أكثرهم وعزّتهم الأمانى ، وعدّوه نصيحةً لله ولرسوله وللمؤمنين .

وكان آخرون من « المستشرقين » لهم مودّة بالمماليك ، يُفادّونهم ويهوّنون عليهم شأن الفرنسيّس ، ويُمَنّونهم بالظفر عليهم إذا هم أقدموا على دخول القاهرة ، ويزيدونهم إصراراً على الغرور بقوّتهم ، وأنهم إذا جاءت الإفرنج ، فهم قادرون على أن يدوسوهم بخيولهم . أمّا الذين كانوا منهم يطوفون بالمشايخ ، فكانوا يخوّفونهم من تهوّر المماليك ، وأنهم لا علم لهم بقوّة الفرنسيّس ، وما في حوزتهم من المدافع والأسلحة ، مما لا يملك مثله المماليك ، وأنّه إذا وقعت الواقعة ، لم تُغن عن المماليك مدافعهم وأسلحتهم ، وأنهم سرّعان ما يفرون من وجه الفرنسيّس ، ثم يتفرّقون شذّر مدّر ، ويتركون القاهرة مكشوفة بلا حامٍ يحميها أو يدافع عنها .

وكان آخرون من « المستشرقين » يتأهّبون لإحداث فتنةٍ كبيرة ، إذا ما دخلت جيوش الفرنسيّس القاهرة ، فطافوا بالكنيسة القبطية المصرية ، وحاولوا أن يستثيروا حميّتها ، وأن يُغرّوها بأنّ استجابتهم للفرنسيّس إنّما هو نُصرةٌ لدين المسيح على دين الإسلام ، وأن واجهم ديانةً أن يناصروا الفرنسيّس ، ويناصبوا المسلمين العداء ، حتى تعلو راية المسيحية ، ويصبح المسلمون أتباعاً لهم ورعيّة لا سلطان لها ، لا يملكون إلا الطاعة المستكينّة لدين المسيح . بيد أنّ الكنيسة القبطية أعرضت عنهم وعن إغرائهم ، لسبب بيّنه لنا المستشرق الإنجليزي « إدوارد وليم لين » في كتابه « المصريون

الرسالة : ٢٢ / حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية ، لما لم تستجب لإغرائهم

المحدثون ، شمائلهم وعاداتهم » ، بعد جلاء الفرنسيين عن مصر بأربع وثلاثين سنة (سنة ١٨٣٤) فقال :

« ومن أكثر الخصائص اعتباراً في خُلُق الأقباط تعصُّبهم الشديد ، وهم يكرهون المسيحيين الآخرين جميعاً كراهية شديدة ، (يعنى المسيحيين الشماليين) ، تُفوق أيضاً كراهية المسلمين للكفار في الإسلام . ويعتبرهم المسلمون مع ذلك أكثر المسيحيين مَيْلاً للإسلام » . (١)

لذلك لم يَسْتَجِب للمستشرقين أحدٌ من رجال الكنيسة القبطية ، وأخفقوا إخفاقاً كاملاً ؛ فولَّوا وجوههم شَطْر طائفة الأقباط الأغنياء الذى كان عملهم جباية الأموال ، وضبط ماليّة الممالك ، فاستعصى عليهم أكثرهم ، واستجاب لهم جاني المملوك « محمد بك الألفى » ، وهو المعروف باسم « المعلم يعقوب » ، وجمع لهم من سِفلة القبط وعامتهم وغوغائهم عدداً كبيراً ، وانضمَّ جهرةً إلى الفرنسيين ، فكَوَّن منهم « نابليون » فيما بعد جيشاً سماه « جيش الأقباط » ، على كراهية الكنيسة القبطية وعلى غير رضاها . وهذا الخسيس « المعلم يعقوب » ، كان هو وجيشه فتنةً كبيرةً ، وبلاءً وبيلاً . (٢)

(١) ترجمة كتاب لين « المصريون المحدثون » ص : ٤٦٣ ؛ الطبعة الثانية : فى باب « الأقباط » ، على ما فى هذه الترجمة من ضعف العبارة . ولأن الكنيسة القبطية ، لم تكن مطمئنة إلى هؤلاء المسيحيين الشماليين وترتاب فيهم ، هجاهم لين هجاءً شديداً (ص : ٤٦٣) ، وهجا بطرك الأقباط ، وزعم أنه كان مستبداً يُعْرِى على شهادة الزور ، وأن القسس والرهبان جهلاء خادعون خائنون ، يسعون وراء المنفعة الدنيوية واللذات الجنسية ، وأنهم يتسوّلون ويستدينون نقوداً لا يردُّونها . وهذه شيمة المسيحية الشمالية فى الافتراء والطعن على من لا يستجيب لهم . وانظر إلى حقد « الاستشراق » الذى ظلَّ كامناً أربعةً وثلاثين سنة ، ثم استعلن .

(٢) تستطيع أن تقف على أخبار هذه الفتنة فى تاريخ الجبرتي ، وفى كتاب الرافعى ، وفى كتاب الأستاذ محمد جلال كشك ، الذى سمَّاه : « ودخلت الخيل الأزهر » .

• لما وقعت الواقعة ، وازل سفير الفرنسيين أرسل الإسكندرية ، واجتاحوا بلاد الوجه البحرى بحرقون القرى ، وتكويون الدماء ، سيقوم إلى القاهرة منشور نابليون المؤرخ آخر المحرم سنة ١٢١٢ هـ ، يضم المستشرقان « فانتر » و « مارسل » = رأى المشايخ فيه جُل ما طرأ عليهم من حديدت المستشرقين الذين كانوا يتزؤون بزى الإسلام ، وجاءتهم أثناء سرائر الرمن وسنكت النصارى ، حين قلعهم المصريون الجيش الغازى ، كما توعد نابليون في مشوره . كل من يقاوم . ثم بعد أيام قلائل وصل نابليون مشارف القاهرة ، ولقى حيشه جيش المماليك المصرية ، ودارت الدائرة على المماليك ، وأخذهم الرعب ، وتفرقوا شذر بذر ، وتركوا القاهرة غارية مكشوفة ليس لها حام يحميها ، فكان ذلك كله مستأفاً لما سمعه المشايخ من « المستشرقين » ، فوجفت قلوبهم ، وخافوا أن يحل بالقاهرة ما حل بئر الوجه البحرى من الفظائع . فلما دخل نابليون القاهرة ، وأصدر أمره بتكوين « الديوان » من تسعة من المشايخ الكبار ، استجاب ستة منهم لدعوة نابليون ، ثم استجاب أيضاً ثلاثة آخرون تمام التسعة ، بعد رفض « السادات » و « عمر مكرم » و « محمد الأمير » أن يستجيبوا لدعوته . والذي دعا هؤلاء للاستجابة خوفهم على مسير القاهرة التى تركت بلا حام يحميها ، بعد أن خذلها حمايتها من صناديد الحرب والقتال . وهم المماليك المصرية . فلم ير المشايخ سبيلاً إلى حقن دماء العامة رجالاً ونساءً إلا المهادنة ، وإلا السبر والسكينة حتى يكشف الله هذه الغمة بما شاء سبحانه .

فكانت استجابة هؤلاء المشايخ التسعة لتكوين « الديوان » منهم أول زلة ، وكانت هذه الاستجابة أيضاً أول نجاح حازه « الاستشراق » في « تدجين » بعض المشايخ الكبار ، ولكن لم تلبث الأمة خاصتها وعامتها أن رفضت الاستماع إلى هؤلاء المشايخ « المدجنين » ، واستمحت إلى آخرين من المشايخ ، وإلى صيفار طلبية العلم بالأزهر الذين

رفضوا نصيحة المشايخ التسعة الكبار ، وقامت ثورة القاهرة وثورات الأقاليم ، بعد ثلاثة أشهر من « تدجين » التسعة الكبار ، ومن دخول جزّار القاهرة أرضاً لم تطأها من قبل قدم غازي صليبي محترق كالميكافلي « نابليون » ، الذي غرّ هؤلاء التسعة ، وخدعهم حُسن استقباله لهم وتوقيعهم خداعاً لهم بمداهنته ومكره ودهائه ، (اقرأ ما سلف : ١٠٢ - ١٠٨) .

وكان بعد ذلك ما كان من سفح الدماء ليلاً ونهاراً ، جَهْرَةً وَخُفِيَةً ، لم يستثن الجزّار ولا خلفاؤه شيخاً فانياً ، ولا طفلاً رضيعاً ، ولا امرأة عاجزةً ، حتى انكشف هو وجُنوده من أرض مصر بعد ثلاث سنوات خِزَايَا مقهورين ، (ما سلف : ٩٢ - ٩٦) .

...

٢٣ - لم تذهب معاناة دار الإسلام في مصر من بلايا السنوات الثلاث هَدَرًا ، فإن ثوراتها على جُنْد الفرنسيين قد أخرجت من غمارِ الناس ومن مشايخ الأزهر قادة جُددًا قد نجّدهم الصِّراعُ والقتالُ وعَلَّمهم ما لم يكونوا يعلمون ، وأصبحوا هم حُماة القاهرة والسَّاهرين على الذِّيارِ عنها ، على قُرْب عهدهم بمزاولة الحماية والدِّفاع . ومضت أربع سنوات بعد رحيل الفرنسيين ، واضطربت أمور إدارة البلاد ، ولكن ظلَّ المشايخ الكبار والقادة الجُدد من جماهير الشعب في مصر ، رُقباءً على كُلِّ مَنْ يحاول أن يتصدّر لإدارة أمور البلاد ، وخاصةً المماليك الذين عادوا بعد غيابهم ثلاث سنوات كانوا فيها معزولين عن مباشرة ما كانوا يباشرون من قبل الحملة الفرنسية من الإدارة وحماية البلاد . وأخيراً استقرَّ رأيُ المشايخ والقادة على إسناد الأمر إلى رجل كانت تركية بعثته مع ثلاثمائة من الجُنْد في أواخر أيام الحملة الفرنسية ، وكان اسمه « محمد علي سرششمة » ، و « سرششمة » دَرَجَةٌ بسيطةٌ يلقَّبُ بها قائد عددٍ من الجنود في الدولة العثمانية ، كان ذلك في سنة ١٨٠١ م (١٢١٦ هـ) .

كان « محمد علي سرششمة » هذا ، الذي أسند إليه أمرُ ولاية مصر في سنة

١٨٠٥ ، (١٢٢٠ هـ) ، في الخامسة والثلاثين من عمره . وكان جاهلاً لم يتعلم قط شيئاً من العلوم ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وقضى أكثر عمره تاجراً يتاجر في « الدخان » ، ثم انضم إلى الجند ، ولكنه كان ذكياً ذاهية عريق المكر ، يلبس لكل حالة لبوسها ، وكان مغامراً لا يتورع عن كذب ولا نفاق ولا غدر . وفي أثناء مُقامه في مصر من سنة ١٨٠١ م إلى سنة ١٨٠٥ م ، يراقب اضطراب أمورها واختلال إدارتها ، وينظره الثاقب وذكائه ، خالط المشايخ والقادة والمماليك الذين حاولوا العودة إلى ولاية الأمور في مصر ، فناقهم جميعاً ، وأظهر لجميعهم المودة والتّصح وسلامة الصدر ، حتّى انخدع به المشايخ والقادة ، وآثروا ولايته على ولاية المماليك ، فنصبوه والياً على مصر ، وعلى رأس من انخدع به « السيد عمر مكرم » ، أكبر قائد للمشايخ والجماهير ، فبذل كل جهده في إسناد ولاية مصر إليه . وكان ما أراد الله أن يكون .

• لم يكن « الاستشراق » ، وخاصة « الاستشراق » الفرنسي ، غافلاً عن هذا المغامر الجديد وعن خلائقه ، بل كان مراقباً له كلّ المراقبة من أوّل يوم جاء فيه إلى القاهرة ، ومراقباً أيضاً لكلّ ما كان يجري في مصر منذ رجيل الحملة الفرنسية . فلما تمت ولاية « محمد علي سرشمة » على الديار المصرية ، أحاطت به قناصل المسيحية الشمالية إحاطة كاملة = و « القناصل » هم « الاستشراق » نفسه في صورته السياسية = فبدأوا يفتّلون له في الذروة والغارب ، ويوغرون صدره على المشايخ والقادة الذين نصبوه والياً على مصر ، ويخوّفونه عاقبة سُلطانهم على جماهير الأمة . وصادف ذلك استجابة طبيعية ، لما في قلب هذا المغامر الجريء من الذّهاء والخُبث وتركّ التورّع عن العذر وإنكار الجميل وحُبّ التفرد بالسلطان الذي ناله بفتة ، ولم يكن قط في حياته يتوهم أن يناله أو ينال ما هو دونه بكثير .

فكانت أوّل غدره غدرها « محمد علي سرشمة » هذا بالذي نصبه والياً على مصر ، وبذل له في ذلك كلّ جهد ، وهو قائد الأمة مشايخها وجماهيرها ، نقيب

الأشراف « السيد عمر مكرم » ، فإنه بمكره ودهائه أوقع بينه وبين بعض المشايخ ، ثم انتهى الأمر بأن نزح عنه نقابة الأشراف ، ثم نفاه إلى دمياط في أول رجب ١٢٢٤ هـ (١٢ أغسطس ١٨٠٩ م) ، أى بعد ولاية هذا المغامر الغدار بأربع سنوات فقط ، وبقي السيد عمر في منفاه الأول هذا عشر سنوات ، حتى استدعاه إلى القاهرة فجاءها في ١٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٤ هـ (٩ يناير سنة ١٨١٩ م) ، ثم عاد ونفاه مرة أخرى إلى طنطا ٢٢ رجب سنة ١٢٣٧ هـ (١٥ إبريل سنة ١٨٢٢ م) ، فتوفي رحمه الله في تلك السنة نفسها . ثم استدار بعد ذلك على المشايخ يوقع بينهم ، ليوهى سلطانهم على جماهير الأمة ، ويُفتت قوة الجماهير بعسفه وظلمه وإرهابه وجبروته ، بعد القضاء على قادتهم وتشتيت شملهم ، وكذلك كان ، والأمر لله من قبل ومن بعد . وكذلك ظفر « الاستشراق » بالمشايخ الكبار ، ومهد لعزل الأزهر ومشايخه عن قيادة الأمة ، وأوغر صدر هذا الجبار ، ومكن في قرارة قلبه بغض الأزهر وشيوخه وطلبة العلم المجاورين فيه ، وانفرد هو بأذن هذا الجاهل الجريء المستبد ، يوحنون إليه بما يريدون وما يبيتون ، ويُتمون ما بدأوا به من وأد « اليقظة » التى تهددهم بها دار الإسلام في مصر ، على يد مسلم جاهل غرأهوج ، لا يعرف كثيراً ولا قليلاً من « الثقافة المتكاملة » التى حفظت دار الإسلام قروناً طوالاً ، وكانت لب « اليقظة » و « النهضة » الوليدة التى كان قريباً جداً أن توتى ثمارها .

...

• وثبت هذا الطاغية « محمد علي سرشمة » قواعد ملكه ، وازداد إطباق « القناصل » و « المستشرقين » على عقله وقلبه ، وخاصة الفرنسيون منهم ، وكانت إنجلترا ومستشرقوها ما فتئت تخوف الدولة التركية وتولبها على مهد « اليقظة » في جزيرة العرب ، والتى قام بها وأسسها « محمد بن عبد الوهاب » (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ / ١٧٠٣ -

١٧٩٢ م) ، (انظر ما سلف : ٨٢ ، ٨٨ ، ١١٨) . واستجابت دار الخلافة بغفلتها إلى هذا التأليب ، حتى جردت حملات متتابعة لقمع « اليقظة » الوهاية ، وآبت في جميعها بالإخفاق . ثم منذ ولى « محمد علي سرشمة » جعلت تركية تدعوه إلى تجريد جيوشه لقتال الوهابيين ، وتتابع هذا الطلب من سنة ١٨٠٧ م إلى سنة ١٨١٠ م (١٢٢٢ - ١٢٢٥ هـ) ، فلم يستجب لنداء تركية ، ولكن « الاستشراق » بقناصله زين أخيراً لمحمد علي سرشمة أن يستجيب ، ليحقق مآربه في واد « اليقظة » التي كادت تعم جزيرة العرب ، وأمدّوه بالسلاح الذى يعينه على خوض الحرب ، وذلك فى سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١١ م ، (أى بعد ولايته مصر بست سنوات) ، وسارت الجيوش قاصدة جزيرة العرب ، ودارت الحربُ التى لم تنته إلا بعد ثمان سنوات ، فى سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م ، وفقدت الجيوش المصرية آلافاً من أبنائها ، ولقيت هزائم كادت تودى بها . وأخيراً تم النصر لمحمد علي سرشمة ، بعد أن ارتكب من الفظائع ما لا يستحلّه مسلم ، واستباح الديار والأموال والنساء ، وهدم المُدن ، فكان هو وابنه إبراهيم وسائر أولاده طُغاةً من شرّ الطُغاة . وكانت حرباً طاحنة لا معنى لها ، ولا ينتفع بها إلا مؤرثوها من ذُهاة المسيحية الشمالية .

وكذلك أدرك « الاستشراق » ، وأدركت المسيحية الشمالية ، مأرباً من أكبر مآربها فى واد « اليقظة » التى كانت تهددهم بها دار الإسلام فى جزيرة العرب ، والتى كانت تخشى المسيحية الشمالية أن تنضم هذه « اليقظة » إلى « اليقظة » الكائنة فى دار الإسلام فى مصر ، فيؤمنذ لا يعلم غير الله ما تكون العواقب ، كما أسلفت (انظر : ١١٨) ، وتمّ كلّ ذلك على يد مسلمين جهلة يُوجههم « الاستشراق » والمسيحية الشمالية من حيث لا يُبصرون ولا يعلمون ماذا يُراد بهم ، ولا إلى أى هُوةٍ من الهلكة يُساقون . والأمر لله من قبل ومن بعد .

• يقول الكاتب المؤرخ المُدجّن « عبد الرحمن الرافعي » في كتابه : « تاريخ الحركة القومية ، الجزء الثالث ، عصر محمد علي » ص : ٤٥٢ في باب « البعثات العلمية » :
« لو تأملت ملياً في العصر الذي نشأت فيه هذه الفكرة ، واحتلجت في نفس محمد علي ، لعجبت لعبقريته كيف أنبت هذا المشروع . ففي ذلك العصر لم يفكر حاكم « شرقي » ولا حكومة شرقية في إيفاد مثل هذه البعثات . وهذه تركية = وسلاطنها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد علي = لم تفكر حينذاك أصلاً في إيفاد البعثات المدرسية إلى المعاهد الأوربية ، فصدور هذه الفكرة ، في ذلك العصر ، وفي الوقت الذي كان محمد علي مشغولاً فيه بمختلف الحروب والمشاريع والهواجس ، يدلُّ حقيقةً على عبقرية نادرة وهمة عالية » ... تأمل ثم تأمل ، وبنا للعجب هؤلاء المؤرخين المُدجّنين !

والحقيقة أن فكرة « البعثات العلمية » لم تكن نابعة من عقل هذا الجنديّ الجاهل « محمد علي » ، بل كانت نابعةً من عقول تخطط وتدبر لأهداف بعيدة المدى ، استغلت ما في نفسه من المطامع ، وحُبَّ للسيطرة ، أحاطت به « القناصل » وهي تراقب أهواءه ومطامعه ، فجعلت تغذّيها وتزيدها توهّجاً ، لتجعله قوّة في قلب دار الإسلام ، تُنازع دار الخلافة في تركية سلطانها ، وتنشئ عنها انشقاقاً يزيد في تفكك دار الإسلام ، ويُسرّع في انهيار دار الخلافة ، وفي تمزيقها وضعفها وارتخاء قبضتها على أطراف دار الإسلام ، ويمهد للمسيحية الشمالية السبيل إلى تخطف أقاليم دار الإسلام بعد أن تصير أشلاء ممزقة عاجزة عن الدفاع عن نفسها = على أن تكون هذه القوّة الجديدة ، قوّة محمد علي ، في قبضة المسيحية الشمالية ، تصرفها كيف تشاء ، وتقضي عليها قضاءً مُدمراً يوم تحتاج إلى هذا التدمير . ولذلك كانت هذه البعثات الصغيرة كلها ، منذ سنة ١٨١٣ م ، تتعلق بالصنائع التي تتعلق ببناء الجيش المصري لا أكثر ، وكانت هذه البعثات أيضاً قليلة العدد ، ينتفع بها محمد علي في حروبه في جزيرة العرب (من سنة ١٨١١ -

١٨١٩ م) ، وفي تخطيط أجزاء أخرى كانت تحت سلطان الدولة العثمانية ودار الخلافة ، ليزيد هذا التخطيط في ضعفها وتفككها . هذه كانت غاية « القناصل » الذين أحاطوا بمحمد على إحاطة كاملة ، وصاروا عقله الذي يفكر به ، وصار هو دُمِيَّة في أيديهم يحركونها إلى غاياتهم ومقاصدهم .

ولما فرغ « محمد على » من تخطيط « اليقظة » التي كانت في جزيرة العرب ، سنة ١٨١٩ م ، وعلا بذلك شأنه ، وأرسى قواعد ملكه في الديار المصرية = كان في فرنسا رجل كبير ممن شاركوا في الحملة الفرنسية ، كان مهندساً بارعاً ، وكانت له منزلة كبيرة عند « نابليون » والمستشرق « فانتور » خليل نابليون ونَجِيَّه ، وانتخب بعد عودته إلى فرنسا عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يخص مصر ، هو المسيو جومار . (آدم فرنسوا جومار - ١٧٧٧ - ١٨٦٢ م) . فلما رأى نجاح « القناصل » في إغراء « محمد على » بإرسال البعثات إلى أوربة ، ما بين سنة ١٨١١ إلى سنة ١٨١٩ م = أسرع جومار بحث « الاستشراق » الفرنسي وقناصله في مصر ، على إغراء محمد على بإرسال بعثات كبيرة إلى فرنسا ، ليجعلها تحت إشرافه ، ولينفذ مشروع « نابليون » الذي بينه لخليفته « كليبر » في رسالته إليه ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) .

وإذا كان « نابليون » = بتخطيط المستشرق « فانتور » = قد بنى مشروعه على أن يجتهد « كليبر » في أن يجمع ٥٠٠ ، أو ٦٠٠ شخص من المماليك ، فإن لم يجد العدد كافياً ، فليستعضع عنهم برهائن من العرب ومشايخ البلدان ، ويسفرهم إلى فرنسا ، فإذا ما وصلوا حُجزوا مدة سنة أو سنتين ، يشاهدون في أثنائها عظمة الأمة الفرنسية ، ويعتادون على لغتها وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر ، كان لفرنسا منهم حزب يُضمُّ إليهم غيرهم = إذا كان مشروع نابليون ، الذي يراؤه به تكوين حزب للفرنسيين في مصر ، معتمداً على الولاة من المماليك ومشايخ البلدان الذين يتولون حُكم البلاد في زمانه ، فإن

« جومار » قد طَوَّر هذا المشروع تطويراً كبيراً ، بعد خمس وعشرين سنة من رحيل الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ م = ويكون حزباً لفرنسا في مصر أخطر من حزب نابليون .

لقد سنحت لجومار أعظم فرصة باستجابة محمد علي لإرسال بعثات إلى أوربة ، فبنى مشروعه ، لا على كبار السن من المماليك ومشايخ البلدان ، بل على شباب غَضَّ يَتَّقُونَ في فرنسا سنواتٍ تطول أو تقصر ، يكونون أشد استجابة على اعتياد لغة فرنسا وتقاليدها ، فإذا عادوا إلى مصر كانوا حزباً لفرنسا ، وعلى مرّ الأيام يكبرون ويتولَّون المناصبَ صغيرها وكبيرها ، ويكون أثرهم أشدَّ تأثيراً في بناء جماهير كثيرة تبث الأفكار التي يتلقونها في صميم شعب دار الإسلام في مصر . هكذا طَوَّر جومار مشروع نابليون الذي لم يستطع « كليبر » أن يحققه وهلك دونه .

...

نجح جومار ، ونجح « الاستشراق » وقناصله في إغراء محمد علي بإرسال بعثة كبيرة من شباب مصر إلى فرنسا في يولييه سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤٢ هـ) ، وتتابعت هذه البعثات إلى سنة ١٨٤٧ م (سنة ١٢٦٤ هـ) ، وكانت كلها تحت إشراف « جومار » يصنعها على عينه . كانوا شبَّاناً صغاراً ، ليس في عقولهم ولا قلوبهم إلا القليل الذي لا يُغنى من « الثقافة المتكاملة » التي عاشت فيها أمّتهم قروناً متطاولةً ، ووضعهم جومار تحت أيدي « المستشرقين » يوجّهونهم من حيث لا يشعرون إلى الجهة التي يريدونها ، ويُعطونهم القدرَ اليسيرَ المتَّفَق عليه بينهم من العلوم التي يدرسونها ، ثم يردّونهم بعد سنوات قلائل إلى مصر ، وإلى دولة محمد علي التي أسَّسها ، وهو ودولته في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ومُشُورتهم ، لا يستطيع فكاًكاً منها ، لأنه كان جاهلاً لم يتعلَّم علماً قط ، حتى الخط والكتابة لم يتعلمهما إلّا وهو في الخامسة والأربعين من عمره (سنة ١٨١٥ م / ١٢٢٩ هـ) .

كانت أول بعثة في سنة ١٨٢٦ م (سنة ١٢٤١ هـ) ، فيها ٤٤ تلميذاً ، أدخلهم مسيو جومار المدارس الفرنسية ، ليتلقوا اللغة والعلوم والفنون ، ثم أعيدوا بعد سنوات قلائل إلى بلادهم يتولون المناصب والأعمال . وهذا شيء غريب جداً أن يكون هؤلاء الشبان قد حازوا في سنوات قلائل من العلوم والفنون التي شابت نواصي العلماء في سبيلها ، ما يؤهلهم للتدريس والصناعات والأعمال وجلائل الأمور . شيء غريب جداً !! وهم قبل سفرهم لم يحصلوا من هذه العلوم والفنون الجديدة شيئاً يذكر ، أليس هذه الدعوى غريبة كل الغرابة ؟

• وكان في هذه البعثة الأولى ، رجلٌ قد خرج مع البعثة إماماً لها ، ليراقب أفراد البعثة ، ويصلي بهم الصلوات الخمس ، هو « رفاة رافع الطهطاوى » ، ولد بمدينة طهطا بمديرية حرجا سنة ١٢١٦ هـ ، (١٨٠١ م) في أسرة رقيقة الحال ، فأتى حفظ القرآن ، وقرأ شيئاً من متون العلم المتداولة على بعض العلماء في بلده ، ثم توفي والده رحمه الله ، فرحل إلى القاهرة وهو في السادسة عشرة من عمره ، (١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م) ، وانتظم في سلك طلبة الأزهر ، يتلقى العلم عن شيوخه ثمانى سنوات ، وكان محباً للأدب . وفي سنة ١٢٤٠ هـ / ١٨٢٤ م عُيِّن واعظاً وإماماً في أحد أليات جيش محمد علي . فهذا إذن شاب في الثالثة والعشرين من عمره ، لا يمكن أن يكون قد بلغ مبلغاً له شأن يذكر في « المتانة المتكاملة » التي عاشت فيها أمته ثلاثة عشر قرناً في حضارة متكاملة مترامية الأطراف ، متباعدة الدرجات ، متنوعة العلوم ، قد بلغت في العظمة والجلالة مبلغاً لم تدركه قبلها أمة من الأمم .

ثم يُختار هذا الشاب في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٦ م ليصحب بعثة إلى فرنسا ، يكون إماماً لأعضائها . كان ذكياً ، نعم . كان محباً للعلم والأدب (أدب عصره وشعر عصره) ، نعم . كان قوى العزيمة ، نعم . كان نابهاً بين أقرانه ، نعم ، ولكنه على ذلك كله في

الخامسة والعشرين من عمره ، غَرِيْرٌ بَيْنُ الْعَرَاةِ ، طَرِيُّ الْعُودِ ، قد جاء من أقصى الصَّعِيدِ ، ومن ظُلُمَاتِهِ وبُؤْسِهِ وفقره وخصاصته ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، ثم أقام تسع سنواتٍ فى القاهرة ، فى حَوَارَى الأزهر المهْدَمةِ المَحْرَبَةِ بيوْتُها بفعل الفرنسيين ، الضَّيْقَةُ طُرُقَاتُهَا ، المَظْلَمَةُ أَرْقَتْهَا = ثم يركبُ سفينة فرنسية تتلأأ أنوارها ترمى به إلى قلب باريس (فى القرن التاسع عشر) ، بخدائِها وميادينها وأنوارها ومباهجها ، وما لا رآته من قَبْلِ عَيْنٍ كعينه ، وما لا خَطَرَ على قلبٍ كقلبه . أئى فِتْنَةٍ تذهب بعقل هذا الفتى ، وترجُّه رجًّا لا قِبَلَ لمثله باحتماله ؟ وكذلك كان !

أئى صَيِّدٍ سَمِينٍ تَلَقَّفَهُ « المسيو جومار » بخبرته وحُكْمَتِهِ وتجربته وبَصَرَهُ النافذ ؟ فتى ناشئٌ فى قلب الأزهر ، ذكى ، محبٌ للعلم والتحصيل ، قوى العزيمة ، رآه مفتوناً بالأرض التى وطئها قدمه ، لم يَرِ مثُلها من قَبْلِ ، ورآه مُقْبِلًا بأقصى عزميته على تعلُّم لغته الفرنسية ، معجباً بها وبأهلها كُلِّ الإعجاب ، فأخذه « جومار » من قريب ، فكان له صيداً أئى صَيِّدٍ ! يقول الرافعى المؤرخ المدجَّن فى كتابه (٤٧٦ : ٣) : « ولقد كان معه ثلاثة أئمة آخرون للبعثة ، فلم تتحرك نفس أحدٍ منهم إلى الاعتراف من مناهل العلم فى فرنسا (!!) ، ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة ، أما الشيخ رفاة ، فكان ذا نفس طامحة إلى العُلا ، فأخذ يدرسُ اللغة الفرنسية ، وعكفَ عليها من تلقاء نفسه ، رغبةً منه فى تحصيل علومها وآدابها . » ويقول رفاة الطهطاوى نفسه أنه قضى فى تعلُّمها ثلاث سنوات .

ولم يكذُ حتى أخذ « المسيو جومار » بناصيته ، وأسلمه لطائفة من « المستشرقين » ، يصاحبونه ويوجِّهونه ، وعلى رأسهم أحد دهاقين « الاستشراق » الكبار ودُّهاته ، وهو المستشرق المشهور البارون « سلفستر دى ساسى » . لم يكن لهذا الفتى الأزهرى الصبيعدى المفتون مَخْلَصٌ من أحابيلهم ودَهائهم ومَكْرهم ورقَّة حاشيتهم ومداهنتهم ، فاستغلُّوه أبرعَ استغلالٍ ، وصبُّوا فى أذنيه ، وطَرَحُوا فى قَرَارَةِ قلبه معانى

وأفكاراً قد يَبْتَوها ودرسوها وعرفوا عواقبها وثمراتها حين تَنمو في دَخيلة نَفسه ، ^(١) وهم يزيدونه فِتْنَةً بإشهادهم روائع المحافل التى تتألّق أنوارها ، وتتألّق تحت أنوارها أيضاً مفاتن النساء الكاسيات العاريات ، والرجال ذَوِي الأُبْهة يَحْتالون في شمائل الرقّة الفرنسية ، فزادوه فِتْنَةً ، وزادوا غفلته غَفْلَةً ، وانتزعوه انتزاعاً مما كان يعيش فيه من ظلمات الصعيد ويؤسسه وفقره ، ومن حوارى الأزهر المحرّبة وطرقاتها الضيقة وأزقتها المظلمة ، حتى نسي نَفْسُهُ التى صاحبها خمساً وعشرين سنة ، وتنكّر لماضيهِ القريب وأعرض عنه ، وسارع ينجو بحياته الجديدة من خطاطيفه التى تلاحقه .

وقضى رفاة رحمه الله ست سنوات في باريس من سنة ١٢٤١ - ١٢٤٦ هـ ، (١٨٢٦ - ١٨٣١ م) ، قضى ثلاث سنوات منها في تعلّم اللغة الفرنسية كما قال هو بلسانه ، وفي الثلاث الأخر درس التاريخ ، والجغرافيا والفلسفة ، والآداب الفرنسية ، وقرأ مؤلّفات فولتير وجان جاك روسو ، ومنتسكيو ، وقرأ بعض الكتب في المعادن ، وفنّ العسكرية ، والرياضيات ، (انظر كتاب الرافعى ٣ : ٤٧٦ وما بعدها) = فحدّثنى بربّك كيف تكون دراسة هذه المتنوعات في ثلاث سنواتٍ ، إلّا أن يكون ذلك كلّ خطفاً كَحَسُو الطائر ، وأن يكون ما ألّفه رفاة وكتبه سطواً مجرداً على كُتُبٍ كُتِبَتْ في هذه العلوم المختلفة المتباينة ، والله أعلم بما فيها من الزلل والخطأ وسوء الفهم . ولكن رفاة الطهطاوى على ذلك كلّ إمام جاء يُخرج مصر وأهلها من الظُّلُمات إلى النُّور !! يا للعجب ! ولكنّ هذا الرجل الطيّب يُحَمِّل من العبقرية في إنشاء « مدرسة الألسن » ، ما حُمِّل محمد على ، الجاهل الذى لم يتعلم قطّ ، من العبقرية في الاهتداء إلى إرسال

(١) انظر مثال ذلك ، ما ضمنه كتابه : « أنوار الجليل ، في أخبار مصر وتوفيق بنى إسماعيل » من الدعوة إلى استعمال العامية « التى يقع بها التفاهم في المعاملات السائرة ، ولا مانع أن تكون لها قواعد قريبة المأخذ تضبطها ، وأصول على حسب الإمكان تربطها ، ليتعارفها أهل الإقليم ، حيث نفعها بالنسبة لهم عميم ، وتصنّف فيها كتب المنافع العمومية ، والمصالح البلدية » ، أو كما قال رحمه الله !! انظر كتابى « أباطيل وأسمار » ص : ١٥٩ ، ١٦٠ .

« البعثات العلمية » إلى أوربة ، وفرنسا خاصة ! (انظر ما سلف : ١٣٩) ، وقصة إنشاء « مدرسة الألسن » ، في سنة ١٨٣٦ م (أى بعد عودته بخمس سنوات) ليست من فكر رفاعه الطهطاوى ولا من بنات عبقريته ، ولكنها ثمرة من ثمار « الاستشراق » وذهاته الذي احتضنوه وربّوه وغذّوه ونشّأوه مدة إقامته في باريس ، وكما يقول الرافعى : « كانت مدرسة الألسن عبارة عن كلية تدرس فيها آداب اللغة العربية واللغات الأجنبية ، وخاصة الفرنسية والتركية والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعلوم التاريخ والجغرافية ، والشرعية الإسلامية ، والشرائع الأجنبية ، فهي أشبه ما تكون بكلية الآداب والحقوق ، فلا عَرَوْ أن كانت أكبر معهد لنشر الثقافة في مصر » ، ما أعجب أحكام هذا المؤرخ المدجّن !

وبأقلّ التأمل في مناهج « مدرسة الألسن » تعلم يقيناً لا شكّ فيه أن رفاعه الطهطاوى نفسه لم يكن مؤهلاً لتدريس أكثر هذه العلوم ، ولا كان في مصر يومئذ من المصريين مَنْ هو مؤهل لتدريسها ، فلا مناص من استقدام مَنْ يُظنّ فيه أن مؤهّل لتدريسها من الأجانب ومن « المستشرقين » خاصة ، وكذلك كان ، فكان هؤلاء الذّهاب من صنائع « الاستشراق » هم الذين تولّوا تثقيف ١٥٠ تلميذاً كان رفاعه الطهطاوى يختارهم صغاراً من مدارس الأرياف والأقاليم ، ومن طلبة الأزهر . وبذلك وضع رفاعه الطهطاوى أساساً لمدرسة مُلَفَّقة ، (لا كلية ، كما يقول الرافعى) مبتورة الصّلة كلّ البتّر ، من مركز « الثقافة المتكاملة » التي كان الأزهر مهّدها على قرون متطاولة ، وكان هو وحده على طول هذه القرون ، مركز ثقافة دار الإسلام في مصر . وكذلك أحدث رفاعه الطهطاوى صدعاً مُبيناً في ثقافة الأُمّة ، وقسّمها إلى شطرين متباينين : « الأزهر » في ناحية ، و « مدرسة الألسن » في ناحية ، وكذلك حقّق رفاعه لذهابه « الاستشراق » أهمّ ما يتوقون إليه ، من وادٍ « اليقظة » الواحدة المتماسكة التي كان الأزهر مركزها منذ عهد « البغدادى » ، و « الزيّدى » و « الجبرتيّ الكبير » = وفي وقت كان فيه محمد على

الجاهل يحطمُ أجنحة الأَزهَر ، ويضعُه في قفصٍ لا يستطيع الإفلاتِ مِنْه ، ويدبِّر كل مكيَدة لإسقاط هيئته وهيبته مشايخه ، ويعزلهم عن جمهور الأمة عزلاً بين قُصْبَان من الحديد وجُدْرَانِ من الصُّخُور = ومَرَّت الأيام والسنون ، وهذا الصَّدع يتفاقم ، حتى انتهينا إلى ما نحنُ عليه اليوم من الانقسام والتفريق ، وذهبت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام في مصر أدراجَ الرياح .

...

٢٤ - وُئِدَت « اليقظة » التي كان الخمسة الكبار أبطالها وصناديدها ، (ما سلف : ٨٢) ، وكانَ ذلك نصراً مؤزراً ناله « الاستشراق » بدهائه ومكره وثاقبِ نظره ، نالَه من وراء غفلة دار الإسلام في مصر ، ومن وراء الجهل الذي أُسِنِدَتْ إليه أمور البلاد ومصائرُها ، وأقام « الاستشراق » على قبر « اليقظة » بناءً جديداً راسخَ الأساس ، ظل يرعاه ويحوطه ويزيده رُسوخاً ومثانةً واتساعاً وسُمُوفاً ، يضمن للمسيحية الشمالية الغلبة والسيطرة وتَمَامَ التمكن من إخضاع دار الإسلام لأهدافه وغاياته ، بلا قعقعة سلاح ، وبلا مُواجهة بين « ثقافتين متكاملتين » تتصارعان كِفاحاً ، فإِذَا تتعاشيان على هذا الصراع ، وإِذَا يحكمان السلاح حتى يُقضى لإحدهما على الأخرى بالغلبة ، ثم يصطلحان على حُسن المعاشة وإِثَارِ السِّلْم . أما الآن فقد انقلبت الموازين ، ومُرِّت « الثقافة المتكاملة » في دار الإسلام ، وانفردت « الثقافة المتكاملة » في ديار المسيحية الشمالية ، بلا قرْن يكافئها وينازلها ، وإنما هو الخضوع والاستكانة لا غير . وقضى الأمر الذي فيه تستفتيان !

وذهب محمد على سرشمشة ، وذهب ملكه وهلك ، وجاء من بعده أولاده وهم في قبضة « القناصل » و « الاستشراق » ، والتصدع في ثقافة دار الإسلام يتفاقم ، والبعثاتُ الخاضعةُ المستكنةُ تتوالى ويقعُ أعضاؤها في قبضة « الاستشراق » يصنعُ أعضاءها على

عينه ، والبلية التي أحدثها رفاة الطهطاوى تتعاضم ، وصار الأزهر الذى كان في يديه تعليم الأمة أسيراً يرسف في أصفاده وأغلاله منتبذاً ناحية ولا يدخله إلا أبناء الفقراء والمساكين = ونازعته تعليم الأمة المدارس الجديدة التى وضع أساسها رفاة الطهطاوى في مدرسة الألسن ، وانشطر تعليم الأمة شطرين ، ونمت هذه المدارس وتكاثرت ، يدخلها أبناء الموسرين والمستورين ، وجعلت الهوة بين الأزهر والمدارس تتسع ، وأصبحت المناهج تتباين تباًيناً شديداً . أما مناهج الأزهر فى عزلة فجعلت تضعف وتذوى وهى على بنائها القديم ، وأما مناهج المدارس فجعلت تنمو ولكن نموها قائم على القشور التى تفر ولا تغنى شيئاً ، على نفس الأساس الذى وضعه رفاة الطهطاوى ، وجعلت تزداد تباعداً مقطوعاً الأواصر من « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها الأمة قروناً متطاولة . لم تكن هذه المدارس نابعة من « الثقافة المتكاملة » التى تجدد نفسها تجديداً يزيد قوة ووضوحاً ، بل كانت غراساً غريباً يزيد بعداً وانقطاعاً عن أصول « الثقافة المتكاملة » لدار الإسلام فى مصر ، ولا تكسبها قوة ووضوحاً ، بل تكسب أبناءها تنكراً وإعراضاً واحتقاراً أيضاً لتلك « الثقافة المتكاملة » التى عاشت بها أمتهم = وكذلك صار أبنائها جزياً جديداً ، ميله وحبه وإكباره للمصدر الذى صدر عنه ما تعلموه ولم يتعلموا غيره ، كما أراد نابليون بمشروعه الذى عهد به إلى خليفته « كليبر » ، (انظر ما سلف : ١٠٨ وما بعدها) ، وطوره تطويراً كبيراً المسيو جومار (انظر ما سلف : ١٤٠ ، ١٤١) . وتم بذلك البلاء الماحق ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

ومضت الأيام والسنون ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزي فى ثانى ذى القعدة سنة ١٢٩٩ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م) ، ويطّل يرسخ قدميه فى البلاد ، وبعد قليل رأى « الحزب » الذى أنشأه « الاستشراق » الفرنسى غالباً على جمهور طلبة المدارس ، فبدأ « الاستشراق » الإنجليزي يدمر كل ما أنشأه الفرنسيين من مدارس ويشتها ، فلما استقرت أقدام الاحتلال الإنجليزي فى مصر ، رأى « الاستشراق » الإنجليزي أن يبدأ فى

الرسالة : ٢٤ / « تفرغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، وبعث الانتهاء إلى « الفرعونية » البائدة

تكوين « حزب » قوى يناصره عن طريق التحكّم في التعليم ، فأُسند أمر التعليم إلى قسّيس مُبَشِّرٍ عاتٍ خبيث هو « دنلوب » ، فدُعِر « الحزب الفرنسى » ، ونشرت جريدة الأهرام التى كان صَعُوقُها كُلُّه إلى الفرنسيس ، خَبَرَ « دنلوب » بعبارة دالّة كل الدلالة على هذا التحوّل العظيم الذى أفرع حِزْبَ فرنسا ، فنشرت فى عددها المؤرخ ، يوم ١٧ مارس سنة ١٨٩٧ م ما يأتى :

« قضى الأمر ، وصدر الأمرُ العالى بتعيين المستر دنلوب سكرتيراً عاماً لنظارة المعارف ، وقد شرعَ المستر دنلوب ، بعد الاتفاق مع اللورد كرومر ، فى هدم الدراسة الثانوية التى هى أعظمُ أركان المعارف » .

فانظر إلى قول الأهرام « قضى الأمر » ، وما تحمله هذه الجملة القصيرة من الرُعب الدالّ على فزع « الاستشراق الفرنسى » من هذا الحَدَثِ المؤدّى إلى القضاء على « حزب فرنسا » الذى أنشأته المدارس القديمة ، وتخوّفه من هذا « الحزب الإنكليزى » الجديد الذى يتولّى « الاستشراق الإنكليزى » إنشاءه عن طريق المدارس التى سوف يشرف عليها « دنلوب » القسّيس المبشّر الداهية .

ونقول نحنُ أيضاً : « قضى الأمر » ، وجاء « الاستشراق الإنكليزى » ليُحدِث فى ثقافة الأمة المصرية صدعاً متفاقماً أخبث وأعتى من الصدّع الذى أحدثه « الاستشراق الفرنسى » ، ووضع دنلوب أُسُسَ « التفرغ » الكامل لطلبة المدارس المصرية ، أى تفرغ الطلبة من ماضيها المتدفّق فى دمائها مرتبططاً بالعربية والإسلام ومَهَّدَ إلى ملئِهِ بماضى آخر بائدٍ فى القِدَم والغموض ، لم يبق من ثقافته شىء البتّة ، ليزاحم هذا الماضى الفارغ بقايا الماضى المتدفّق الحىّ الذى يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفرغ المتواصل ، ويجعل أجيال طلبة المدارس فى حيرة مدمرة بين انتمايين ، بين الانتماء إلى الثقافة العربية الإسلامية الواضحة فى كتب أسلافهم ، وبين الانتماء إلى الفرعونية التى بادت وبادت ثقافتها ولم يبق

منها إلا أطلال من الحجارة ، مهما بلغت في العظمة والجلال ، فهي فارغة من ثقافة حيّة تتدفق في القلوب والعقول والألسنة ، إنما هي آثار لا تُغني شيئاً ولا تُؤتي ثمرة .

وأيضاً فإن هذا « التفريغ » سوف ينشئ أجيالاً من « تلاميذ المدارس » تنهت علاتقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، حتى يتم تفريغها تفريغاً كاملاً من ماضيهم كُله ، ثم يملأ هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم ، وإنما هي علوم الغزاة ، وفنون الغزاة ، وآداب الغزاة ، وتاريخ الغزاة ، ولغات الغزاة . ومع كل ذلك ، فإن هذا القدر من العلوم والفنون والآداب إنما هي قشور ومقتطفات تُوهم النفوس الظائمة المُفرغة بأنها نالت شيئاً يُذكر ، والحقيقة أنها نالت غذاءً تعيش به موتى في صورة أحياء لا غير .

• وقد قصصْتُ قصّة هذا التفريغ في مقدّمتي لكتاني « المتنبّي » وسميتها « لحة من فساد حياتنا الأدبية » ، (اقرأ المقدمة : ٢٠ - ٢٩) ، وقد قصصْتُ عليك هنا قصة هذا الفساد العريق من حيث بدأ إلى حيث انتهى . فهذا كُله جواب السؤال الذي بدأت به الفقرة العاشرة (ص : ٢٣) :

« وإذن ، فكيف نشأ الخلاف ، ولم نشأ الخلاف ، بيني وبين هذه « المناهج الأدبية » السائدة ، كانت ولا تزال ، في حياتنا الأدبية ، حتى رفضتُها رفضاً صريحاً واضحاً قاطعاً غير متلجج ، منذ بدأت قديماً أحس إحساساً مبهماً أنّ حياتنا الأدبية فاسدة من كل وجه ، كما حدّثتك آنفاً ؟ (اقرأ الفقرة : ١) .

ومع طول حديثي هنا ، فإنني اختصرته اختصاراً أرجو أن يكون غير مُخل ، وعسى أن أكون قد أدّيت بعض أمانة القلم وبعض أمانة العلم ، وأدّيت أيضاً ، أيها القارئ ، بعض حقك على = وعسى أن أكون قد بلغت مبلغاً يُرضى الله ورسوله في اتباع أمره إذ

قال ﷺ : « أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ ، أَنْ يَقُولَ بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ » ، وهو حديثه ﷺ الذي بدأتُ به هذه الرسالة ، (اقرأ ص : ٥) ، والحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وعلى أصحابه وخيرته من خلقه ، وعلى التابعين وتابعيهم ، حَفَظَةَ الْعِلْمِ ، وَالنَّاطِقِينَ بِالْحَقِّ وَالِدَاعِينَ إِلَيْهِ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وَمَا أَسْرَفْتُ ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ الْمَقْدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ .

...

ذَيْلُ الرِّسَالَةِ

والآن ، لم يبقَ إلا أن أضَع بين يديك قِصَّةَ « التَّفْرِيعِ الثَّقَافِيِّ » الذي ختمتُ به كلماتي آنفاً في « رسالة في الطريق إلى ثقافتنا » ، أنقلها من كتاب « المتنبي » ، [ص : ١٩ - ٣٤] ، في التصدير الذي سمَّيته : « لحظة من فساد حياتنا الأدبية » ، وفيها شهادتان :

شهادتي أنا من موقعي بين أفراد جيل الذي أنتمى إليه ، وهو جيل المدارس المفرَّغ من كلِّ أصول ثقافة أمته ، وهو الجيل الذي تلقَّى صدمة التدهور الأولى ، حيث نشأ في دُوامةٍ من التحوُّل الاجتماعي والثقافي والسياسي .

وشهادة الدكتور طه حسين من موقع « الأستاذية » لهذا الجيل .
فأقرأهما بتدبير وأناة ، حتَّى تُلمَّ بأطراف البلاء الذي حاق بي وبك وبأمتك العربية الإسلامية ، وحتَّى لا تدخُل تحت المعنى الذي قاله أبو عبادة البحرى :
ومن العجائب ، أعين مفتوحةً وعقولهنَّ تجولُ في الأحلام

= أحلام « النهضة » و « التجديد » و « الأصالة والمعاصرة » و « الثقافة العالمية » ، وأحلام أخرى كثيرة لا تنقضي !! أحلام جعلت صدمة التدهور مستمرةً مُتَمَادِيَةً متفائمةً إلى هذه الساعة التي تقرأ فيها هذه الرسالة ، والله الأمر من قبل ومن بعد .

قلتُ : « ومَرَّتْ الأَيَّامُ والليالي والسنون ما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ وهي السنة التي كتبت فيها هذا الكتاب « المتنبي » وهمى مصروفٌ أكثرُهُ إلى « قضية الشعر الجاهلي » ، وإلى طلب اليقين فيها لنفسى ، لا معارضةً لأحدٍ من الناس . ومشت بي هذه القضية في رحلة طويلة شاقة ، ودخلت بي في دُرُوبٍ وُغَرَةٍ شائكةٍ ، وكُلِّما أوغلتُ

انكشفت عني غشاوة من العمى ، وأحسستُ أني أنا والجيل الذي أنا منه ، وهو جيل المدارس المصرية ، قد تمَّ تفرغنا تفرغاً يكاد يكون كاملاً من ماضينا كُلِّه ، من علومه وآدابه وفنونه . وتمَّ أيضاً هتُّك العلاقات بيننا وبينه ، وصارَ ما كان في الماضي متكاملاً متماسكاً ، مَرَقاً متفرقة مبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى ومن الدلالة . ولأنه غير ممكن أن يظلَّ الفارغُ فارغاً أبداً ، فقد تمَّ ملءُ هذا الفراغِ بجديدٍ من العلوم والآداب والفنون ، لا تمتُّ إلى هذا الماضي بسببٍ ، وإننا لنستقبله استقبالَ الظَّامِءِ المحترق قطراتٍ من الماء النَّمير المثلج .

في خلال هذه الأعوام ، تبين لي أمرٌ كان في غاية الوضوح عندي . وهو قصة طويلة قد تعرَّضت لأطرافٍ منها في بعض ما كتبتُ ، ^(١) ولكنني أذكرها هنا على وجه الاختصار . صار بيننا عندى أننا نعيش في عالم منقسمٍ انقساماً سافراً : عالمُ القوَّة والغنى ، وعالمُ الضعيف والفقر = أو عالمُ الغزاة الناهيين ، وعالمُ المستضعفين المنهوين . كانَ عالمُ الغزاة الممثل في الحضارة الأوربية ، يريد أن يحدث في عالم المستضعفين تحوُّلاً اجتماعياً وثقافياً وساسياً ، فهو صيِّدٌ غزيرٌ يُمِدُّ حضارتهم بجميع أسباب القوة والعلوِّ والغنى والسلطان والغلبة . والطريق إلى هذا التحوُّل عملٌ سياسى محضٌ ، لا غاية له إلا إخضاعُ هذا العالم « المتخلف » إخضاعاً تاماً لحاجات العالم « المتحضر » التى لا تنفد ، ولسيطرته السياسية الكاملة أيضاً . ومع أنَّ هذا العمل السياسى المحض المتشعب ، قد بدأ تنفيذه منذ زمن في أجزاء متفرقة من عالمنا ، إلا أنه بدأ عندنا في مصر ، قلب العالم الإسلامى والعربى ، مع الطلائع الأولى لعهد محمد على ، بسيطرة القناصل الأوربية عليه وعلى دولته ، وعلى بناء هذه الدولة كُلِّها بالمشورة والتوجيه . ثم ارتفع إلى ذروته في عهد حفيده إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على الخديوى ، حتى جاء الاحتلال الإنجليزى في سنة ١٨٨٢ ، وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كُلِّ شىء ، وعلى التعليم

(١) بعض ذلك في كتابى « أباطيل وأسمار » .

خاصة ، إلى أن جاء « دنلوب » في (١٧ مارس ١٨٩٧) ، ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذي لا نزال نسير عليه ، مع الأسف ، إلى يومنا هذا .

كان التمهيد لهذا العهد طويلاً متعدّد الجوانب ، وكان قوامه إعداد أجيال من « المبعوثين » يعودون من أوربة ليكونوا قادة هذا التحول الرفيق العميق ، ويرادّ منهم أن يؤسّسوا قاعدة ثابتة لانطلاق التحول إلى غاية يُرادّ لنا أن نبلّغها على تمداد الأيام . وكان الغزاة يقنعون يومئذ من هؤلاء المبعوثين ، بأن يعودوا إلى بلادهم ببضعة أفكار يردّدونها ترديد البيغاوات ، تتضمّن الإعجاب المزهو ببعض مظاهر الحياة الأوربية ، مقروناً بنقد بعض مظاهر الحياة في بلادهم = وبأن يكشفوا أمتهم بأنّ ما أعجبوا به هو سرّ قوة الغزاة وغلبتهم ، وأن الذي عندنا هو سرّ ضعفنا وانهارنا . وقد وجدت ذلك ظاهراً مثلاً أحسن تمثيل عند رفاة الطهطاوى وأشباهه . ولكن لما جاء عهد « دنلوب » ، كان أمر المبعوثين وحده لا يكفي ، وأصبح الأمر محتاجاً إلى ما هو أكبر وأوسع انتشاراً . فكان الرأى أن تنشأ أجيال متعاقبة من « تلاميذ المدارس » في البلاد ، يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا التحول ، عن طريق تفريعهم تفريراً كاملاً من ماضيهم كلّهم ، مع هتك أكثر العلائق التي تربطهم بهذا الماضي اجتماعياً وثقافياً ولغوياً ، ومع ملء هذا الفراغ بالعلوم والآداب والفنون = ولكنها فنونهم هم ، وآدابهم هم ، وتاريخهم هم ، ولغاتهم هم ، أعنى الغزاة .

وقد تولى نظام « دنلوب » تأسيس ذلك في المدارس المصرية ، مع مئات من مدارس الجاليات التي يتكاثر على الأيام عدد من تضمّ من أبناء المصريين وبناتهم . وقد كان ما أراد الغزاة ، ولم يزل الأمر إلى يومنا هذا مستمراً على ما أرادوا ! بل زاد بشاعة وعمقاً في سائر أنحاء العالم العربي والإسلامي بظهور دعوات مختلفة ، كالدعوة إلى الفرعونية والفينيقية وأشباه ذلك ، في الصحافة والكتب المؤلفة . لأن تفريع الأجيال من ماضيها المتدفق في دمائها مرتبطاً بالعربية والإسلام ، يحتاج إلى ملء بماضٍ آخر يغطّي عليه ، فجاءوا بماضٍ بائدٍ مُعَرِّق في القِدَم والغموض ، ليزاحم بقايا ذلك الماضي المتدفق الحي الذي يوشك أن يتمزّق ويختنق بالتفرّيع المتواصل .

في ظلِّ هذا التَّفْرِيعِ المتواصل ، وهذا التَّمْزِيقِ للعلائق ، وهذه الكثرة التي تخرُجُ مفرَّعةً أو شَبَّهَ مفرَّعةً إلى « البعثات » ، وهذا التَّحوُّلُ الاجتماعي والثقافي والسياسي المضطرب ، وهذا التغليب المتعمَّد للثقافة الغازية واللغات الغازية ، بلا مقابل في النفوس من ثقافة ماضية حيَّة حياة ما ، وباقيَّة على تماسكها وتكاملها = في ظلِّ هذا كُلِّه ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ولكنه يقومُ على أصلٍ واحدٍ في جوهره ، هو ملءُ الفراغ بما يناسبُ آداباً وفنوناً غازية كانت قد ملأت بعضَ هذا الفراغ ، فهي تحدثُ في النفوس تطلُّعاً إلى زادٍ جديد منها .

فالمسرحُ مثلاً ، وكان له شأنٌ أئُّ شأنٍ ، يعتمد اعتماداً واضحاً على المسرح الأوربيِّ في تكوينه كُلِّه . وأيسر سبيلٍ كانَ إلى إمداده بمادَّته ، هو « السطو » على مؤلفات المسرح الأوربيِّ ، مسلوخةً يعادُ تكوينُها بألفاظٍ عربيَّة ، أو عامية على الأصح ، ودون إشارة إلى هذا « السطو » ، وكانوا يسمُّون هذا حياءً ومكرًا : « التَّصْمِير » !! بيد أنه عبثٌ مجرَّد ، وسطوٌ لا رقيبَ عليه . أمَّا الكُتَّابُ الجادُّون ، فكان أكثرُهم يعتمد على تلخيص نتاج الفكر الأوربيِّ في الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة تلخيصاً مآ ، وإن كان أكثره خطفاً وسطواً ينسبُه الكاتب إلى نفسه بلا رقيب ولا محاسب .

والقِصَّةُ أيضاً ، كانت ضرباً من « السطو » والتقليد ، تُحوَّر فيها الأسماء والأماكن والوقائع ، ثم تُرَقَّع بأفكارٍ مسلوية مختطفة ، ثم توزَّع توزيعاً ماهراً على فصولها المختلفة ، حتى تضمن لأصحابها إخفاء معالم السطو والانتهاج والتقليد . [وهذا أمرٌ لم يزل مستمرّاً بقوةٍ إلى يومنا هذا] .

وبالثرثرة واللحاججة في الصحف والمجلات ، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها . وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج ، محفوفة بألفاظ مبهمه مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة ، وهي قضية « القديم » و « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ! ^(١) والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين : ميل ظاهري إلى

(١) في السنوات الأخيرة ، وُجِدَت ألفاظٌ جديدة محفوفة بالغموض ، مؤسسة على الثرثرة ، من مثل

قولهم : « المعاصرة » و « الحداثة » و « التحديث » .

رفض « القديم » والاستهانة به ، دون أن يكون الرفض مُلمّاً إماماً ما بحقيقة هذا « القديم » = وميل سافر إلى الغلو في شأن « الجديد » ، دون أن يكون صاحبه متميزاً في نفسه تميزاً صحيحاً بأنه « جدد » تجديداً نابعاً من نفسه ، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة ، بل كل ما يميّزه أن الله قد يسرّ له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة !! وكفى الله المؤمنين القتال !

هذه خُطوط من صورة ، لجانب من الحركة الأدبية والثقافية في ذلك العهد ، وأكثرها باق إلى يومنا هذا ، ومقبول أيضاً بلا استبشاح له .

ولكن هذه الصورة لا تتم وحدها . في خلال التحول الاجتماعي الثقافي المتصاعد المتكاثف ، كان هناك جانبٌ راکدٌ محتقّق ، لم يفرغ هذا التفريغ ، ولكن ضرب عليه حصارٌ مفرغٌ وبيلٌ مُهينٌ . هذا الجانب كان هو الوارث للماضي المتكامل المتناسك ، ولكنه كان يزداد على مرّ الأيام تحلّحلاً وتفكّكاً وحيرةً وانطواءً . يمثل هذا الجانب جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم وأشباههما . كان أكبر همّ هذا الجانب ، في هذا اليمّ المتلاطم من حوله ، هو محاولة المحافظة على الماضي محافظةً مّا ، ولكن قبضته كانت تسترخي شيئاً فشيئاً تحت الحصار ، وتحت القذائف المدمّرة التي يُرمى بها ، والتي تزلزل نفوس أبنائه من قواعدها . وكان مطلوباً طلباً حثيثاً أن تُفتح أبواب هذا الحصن العتيق المنيع ، لتدخل عليه نفس العوامل التي أدّت إلى تفريغ « تلاميذ المدارس » من ماضيها ، وإلى تهتك علائق ثقافته وعلومه ، وإلى ربطه بالحركة الأدبية الغازية المتصاعدة تحت ألوية « الجديد » و « التجديد » و « ثقافة العصر » ، وسائر الألفاظ المبهمة المغرية !!

وقد كان ، واحتاج شقّ الطريق إلى هذه الغاية إلى وسائل كثيرة متنوّعة ، والذي يُهمّنى منها هنا هو ما يتعلّق بأمر « السطو » لا غير . كان الذي يحول بينهم وبين بلوغ

هذا الغرض ، هو أن جمهور المتعلمين المنتسبين إلى الأزهر ودار العلوم ، لم يكن لهم لسان غير العربية ، قلّما كان يعرف أحدهم غير هذا اللسان ، فعمدوا ، في مصر خاصة ، إلى إجافة باب يتيح لهم أن يطلّعو = أو يُصدّموا على الأقل ، بما عند الحضارة الغازية من نظر ورأي في آداب العربية وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها أيضاً !! كان هذا موفقاً في مؤلفات « المستشرقين » عامة ، لأنّه هو كلّ عملهم في « الاستشراق » المرتبط كلّ الارتباط بالاستعمار والتبشير ، أى بتدمير الأمم المستضعفة وتحطيم ثقافتها وآثارها وماضيها كلّ . (١) فكان لا بُدّ ، إذن ، من نشر هذه الأفكار على نطاق واسع ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

انبرى لذلك رجال كثيرون في مصر والشام وغيرهما ، لا يربطهم في أنفسهم بهذا الماضي إلا اللسان العربى وحده ، أما ضمايرهم فمرتبطة بشيء آخر . فكتبوا مقالات ونشروا كتباً في آداب العرب وعلومها وفنونها وتاريخها ودينها ، على قلة معرفتهم بها معرفةً تتيح لهم الكتابة ، ولكنها كانت معبرة عن اتجاه « الاستشراق » لا غير .

فكانت كلّها « سطوا » مجرداً على آراء المستشرقين ومناهجهم في النظر ، مبنوياً في ثنائياً كلّ ما يكتبون . وكذلك تيسر لكل من لا يعرف غير العربية لساناً ، أن يجد ، على مديده ، شيئاً « جديداً » يقال عن ماضيه ، وبمناهج لم يألّفها أيضاً . ولكن حال بين هذا الضرب من « السطو » ، وبين أن يكون شيئاً عاماً مؤثراً تأثيراً نافذاً في جمهور « المحافظين » الذين لا يعرفون غير العربية = أنهم رجال وفدوا إلى مصر مع استقرار الاحتلال الإنجليزي فيها (سنة ١٨٩٢) ، وكانت الشبهة فيهم تُوجب الحذر منهم ، فأضعف الحذر أثر ما يكتبون في أكثر القراء من هذا الجمهور ، وإن كان لهم في جمهور « تلاميذ المدارس » المفرّغين من ماضيهم أثر بليغ . ومع ذلك ، فإن الهدف لم يذهب هدرًا ، فإنه على الأقل ، فتح الباب ويسر

(١) استوفيت بيان بعض هذا في كتابي (أباطيل وأسمار) .

السبيل للساطين، وجعل « السطو » المباشر أمراً مألوفاً لا غبار عليه ، بل زاد فقرب إلى الأذهان سبيل الاقتناع بأنه ضربٌ من « التجديد » ، ومن متابعة « ثقافة العصر » ومناهج تفكيره في الدراسات الأدبية والتاريخية الخاصة بلغة العرب وتاريخهم وعلومهم وفنونهم ودينهم أيضاً !!

ومعنى ذلك باختصار ، هو أنه صار الآن ممكناً أن يصبح من الممكن ومن السهل اليسير ، أن يكون معنى « الجديد » و « التجديد » في دراسة آداب أمة ما وفي دراسة تاريخها : أن يعمد « المجدد » إلى اقتباس آراء وأفكار قد تولَّى صياغتها مَنْ هو لصيقٌ دَخِلَ عليها وعلى لسانها ، لم ينشأ فيه ، وإنما تعلَّمه على كِبَرٍ ، فهو لا يعلم منه إلا أقلَّ القليل ، ومَنْ هو نابتٌ في لسانٍ آخر بآدابه وعلومه وفنونه وعقائده ، ومَنْ هو محرومٌ بطبيعته من القدرة على تذوقِ آدابها تذوقاً شاملاً = والتذوق وحدة عُقدة العُقد = ومَنْ هو مسلوبٌ كُلُّ إحساسٍ بتاريخها كُلِّه ، فضلاً عما يكنُّه في سريره من العداوة المتوارثة والبغضاء المتأججة ، ومن المصلحة المتجددة في تشويه صورتها تشويهاً متعمداً لأغراضٍ « حضارية » !! = يا للعجب !

أهذا ؟ أم أن « الجديد » و « التجديد » ، لا يمكن أن يكون مفهوماً ذا معنى ، إلا أن ينشأ نشأةً طبيعيةً من داخل ثقافة متكاملة متماسكة حيّة في أنفُس أهلها = ثم لا يأتي التجديد إلا من متمكّن النشأة في ثقافته ، متمكّن في لسانه ولغته ، متذوّق لما هو ناشئ فيه من آداب وفنون وتاريخ ، مغروسٍ تاريخه في تاريخها وفي عقائدها ، في زمانٍ قُوَّتْها وضعفها ، ومع المتحدثر إليه من خيرها وشرّها ، مُحِسّاً بذلك كُلِّه إحساساً خالياً من الشوائب = ثم لا يكون « التجديد » تجديداً إلا من حوارٍ ذكي بين التفاصيل الكثيرة المتشابكة المعقدة التي تنطوي عليها هذه الثقافة ، وبين رؤية جديدة نافذة ، حين يلوح للمجدد طريقٌ آخر يمكن سلوكه ، من خلاله يستطيع أن يقطع تشابكاً من ناحية ، ليصله من ناحية أخرى وصلاً يجعله أكثر استقامةً ووضوحاً ، وأن يحلَّ عُقدةً من طرفٍ ، ليربطها من طرفٍ آخر ربطاً يزيدُها قوةً ومثانةً وسلاسةً .

فالتجديد إذن حركة دائبة في داخل ثقافة متكاملة ، يتولاها الذين يتحركون في داخلها كاملة حركة دائبة ، عمادها الخبرة والتذوق والإحساس المرهف بالخطر ، عند الإقدام على القطع والوصل ، وعند التهجم على الحل والربط . فإذا فقد هذا كله ، كان القطع والحل سلاحاً قاتلاً مدمراً للأمة وثقافتها ، وينتهى الأمر بأجياها إلى الحيرة والتفكك والضيايع ، إذ يورث كل جيل منها جيلاً بعده ، ما يكون به أشد منه خيرة وتفككاً وضياعاً .

هذه هي العاقبة التي تفرض نفسها فرضاً ، وما أبشعها من عاقبة .

فما ظنك إذن بالعاقبة ، إذا كان القطع والحل مراداً لذاته ، وكان مراداً أيضاً أن لا يكون معه أو بعده وصل وربط في داخل التكامل والتماسك الذي يجعل لهذه الثقافة معنى وحياة وحركة ؟ = وما ظنك بالعاقبة إذا كان هذا ، ولم تكن الأفكار « المجددة » إلا ترديداً لصياغة غريبة ، صاغها غريب عن الثقافة ، منتسب إلى ثقافة غازية مبينة ، وهو مع ذلك ناقص الأداة ، لا خبرة له بتشابكها وعقدها ، ثم هو في نفسه لا يضمّر لها إلا التدمير والاستهانة ، لغرض راسخ في قرارة النفس ؟ = ثم ما ظنك أيضاً بالعاقبة ، إذا صار « التجديد » عند أصحاب الثقافة أنفسهم ، لا يزيد على أن يكون « سَطْواً » مجرداً على هذه الصيغ الغريبة ، ثم إقحامها إقحاماً على ثقافتهم ، لا حاجة أدّى إليها النظر والفكر والتدبر ، بل بالهوى وحُب الظهور من مُفَرَّغ ، أو من شبيهه بالمفَرَّغ ، من ثقافته المتكاملة المتناسكة ؟ ما أبشع العواقب عندئذ ، وأبشعها التدهور المستمر !

وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن ، جيل المدارس المفَرَّغ ، أن يتلقى صدمة التدهور الأولى ، لأنه نشأ في دَوَّامة دائرية من التحول الاجتماعي والثقافي والسياسي . جئنا في أعقاب حرب الاستعمار الكبرى ، وهي التي يسميها أصحابها « الحرب العالمية الأولى » . خرج منها « الحلفاء » منصورين ، وبدأوا من قُوَّرتهم في تقسيم عالمنا وتبديده ، وأخذ كل مستعمر منهم يشدد قبضته على ما وقع في يده من الغنائم . وبالدهاء والمكر والسطوة ، جعل يدفع هذا التحول دفعاً شديداً ، لكي يتم له أن يُخْضِعَ عالمنا « المتخلف »

لحاجاتِ عالمه « المتحضّر » !! وجئنا أيضاً ، فى مصر ، مع الرِّجَّة العظمى التى أحدثتها ثورة سنة ١٩١٩ ، والتى انتهت بعد قليل بفجيرة مرَّقت الأمة تمزيقاً مفرعاً ، بفضل الدستور والانتخابات وتعدّد الأحزاب ، وتكالب كلِّ حزبٍ على الظفر بالحكم تحت علم السيادة البريطانية المتحضّرة !! وتبدّدت نفوسنا وتفتّتت ، تحت ضغط هذا التحوّل السريع المُتمادى المُريب المروّع .

وفى ظلّ هذا كلّه ، كما قلتُ ، انتعشت الحركة الأدبية والثقافية انتعاشاً غير واضح المعالم ، ^(١) وأقول « غير واضح المعالم » ، لأنّ الأساتذة الكبار الذين انتعشت على أيديهم هذه الحركة ، كانت علائقهم بثقافة أمّتهم غير ممزّقة كلّ التمزيق = أما نحن ، جيل المدارس المفرّغ ، فقد تمزّقت علائقنا بها كلّ التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة ، فيما له علاقة بهذه الثقافة ، باطلاً أو كالباطل . فهو لا يقع منّا ومن أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ، ومن الإثارة ، ومن الترغيب فى متابعتة ، ومن إعادة النظر فى ارتباطنا بتلك الثقافة = بل كان عند كثير من أهل جيلنا غير مفهوم البتة ، فهو يمرّ عليه مروراً سريعاً لا أثر له . أمّا الذى أخذه جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تتضمّنه كلمة « التجديد » = وإلى هذا الرفض الخفى للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها = وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجها فى التفكير ، كما صوّروا لنا ذلك فى خلال ما يكتبونه !! وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزّمن الدوّار الذى يُشيب الصغير ويُفنى الكبير ، هو الذى سيتولّى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلّمون اليوم على أيديهم .

والقصةُ تطوّل ، ومع ذلك فليس هذا مكانُ قصّها على وجهها ، إذا أنا أردتُ أن أُقيّد ما كان كما شهدته فيما بين سنة ١٩٢٨ ، وسنة ١٩٣٦ ، بل إلى ما بعد ذلك

إلى يومنا هذا أيضاً . ويكفى أن أقول : إن جيلنا ، جيل المدارس المفرغ ، كان في خلال ذلك قد كبر ، وانفلق عن فريقين : فريق قانع بما تجود به عليه أعلام الأساتذة الكبار من « تلخيص » و « تجديد » ، فهو لا يزال إليهم متطلّعا ، وبهم متعلّقا ، ثم لا يزيد = وفريق يسر الله له السبيل إلى معرفة المنبع ، فرأى نفسه قادراً على أن يغترف من حيث اغترف أساتذته . لقد اطلع على أصول ما كانوا يلخصونه ، وما كانوا « يجددون » به مكتوباً بلغته أو بلغاته على الأصح . وأحس أيضاً أن « الأصل » الذي يقرؤه بلغته ، مضى حتى ، مكثف ، عميق الدلالة = وأن تلخيص الأساتذة وتجديدهم كاب لوئه خامدة حياته ، متخلخل ، قريب المتناول .

ومع هذا الذي أحس به ، فإنه من حيث لا يدري يشعر بتفوق هؤلاء الأساتذة الملخصين المجددين عليه ، ولكنه لا يستطيع أن يجد تفسيراً لهذا التفوق ، مع أن تفسيره يسير هين . وذلك أن علائق الأساتذة بثقافة أمتهم كانت علائق لم تمزق كل التمزيق ، وبفضل هذه العلائق استطاعوا أن يُعطوا تلخيصهم نفحة من سر أنفسهم يمتازون بها ، وأن يكونوا أقدر منهم على « التجديد » ، لأن ما عندهم كان يمكنهم من الاختيار ، ثم من نفى ما هو غث أو ساقط ، ومن إخفاء « السطو » إخفاء فيه ذرؤ من المعرفة . أمّا هم ، فقد فرغوا تفريغاً يكاد يكون تاماً من أصول ثقافتهم التي ينتمون إليها (بالوراثة) ، ولذلك فهم يحسون في أنفسهم ما يشبه العجز ، إذا ما قارنوا بين أنفسهم وبين هؤلاء الأساتذة .

وهذا هو الموقف العصيب الذي كان فيه جيلنا يومئذ ، ثم استمرت عليه الأجيال بعدنا ، وهي تشعر شعوراً واضحاً بتفوق هذا الجيل من الأساتذة الكبار « الملخصين » و « المجددين » مع أن الأمر ، كما قلت ، قائم في الحقيقة على « السطو » البين أو الخفي ، على أعمال ناس آخرين يكتبون في لغاتهم بألستهم ، ويعبرون عن أنفسهم وعن حضارتهم وعن ثقافتهم = لا عن أنفسنا أو عن حضارتنا أو عن ثقافتنا نحن ! ومع ذلك فإن جيلنا والأجيال التي تتابعت بعده ، لم تُرد

أن تكشف هذه الحقيقة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كشفوا أمر أنفُسهم ، لأنهم لا يستطيعون شيئاً آخر سوى منهج « التلخيص » و « التجديد » ، على السَّنة التى سَنَها لهم هؤلاء الأساتذة الكبار . ولو فعلوا ، لما بقى لهم شيء يقولونه ، حين يرثون موقع الصدارة للتعليم والتثقيف بعد هؤلاء الأساتذة الكبار .

ولذلك ، فقد قنعوا بالوقوف تحت مظلة « التجديد » و « عالمية الثقافة » و « الثقافية العالمية » ، و « الحضارة الإنسانية » ، وسائر هذه المبهمات التى أشرت إليها آنفاً ، وتكاثروا هذه الحقيقة بينهم ، ثم كان الأمر بعد ذلك كما قيل فى المثل : « خلا لك الجوُّ فيضى وأصفرى !! »

...

ومع ذلك ، فأنا أحبُّ أن أقرِّر هنا حقيقة أخرى تعين على توضيح هذه الصورة التى صورتها ، وكنت أنا أحد شهودها فصورتها فيما سلف . فالدكتور طه حسين ، وهو أحد هؤلاء الأساتذة الكبار ، سوف يشهد فى سنة ١٩٣٥ شهادته هو ، من موقعه هو ، أى من موقع الأستاذية ، ومن وجهة نظره هو ، ومن دوافعه هو إلى الإدلاء بهذه الشهادة .

ومعلوم أن الدكتور طه فى سنة ١٩٢٦ ، حين ألقى محاضراته ، « فى الشعر الجاهلى » ، زعم أن له منهجاً يدرس به تراث العرب كُله ، وسمّى هذا المذهب « مذهب الشك » ، فكان فيما قاله عن مذهبه ، إن هذا المذهب سوف : « يقلب العلم القديم رأساً على عقب . وأخشى إن لم يمنحْ أكثره ، أن يحوِّ منه شيئاً كثيراً » [فى الشعر الجاهلى ص : ٢٣] . ثم انطلق فى كتابه هذا مستخفاً بكلِّ شيء ، بلا حذر ، حتى قال : « والنتائج الملازمة لهذا المذهب الذى يذهبُه المجدِّدون عظيمة جليلة الخطر ... وحسبك أنهم يشكُّون فيما كان الناسُ يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناسُ على أنه حقٌّ لا شك فيه . وليس حظُّ هذا المذهب منتهاً إلى هذا الحدِّ ، بل هو يجاوزُه إلى حدود أخرى أبعد منه مدًى وأعظم أثراً . فهم قد ينتهون إلى تغيير التاريخ ، أو ما اتفق الناس على أنه تاريخ ، وهم قد ينتهون إلى الشك فى أشياء لم يكن يباح الشك فيها » ، [فى الشعر الجاهلى : ٢٦] .

والاستخفاف الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه معروف ، أمّا الذي كان يقوله في أحاديثه بين طلبته ، فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدّه حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف . وأمّا الذي كان يدور بين طلبته الصغار « المفرغين » من ثقافتهم ، كما قلت ، فكان شيئاً لا يكاد يُوصف ، لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاوٍ ، يردّد ما يقوله الدكتور ، لا يعصمه ما كان يعصم الدكتور طه من بعض العلم المتصل بهذه الثقافة . وعلى مرّ الأيام ، كانت العاقبة وخيمة جدّاً . كبر الصغار الذين تأثروا بما قاله في سنة ١٩٢٦ ، فقد قطعتهم السنّ ، وقطعتهم معرفة جديدة حازوها ، وتنكروا ، أو كادوا ، للتّذي الذي كان يُرضعهم . وخرجت « الطلائع » تدفعها الحميّة وطلب الصّدارة في ميدان « التثقيف » و « التجديد » ، وبدا كأنهم جاؤوا يزايمون الأساتذة الكبار في مواقع الأستاذية . وساروا على نفس التّهج الذي مهّدوه لهم من « التلخيص » لفكر « الحضارة الحديثة » = أي الحضارة الأوربية = والذي هو في حقيقته سطو مجرّد ، ولكنهم لم يسيروا سيرة الأساتذة في معالجة « القديم » حتّى يُخيّل للناس أنه إحياء للقديم وتجديّد له ، بل كان الغالب على أكثرهم هو « رفض القديم » والإعراض عنه والانتقاص له والاستخفاف به . وعندئذ أحسّ الدكتور طه نفسه بالخطر ، وهو هو الذي أضاء لهم الطريق بالضجّة التي أحدثها كتابه « في الشعر الجاهلي » !!

كان إحساس الدكتور بهذا الخطر الذي تولّى هو كبر أحداثه ، ظاهراً جدّاً ، ففي يناير سنة ١٩٣٥ = بعد تسع سنوات من صدور كتابه : « في الشعر الجاهلي » ، سنة ١٩٢٦ = بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات انتهى منها في ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكان مُحصّلها رجوعاً صريحاً عن ادعائه الأوّل في سنة ١٩٢٦ ، الذي أعلنه في أوّل كتابه ، وهو قوله : « إن الكثرة المطلقة مما تُسمّيه شعراً جاهليّاً ، ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي مُنتحلة مُختلقة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثّل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم ، أكثر مما تمثّل حياة الجاهليين ، وأكاد لا أشكّ في أن ما بقي من الشعر

الجاهليّ الصحيح قليل جداً ، لا يمثّل شيئاً ولا يدلّ على شيء » ، [في الشعر الجاهلي ص : ٧] . (١)

بدأ الدكتور هذه المقالات بمقالة عنوانها : « أثناء قراءة الشعر القديم » ، (٢) وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : « إنكم لتشقّون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحّون علينا فيه ، وتعيّبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير في درسه وحفظه وتذوّقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن في القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها » إلى آخر ما صوّر به الدكتور حقيقة إحساسه بآراء من يُحيطون به من جيلنا الذي بلغ الفِطَام واستقلّ .

ثم قال بعد ذلك (ص : ٩ من حديث الأربعة ج : ١) : « وقد تحدّث إلى المتحدّثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرّون ، ويظهر أنهم سيكثرّون كلما تقدّمت الأيام » ، وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه !
وسأحاول هنا أن أخصّ ما قاله الدكتور طه بألفاظه هو ، لا بألفاظي ، لأنها شهادة أستاذ كبير ، يقول :

« والذين يظنّون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا
« خيراً خالصاً يخطّون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا
« شراً غير قليل ... فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود
« وجهل ، كما كان التعصّب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً .

(١) قد بينت في بعض مقالاتي أن الدكتور طه ، قد رجع عن أقواله التي قالها في الشعر الجاهلي ، بهذا الذي كتبه ، وبيّض ما صار حتى به بعد ذلك ، وصارح به آخرين ، من رجوعه عن هذه الأقوال . ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يبرّأ به مما قال أو كتب . وهكذا كانت عادة « الأساتذة الكبار » ! يخطّون في العلن ، ويتبرأون من خطّهم في السر !!

(٢) انظر « حديث الأربعة » الجزء الأول (من ص ٩ - ١٧) .

« هذا الشاب ، أو هذا الشيخ ، الذي أقبل من أوربة »
« يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسنُ الرطانة بإحدى اللغات »
« الأجنبية ... يجلسُ إليك وإلى غيرك متنفخاً متنفساً ، »
« مؤمناً بنفسه وبدرجاته ويعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ، »
« ثم يتحدثُ إليك كأنه ينطق بوحى أبولون . فيعلنُ إليك »
« في حَرَمٍ وحَرَمٍ أن أمر « القديم » قد انقضى ، وأن الناس »
« قد أَظْلَمَهم عصر « التجديد » وأنَّ الأدب القديم يجبُ »
« أن يُتْرَكَ للشيوخ الذين يشتدقون بالألفاظ ، ويملاؤن »
« أفواههم بالقاف والطاء وما أشبهها من الحروف الغلاظ ، »
« وأن الاستمساك بالقديم حمود ، والاندفاع في الحياة إلى »
« أمام هو التطوُّر ، وهو الحياة وهو الرقيُّ . هذا الشاب »
« وأمثاله ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، لأنه لم يفهم »
« هذه الحضارة على وجهها ، ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر »
« القديم ولا تنفِرُ منه ولا تنصرف عنه ، وإنما تحبُّه وترغبُ »
« فيه وتُحِبُّ عليه ، لأنها تقوم على أساسٍ منه متينٌ »
« هذا الشاب ضحيةٌ من ضحايا الحضارة الحديثة ، »
« أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشُرُّه ليس مقصوداً »
« عليه ، وإنما يتجاوزُه إلى غيره من الناس . فهو يتحدثُ ، »
« وهو يعلمُ ، وهو يكتبُ ، وهو في هذا كُلِّه ينفثُ السُّمَّ ، »
« ويفسدُ العقول ، ويمسُخُ في نفوس الناس المعنى الصحيح »
« لكلمة « التجديد » . فليس التجديد في إماتة القديم ، »
« وإنما التجديد في إحياء القديم ، وأخذ ما يصلحُ منه للبقاء . »
« وأكادُ أَتخذُ الميلَ إلى إماتة القديم أو إحيائه في »

« الأدب ، مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تُلْهِمُهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم »
« حين تُلْهِمُهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ، ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا منها صُوراً وأشكالاً ، وقلدوا أصحابها تقليد القردة ، لا أكثر ولا أقل !! »

« والذين تَلَفَّتْهُم الحضارة الحديثة إلى أنفُسِهِم ، وتدفعُهم إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بأن لا حياة لمصر إلا إذا عُيِّنَتْ بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عناية بما يمَسُّ حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة = هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين . »

وهذه الشهادة ، من أحد الأساتذة الكبار ، الذين سئوا لمن بعدهم السُّنَنُ فى الحياة الأدبية وفى مناهج تفكيرها ، شهادة مهمة جداً لتاريخ الحياة الثقافية التى امتدَّتْ بعدهم إلى يومنا هذا ، بَلْ هى تكشف عن جُذُور التدمير المفرع الذى يشمل اليوم المُجْتَمَعَ العربى كُلَّهُ حيث تُنْطَقُ العربية ، ^(١) لا بَلْ حيثُ يَدِينُ غير العرب بالإسلام ، ويوجب عليهم إسلامُهم أن يضْعُوا العربية فى المقام الأول ، لأن إسلامهم لا يكون إسلاماً

(١) لم ينتصب أحد لوصف هذا التدمير المفرع الذى يشترك فى جريمته مثقفون كثيرون ، فى الأدب ، وفى العلم ، وفى التاريخ ، وفى الفلسفة ، وفى الاجتماع ، وفى السياسة ، وفى الفن كله من مسرح وسينما وموسيقى وغيرها ، وكل منهم ، كما يقول الدكتور طه : « ينفث السم ويفسد العقول ويمسح فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد » . وقد زاد الأمر ، فلم يبق مقتصر على التعليم والكتابة والتأليف والصحافة ، بل دخل كل بيت دخولاً مفرعاً عن طريق الإذاعة والتلفزيون ، بلا رقيب ولا حسيب !

إِلَّا بِالْقُرْآنِ ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ، وَإِلَّا بِسُنَّةِ الرَّسُولِ الْأُمِّيِّ الْعَرَبِيِّ ، ﷺ ، وَهِيَ أَيْضاً بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .

وَلَيْسَ مِنْ هَمِّي هُنَا أَنْ أَفْشِرَ هَذِهِ الشَّهَادَةَ ، وَلَا أَنْ أَوْضِّحَ مَدَى صِدْقِهَا حَيْثُ صَدَقَ تَوَقُّعُ الدَّكْتُورِ فِي تَكَاثُرِ عَدَدِ مَنْ وَصَفَهُمْ مِنْ « الْمُتَقَفِّينَ » فِي شَهَادَتِهِ ، وَأَخْشَى أَنْ أَقُولَ إِنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ ، عَلَى نَقْصِهَا ، تَشْمَلُ عَامَّةَ الْمُتَقَفِّينَ فِي زَمَانِنَا هَذَا إِلَى سَنَةِ ١٩٧٧ = وَلَكِنْ الَّذِي يَجِبُ عَلَيَّ أَنْ أَقُولَهُ : إِنَّ شَهَادَةَ الدَّكْتُورِ عَلَى اخْتِصَارِهَا ، إِنَّمَا هِيَ وَجْهٌ آخَرٌ لِشَهَادَتِي الَّتِي كَتَبْتُهَا هُنَا ، قَالَهَا هُوَ مِنْ مَوْقِعِ « الْأُسْتَاذِيَّةِ » ، وَقُلْتُهَا أَنَا مِنْ مَوْقِعِي بَيْنَ أَفْرَادِ جِيلِي الَّذِي أَنْتَمَى إِلَيْهِ ، وَهُوَ جِيلُ الْمَدَارِسِ الْمَفْرَّغِ مِنْ كُلِّ أَصُولِ ثِقَافَةِ أُمَّتِهِ ، وَهُوَ الْجِيلُ الَّذِي تَلَقَّى صَدْمَةَ التَّدْهُورِ الْأَوَّلِي ، حَيْثُ نَشَأَ فِي دَوَامَةٍ مِنَ التَّحَوُّلِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَالثَّقَافِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، كَمَا أَشْرْتُ إِلَيْهِ آتِئاً [ص : ١٦١] .

...

ثُمَّ قُلْتُ فِي خَتَامِ مَا سَمِيَتْهُ « لَحْظَةٌ مِنْ فُسَادِ حَيَاتِنَا الْآدِيبِيَّةِ » [كِتَابُ الْمُنْتَبَى : ١٢٢] ،

١٢٣ .

أَمَّا الْآنَ ، فَإِنِّي أَتَلَفْتُ إِلَى الْأَيَّامِ الْغَابِرَةِ الْبَعِيدَةِ ، حِينَ كُنْتُ أَشْفِقُ مِنْ مَعْبَةِ السَّنَنِ الَّتِي سَنَّهَا لَنَا الْأُسَاتِذَةُ الْكِبَارُ ، كَسَنَةِ « تَلْخِيصِ » أَفْكَارِ عَالَمٍ آخَرَ ، وَيَقْضِي أَحَدُهُمْ عَمْرَهُ كُلَّهُ فِي هَذَا التَّلْخِيصِ ، دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِأَنَّهُ أَمْرٌ مُحْفُوفٌ بِالْأَخْطَارِ ، وَدُونَ أَنْ يَسْتَنْكَفَ أَنْ يَنْسِبُهُ إِلَى نَفْسِهِ نَسْبَةً تَجْعَلُهُ عِنْدَ النَّاسِ كَاتِباً وَمَوْلاً وَصَاحِبَ فِكْرٍ ، هَذَا ضَرْبٌ مِنَ التَّدْلِيسِ كَرِيهٍ . وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ أَهْوَنُ مِنْ « السُّطُو » الْمَجْرَدِ ، حِينَ يَعْمَدُ السَّاطِي إِلَى مَا سَطَا عَلَيْهِ ، فَيَأْخُذُهُ فِيمَرْقَهُ ثُمَّ يَفَرِّقُهُ وَيُغْرِقُهُ فِي ثُرْتُرَةٍ طَاقِيَةٍ ، لِيَخْفَى مَعَالِمُ مَا سَطَا عَلَيْهِ ، وَلِيُصْبِحَ عِنْدَ النَّاسِ صَاحِبُ فِكْرٍ وَرَأْيٍ وَمَذْهَبٍ يُعْرَفُ بِهِ ، وَيُنْسَبُ كُلُّ فَضْلِهِ إِلَيْهِ . وَمَعَ ذَلِكَ ، فَهَذَا أَيْضاً أَهْوَنُ مِنْ « الْاسْتِخْفَافِ » بِتَرَاتٍ مُتَكَامِلٍ بِلَا سَبَبٍ ، وَبِلَا بَحْثٍ ، وَبِلَا نَظَرٍ ، ثُمَّ دَعْوَةٌ مِنْ يَعْلَمُونَ عِلْماً جَازِماً أَنَّهُ غَيْرُ

مطيق لما أطاقوا ، إلى الاستخفافِ به كما استخفُّوا . ومع ذلك أيضاً ، فهذا أهون مما فعلوه وسنَّوه من سنَّةِ « الإِرهابِ الثَّقافِيِّ » الذى جعل أَلْفاظَ « القديم » و « الجديد » و « التقليد » و « التجديد » و « التخلُّف » و « التقدُّم » و « الجمود » و « التحرُّر » ، و « ثقافة الماضى » و « ثقافة العصر » = سياطاً مُلْهِمةً ، بعضها سياطٌ حَثٌّ وتخويفٌ لمن أطاعَ وأبى ، وبعضها سياطٌ عذابٌ لمن خالفَ وأبى .

أَتَلَفْتُ اليومَ إلى ما أَشَقَقْتُ منه قديماً من فعلِ الأساتذة الكبار ! لقد ذهبوا بعد أن تركوا ، من حيث أرادوا أو لم يريدوا ، حياةً أدبيَّةً وثقافية قد فسدت فساداً وبيلاً على مَدَى نصفِ قرنٍ ، وتجدَّدتِ الأساليبُ وتنوَّعت ، وصار « السطو » على أعمالِ الناسِ أمراً مألوفاً غيرِ مستنكر ، يمشى فى الناسِ طليقاً عليه طيلسانُ « البحثِ العلمى » و « عالميَّةِ الثقافة » و « الثقافة الإنسانية » ، وإن لم يكن محصولُهُ إلا ترديداً لقضايا غريبة ، صاغها غرباء صياغةً مطابقةً لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم فى كُلِّ قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، قُلْ ذلك فى الأدبِ والفلسفة والتاريخ والفنِّ أو ما شئت ، فإنَّه صادقٌ صِدْقاً لا يتخلَّف . فالأديبُ مِنَّا مصوَّرٌ بقلمِ غيره ، والفيلسوفُ مِنَّا مفكِّرٌ بعقلِ سواه ، والمؤرِّخُ مِنَّا ناقدٌ للأحداثِ بنظرِ غريبٍ عن تاريخه ، والفنانُ مِنَّا نابضٌ قلبُهُ بنبضِ أَجْنَبِيٍّ عن تراثِ فنِّه .

وأما الثَّرَثُ والاستخفافُ ، فحدَّثَ ولا حرج ، فالصَّبِيُّ الكبيرُ يهزأُ مزهواً بالخليلِ وسيبويه وفلانٍ وفلانٍ ، ولو بُعِثَ أحدهم من مَرَقَدِهِ ، ثم نظرَ إليه نظرةً دونَ أن يتكلَّم ، لألجمه العرْقُ ، ولصارَ لسانُهُ مُضْغَةً لا تتلجَّجُ بين فكَّيه ، من الهيئَةِ وحدَه علمه الذى يستخفُّ به ويهزأُ .

والله المستعانُ على كُلِّ بليَّةٍ ، وهو المسئولُ أن يكشفَها ، وهو كاشفُها بمشيئته ، رَحْمَةً بِأَمَّةٍ مسكينة ، هؤلاء ذُنُوبُها كانوا ، وأشباهُ لهم سبقوا ، وغفرانك اللهم .

أبْرُهُ
محمود محمد شاكر

الأحد ٢٥ من ذى القعدة سنة ١٣٩٧

٦ من نوفمبر سنة ١٩٧٧

مكتبة جامعة القاهرة

قسم المكتبات والمعلومات

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

الفهارس

صنعها

الأستاذ/ أحمد الشريف

رئيس المجلس المحلى بأسوان

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

مكتبة جامعة القاهرة

١ - الحديث النبوي الشريف

« ألا لا يمنع رجلا هبة الناس » ١٥٠ ، ١٥

« من سئل عن علم فكتمه » ٨٤ ، ١٢٢

٢ - الأمثال العربية

« اتخذ الليل جملاً » ٩٤

« التقت حلقتا البطان » ٣٨ ، ٥٣

« بلغ النسيْل الزُّبَى » ٨١

« لليدين وللضم » ٩٤

« مِثْلَ تَحِلَّةِ الْقِسْمِ » ٧٩

• • •

٣ - الأمثال العامة

« مَا أَسْخَمَ مِنْ سِتِّي إِلَّا سَيْدِي » ۱۱۱

٤ - الشعر

(۱) خرجتُ مع البازی علی سواد

بشار : ۹۴

(٢) متطلب في الماء جذوة نار

أبو الحسن التهامي : ٦٨

(٣) وفي الصدر خَزَّازٌ من الوجد

للشماخ : ١٩

حَامِزٍ

(۴) أم كان شيئاً كان ثم انقضى؟

لِلْعَرْجَى : ٢٥

(٥) أَنْ تَحْسَبُ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَاحِمُهُ

المتنبی : ۲۸

وَرَمٌ

(٦) لَعَلَّ لَهُ عَذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ

1. 2. 9A :

(۷) مَفْتُحَةُ عُيُونُهُمْ نِيَامُ

المتنبى : ١٢٠

(٨) وعقولهن تجول في الأحلام البحترى : ١٥١

(٩) هووا ، وما عرفوا الدنيا

وما فطنوا المتنبي : ٢٩

(١٠) حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن : ٢٨

° ° °

٥ - الكتب

أباطيل وأسمار لأبي فهد : ٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٥٥ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ١٤٤

أنوار الجليل في أخبار مصر وتوفيق بن إسماعيل للطهطاوى : ١٤٤

الإيضاح لأبي علي الفارسي : ١١

البردة للبوصيري : ١٢٥

برنامج طبقات فحول الشعراء لأبي فهد : ١٨ ، ٦٧ ، ٧١

تاج العروس للزبيدي : ٨٢

تاريخ الجبرتي : ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٣

تاريخ الحركة القومية للرافعي : ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ،

١٢٤ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤

تفسير القرآن الكريم للطبري : ١٩

جمهرة نسب قريش لابن بكار : ١٩

حديث الأربعاء لطف حسين : ١٦٣

خزانة الأدب للبغدادى : ٨٢

دراسات عربية وإسلامية : ٢٠

دلائل الإعجاز للجرجاني : ٩

الرسالة الشافية للجرجاني : ٨ ، ٩

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا : ١٥١

سنن الترمذى : ٥

سنن أبي داود : ٨٤

سنن ابن ماجه : ٥

الشفاء للقاضى عياض : ١٢٥

طبقات فحول الشعراء لابن سلام بشرح أبي فهد : ١٩

فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض : ١٠٩ ، ١٠٥
في الشعر الجاهلي لطله حسين : ٣٠
القرآن الكريم : ٩ ، ١٠ ، ٣٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤٢
القوس العذراء شعر أنى فهر : ١٩
القوس العذراء وقراءة التراث للدكتور محمد أبو موسى : ٢٠
الكتاب لسيبويه : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤
المتنبى لأنى فهر : ٥ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ١٤٩
المتنبى : ليتنى ما عرفته لأنى فهر : ٧
المسند لابن حنبل ، بتحقيق أخى أحمد محمد شاكر : ٥ ، ٨٤
المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم لإدوار وليم لين : ١٢٣
المغنى للجرجاني : ١١
المقتصد للجرجاني : ١١
ودخلت الخيل الأزهر لمحمد جلال كشك : ٩١ ، ١٣٣
وصف مصر : ٩٧

• • •

٦ - الصحف والمجلات

الأهرام : ٩١ ، ١٤٨

الثقافة : ٧

جريدة الجهاد : ١٦٢

الكتاب : ٢٠

المقتطف : ١٦

الهلال : ٨١

• • •

٧ - الأعلام

- آدم (عليه السلام) : ٢٦ ، ٧
 الآمدي : ٢٥
 (إبراهيم عليه السلام) : ٥
 إبراهيم بن محمد علي (الخديوي) : ١٣٨
 إبراهيم النخعي : ٢٤
 إبليس : ٩٠
 إحسان عباس : ٢٠
 أحمد حافظ عوض : ١٠٨ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٠٩
 أحمد بن حنبل : ٨٤ ، ٢٤ ، ٥
 أحمد محمد شاکر : ٨٤
 إسماعيل (عليه السلام) : ٥
 إسماعيل خديوي مصر : ١٥٢
 الأشعري (أبو الحسن) : ٢٥
 الألفي (محمد بك) : ١٢٧ ، ١٢٣
 الأوزاعي : ٢٤
 البخاري : ٢٤
 بشار بن برد : ٩٤
 البغدادي (عبد القادر) : ٨٨ ، ٨٢ ، ٢٥
 ٨٩ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٤٥
 أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) : ٣٣
 البكري (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩
 البيروني : ٢٥
 بيكن (روجر) : ٥٥ ، ٣٩
 تاليران : ١١٦ ، ١٢٣
 الترمذي : ٨٤ ، ٥
 توفيق بن إسماعيل : ١٤٤
 توما الأكريني : ٥٥ ، ٤٠
 ابن تيمية : ٢٥
 الجاحظ : ٢٥
 الشيخ الجارم : ٩٥
 الجبرتي الكبير (حسن بن إبراهيم) : ٨٢
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٨
 ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨
 ١١٩ ، ١٤٥
 الجبرتي : (المؤرخ : عبد الرحمن) : ٨٣
 ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩
 ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٤
 ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١
 الجداوي : ١٢٦
 الجرجاني (عبد القاهر) : ٩ ، ١٠ ، ١١
 ١٣ ، ١٤ ، ٢٥
 أبو جعفر الطحاوي : ٢٤
 جنكيز خان : ١٠٠ ، ١١٩
 جومار (المسيو آدم فرانسوا) : ١٤٠
 ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٧
 ابن حزم : ٢٥
 الحسن البصري : ٩ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٨٠

أبو حنيفة الإمام : ٢٤

الزبير بن بكار : ١٩

زكي نجيب محمود (الدكتور) : ٢٠ ، ٩١

٩٢ ، ١١٩

الزهري (انظر : ابن شهاب الزهري) :

زيد بن ثابت (رضي الله عنه) : ٣٣

الخليل بن أحمد الفراهيدي : ١٤ ، ٢٤

أبو داود : ٨٤

الدمهري (الشيخ مصطفى) : ١٣٥

دندوب : ١٤٨ ، ١٥٣

الدواخلي (الشيخ محمد) : ١٣٠

دي توت (البارون) : ١١٤ ، ١١٥

١١٦

دي ساسي (البارون سلفستر) : ١٤٣

دي شوازل (الدوق) : ١١٤ ، ١١٦

ديكارت (رينيه) : ٢٩

السرسى (الشيخ موسى) : ١٣٠

سعيد الأفغانى : ١٧

أبو سعيد الخدرى : ٥

أبو سعيد السيرافى : ١١

سعيد بن المسيب : ٢٤

سفيان الثوري : ٢٤

ابن سلام الجمحي : ١٩ ، ٢٥

سليمان الحلبي : ٩٤

سيبويه : ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤

٢٥

ابن سينا : ٢٥ ، ٤٠

السيرافى (انظر : أبو سعيد)

سيف الدولة : ٣٩

السيوطى : ٢٥

الرافعى : (عبدالرحمن) : ٩٣ ، ٩٥

١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١١

١٢٤ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٥

الرافعى (مصطفى صادق) : ١٧

روسو (جان جاك) : ١٤٤

ابن رشد الفقيه : ٢٥

ابن رشد الفيلسوف : ٢٥ ، ٤٠

رفاعة الطهطاوى : ٩٢ ، ١٤٢ ، ١٤٤

١٤٥ ، ١٤٧

زاينشك (الجنرال) : ١٢٠

زبيدة (بنت السيد البواب) : ٩٥

الزبيلى (المرتضى) : ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٠٤ ، ١١٨

١١٩ ، ١٤٥

الشافعى : ٢٤

الشبراخيتى (الشيخ يوسف) : ١٣٠

الشرقاوى (الشيخ عبد الله) : ١٢٧ ،

١٢٩

العفيفي (الشيخ عبدالباق بن عبد الوهاب):

١٨٥ ، ١٢٦

العقاد (عباس محمود): ١٧

أبو علي الفارسي: ١١ ، ١٣ ، ١٧

علي بن أبي طالب (رضي الله عنه):

٢٤ ، ١٤ ، ٩

علي عبدالرازق: ١٧

علي بن نصر الجهضمي: ١٤

عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

٣٣ ، ٢٤

عمر مكرم (السيد نقيب الأشراف):

١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،

١٣٧ ، ١٣٦

أبو عمر بن العلاء: ٢٤

عمرو بن العاص (رضي الله عنه):

١٣٠

عيسى بن مريم (عليه السلام): ٤٨ ،

١٩٤ ، ١٢١

فانتور (= فتورة): ٩٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،

الفراء: ٢٥

فولتير: ١٤٤

الفيومي (الشيخ سليمان): ١٣٠

قتادة السدوسي: ٢٤

ابن قتيبة: ٢٥

ابن قيم الجوزية: ٢٥

الشعبي: ٢٤

الشماع: ١٩ ، ٢٠

ابن شهاب الزهري: ٢٤

الشوكاني: ٢٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧

الشيبياني (محمد بن الحسن): ٢٤

الصاوي (الشيخ مصطفى): ١٢٩

صبيح (الطواشي): ١١٣

صروف (فؤاد): ١٧

الصعیدی العدوی: ١٢٦ .

الطبري (أبو جعفر): ١٩ ، ٢٤

طه حسين: ١٧ ، ١٥١ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،

١٦٣

الطهطاوي (رفاعة رافع)

عادل الغضبان: ٢٠

ابن عبد البر: ٢٥

القاضي عبد الجبار المعتزلي: ٢٥

عبد الله بن عباس (رضي الله عنه):

٢٤

عبد الله بن عمر بن الخطاب: ٢٤

عبد الله بن مسعود: ٢٤

العثيمين (الدكتور عبدالرحمن بن سليمان)

١١

العرجي: ٢٥

العريشي (الشيخ عبدالرحمن): ١٢٦ ،

١٢٩

عزام (الدكتور عبد الوهاب): ١٧

محمد (عليه السلام) : ٥٠ ، ٩ ، ٢٣ ،

٥٠ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ١٢٢ ، ١٣٩ ،

١٠٥ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ،

محمد بن عبد الوهاب : ٨٢ ، ٨٨ ،

١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧ ،

محمد أبو موسى (الدكتور) : ٢٠ ،

محمد الأمير (الشيخ) : ١٢٧ ، ١٢٩ ،

١٣٠ ، ١٣٤ ،

محمد خلف الله أحمد : ٩ ،

محمد زغلول سلام : ١٠ ،

محمد علي (سرشمه) (والى مصر) :

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،

محمد الفاتح : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٨٠ ،

السيد محمد الباب : ٩٥ ،

محمد مصطفى هدارة (الدكتور) :

٢٠ ،

محمد هاشم عطية : ١٧ ،

مسلم (الإمام) : ٢٤ ،

مصطفى عبد الرازق : ١٧ ،

مكيافلي (نيكولو) : ٤٣ ، ٧٨ ،

مور (المسيو) : ١١٥ ،

موسى (عليه السلام) : ٤٨ ، ١٢١ ،

مونتسكيو : ١٤٤ ،

مينو (الجنرال) : ٩٥ ، ٩٦ ،

نابليون (بونابرت) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

كرومر (اللورد) : ١٤٨ ،

كشك (محمد جلال) : ٩١ ، ١٣٣ ،

كلايف (روبرت) : ٨٨ ،

كلفن (جون) : ٤٣ ،

كليب (الجنرال) : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ،

كوليس (كريستوفر) : ٥٢ ،

لوثر (مَرتِن) : ٤٣ ،

لويس التاسع : ١١٣ ،

لويس الرابع عشر : ١١٣ ، ١٢٣ ،

لويس الخامس عشر : ١١٤ ،

لويس السادس عشر : ١١٤ ، ١١٥ ،

ليبنز (الفيلسوف) : ١١٣ ، ١١٤ ،

١١٦ ، ١٢٣ ،

الليث بن سعد : ٢٤ ،

لين (ادوار ولیم) : ١٣٢ ، ١٣٣ ،

ابن ماجه : ٥ ،

مارسل : ١٣٤ ،

مالك بن أنس : ٢٤ ،

الميرد (أبو العباس) : ٢٥ ،

المتنبى (أبو الطيب) : ١٧ ، ٢١ ، ٢٨ ،

٢٩ ، ١٢٠ ،

مجالون (المسيو شارل) : ١١٥ ،

١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ،

	١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩
أبو هريرة (رضي الله عنه) : ٨٤	١١٠ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٦
يحيى بن معين : ٢٤	١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٩
المعلم يعقوب : ١٣٣	١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١
أبو يوسف : ٢٤	١٤٧
يوسف بك (المملوك) : ١٢٦	نصر بن علي بن نصر الجهضمي : ١٤

• • •

٨ - المعالم والمؤسسات

الأزهر الشريف (الجامع ، والحنى) : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٤ ،
١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
١٣١ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ،
١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٥

الجامع العتيق بالفسطاط (جامع عمرو) : ٨٩ ، ٩٦

جيش الأقباط : ١٣٣

دار العلوم : ١٥٥

دار المعارف : ٩ ، ٢٠

الدويان : ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٢٩ ، ١٣٤

شركة الهند الشرقية البريطانية : ٨٨ ، ١٠١

شركة الهند الشرقية الفرنسية : ٨٨ ، ١٠١

كرسى البابا : ١٣٢

كنيسة أيا صوفيا : ٤١ ، ٤٢

الكنيسة القبطية المصرية : ١٣٢ ، ١٣٣

الماجنا كارتا : ١٢٨

مدارس الجاليات الأجنبية : ١٥٣

المسرح : ١٥٤

المجمع العلمى الفرنسى : ١٤٠

مدرسة الألسن : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٧

نظارة المعارف العمومية : ١٤٨

• • •

٩ - المواضع والبلدان

- الآستانة : ١١٤ ، ١١٥
 آسية : ٣٦ ، ٤٦
 أرض الهنود الحمر (= أمريكا) : ٥٢ ، ٥٥
 الاسكندرية : ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٨
 ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٤
 إفريقية : ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٣
 ١٠١ ، ١٢١
 أمريكا (انظر : أرض الهنود الحمر)
 انجلترا (انظر : بريطانيا) :
 الأندلس : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧
 ٨٠
 أوربة : ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١
 ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦
 ٨٠ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٧
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٤٠ ، ١٤١
 ١٤٥
 باريس : ١١٣ ، ١٤٣ ، ١٤٥
 البرلس : ١٠٨
 بريطانيا (إنجلترا) : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠
 ٩٧ ، ١١٨ ، ١٣٧
 بغداد : ٣٨
 بلبس (شرقية) : ١٢٧
 بيزنطة : ٤٧
 تركية : ٥٣ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٢
 ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦
 ١١٨ ، ١٢١ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩
 جرجا (مديرية) : ١٤٢
 الجزائر : ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١١٢
 جزيرة العرب : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٧ ، ١٣٨
 ١٣٩ ، ١٤٠
 دار ابن لقمان : ١١٣
 دمشق : ٣٨
 دمياط : ١٠٨ ، ١٣٧
 رشيد : ٩٥
 روسية (= الروسية) : ٤٦ ، ٩٧
 رومية : ١٣٢
 السودان : ٩٨
 سورية : ٩٣ ، ١٠٧
 الشام : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠
 ٤٣ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ١٠١ ، ١١٢
 ١٢١ ، ١٢٣
 شمال إفريقية : ٣٧

القسطنطينية : ٣٦ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥ ،

٤٨ ، ٤٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١١١

١١٢

مصر : ٣٥ ، ٣٧ ، ٥٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ،

٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ،

١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٤٦ ، ١٤٧

المغرب : ٣٨ ، ٥٢ ، ٩٨ ،

المنصورة : ١١٣

المنوفية : ١٢٠

الهند : ٣٥ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ،

٨٩ ، ٩٠ ، ١١٨ ،

هولندا : ٩٧

الوجه البحري : ١٠٤ ، ١٣٤

اليمن : ٨٢ ، ١١٧

الصعيد : ١٠٤ ، ١٤٣ ، ١٤٤

الصناديق : ٩٩

الصين : ٣٥

طنطا : ١٣٧

طهطا : ١٤٢

عكا : ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،

غرناطة : ٨٠

فرنسا : ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ،

٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٣ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ،

١٢٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ،

١٤٨

القسطاط : ٨٩ ، ٩٦

القاهرة : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،

٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١١ ،

١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٤٢ ، ١٤٣

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا

- ٥ - فاتحة الرسالة / ٦ - مدخل الرسالة ، وبدء الرحلة / ٧ - الرحلة إلى المنهج / ٨ - الاهتمام إلى المنهج ، وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه / ١٠ - تفسير جديد لأزمة الفعل عند سيبويه / ١٤ - سبب تأليف سيبويه كتابه / ١٥ - منهجى فى تذوق الكلام / ١٦ - منهجى فى التذوق ، وكتابى «المتنبى» كيف استقبل / ١٧ - كتابى «المتنبى» كيف استقبل / ١٨ - لم أفارق منهجى قط فى مقالاتى وكتبى / ١٩ - لم أفارق منهجى فى «القوس العذراء» (وهى شعر) / ٢٠ - تذوق شعر الشماخ / ٢١ - كلام فى «المنهج» و «ما قبل المنهج» ، ما هو ؟ / ٢٢ - «ما قبل المنهج» ، المادة ، والتطبيق / ٢٣ - كيف نشأ الخلاف بينى وبين المناهج الأدبية السائدة / ٢٤ - أصول «المنهج» من عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم / ٢٥ - أصول «ما قبل المنهج» ، وبيان ذلك / ٢٧ - أصول «ما قبل المنهج» ، اللغة وأسرارها / ٢٨ - أصول «ما قبل المنهج» ، الثقافة وأسرارها ، «البراءة» من «الأهواء» / ٢٩ - العواصم التى تحمى «ما قبل المنهج» / ٣٠ - العواصم التى تأتى من قبل «الثقافة» / ٣١ - رأس كل ثقافة هو «الدين» ، الأصل الأخلاقى / ٣٢ - «الأصل الأخلاق» الفريد بالكمال فى ثقافتنا / ٣٤ - تاريخ نشأة الخلاف بينى وبين المناهج / ٣٥ - التفسير الصحيح لقضية «الحروب الصليبية» / ٣٦ - إخفاق «الحروب الصليبية» ، ثم فتح القسطنطينية / ٣٧ - تاريخ «المسيحية الشمالية» فى المازق (أوربة) وتفسيره / ٣٨ - إخفاق «الحروب الصليبية» وعودتها إلى ديارها (أوربة) / ٣٩ - بحث «المسيحية الشمالية» عن مخرج ، ظهور «يكن» وطبقته / ٤٠ - ظهور «توما الإكوينى» وطبقته ، واستمداهم من المسلمين / ٤١ - فاجعة فتح القسطنطينية وأثرها فى أوربة / ٤٢ - فتح القسطنطينية لم يكن شرأ على أوربة / ٤٣ - الإصلاح الدينى فى أوربة ، «لوثر» و «كلفن» ، واستمداهم من المسلمين / ٤٤ - مراحل الصراع بين المسيحية الشمالية ودار الإسلام / ٤٥ - المرحلة الرابعة هى التى أدت إلى «عصر النهضة» / ٤٦ - إعداد أوربة نفسها لحرب صليبية رابعة / ٤٧ - مدد «عصر النهضة» كله مأخوذ من دار الإسلام / ٤٨ - بدء ظهور طبقة «المستشرقين» وأهدافهم ووسائلهم / ٤٩ - وصف حقيقة طبقة «المستشرقين» وعملهم للتبشير والاستعمار / ٥٠ - أهداف المسيحية الشمالية وحقيقتها / ٥١ - أهداف المسيحية الشمالية ووسائلها / ٥٢ - انفك حصار المسيحية الشمالية باكتشاف أمريكا ، وكيف كان ذلك / ٥٣ - إعادة الهنود الحمر هو خلق الحضارة الأوربية ، «الاستشراق» / ٥٤ - عمل «الاستشراق» و «المستشرقين» ونهب ثرائنا / ٥٥ - حقيقة «الاستشراق» ، وظهور دهاقيه الكبار / ٥٦ - «المستشرق» حامل هموم المسيحية الشمالية ويمثل أهدافها / ٥٧ - لأى هدف كتب «المستشرقون» ما كتبوا؟ وصف «المستشرق» / ٥٨ - ما كتبه «المستشرقون» موجه إلى المثقف الأوربى لا غير / ٥٩ - الصورة التى صوروا بها العالم الإسلامى للمثقف الأوربى / ٦٠ - عمل «الاستشراق» موجه للمثقف الأوربى لحمايته / ٦١ - «الاستشراق» يطلب إقناع المثقف الأوربى لحمايته / ٦٢ - كتب «المستشرقين» لا توصف بأنها علمية / ٦٣ - أسباب نفى صفة «العلمية» عن كتب «المستشرقين» / ٦٥ - «المستشرق» عار من شروط «المنهج» و «ما قبل المنهج» / ٦٦ - نشأة «المستشرق» تمنعه من الدخول تحت شروط «المنهج» الثلاثة / ٦٧ - شروط «المنهج» : «اللغة» و «الثقافة» و «البراءة من الأهواء» / ٧٠ - تنمية القول فى خلق «المستشرق» من شروط «المنهج» / ٧١ - سر «الثقافة» المثلث ، ولم ؟ / ٧٢ - طوران فى الطريق إلى «الثقافة» : «الدين» و «اللغة» / ٧٤ - «الدين» و «اللغة» غير قابلين للفصل / ٧٥ - «ثقافة عالية» كلمة باطله ، ولم ؟ / ٧٦ - لغة «المستشرق»

و « ثقافته » تخرجه من شروط « المنهج » / ٧٧ - دوافع « المستشرق » في الكتابة حقاً له / ٧٨ - ختام قضية « الاستشراق » / ٧٩ - قصة ملوها المضجكات والمبكيات / ٨٠ - كيف كان الأمر في القرن الحادى شعر الهجرى / ٨١ - « النهضة » ورجالها في القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجرين / ٨٣ - الجبرئى الكبير والإفرنج (المستشرقون) / ٨٤ - الفرق بيننا وبين أوربة في ذلك الوقت / ٨٥ - « الاستشراق » ونحوه من نهضتنا يومئذ / ٨٦ - « الاستشراق » ونذيره للمسيحية الشمالية / ٨٧ - « الاستشراق » وعمله للاستعمار / ٨٨ - صراع بريطانيا وفرنسا في دار الإسلام في الهند / ٨٩ - وقع نذير « الاستشراق » في فرنسا ، نابليون / ٩٠ - « نابليون » السفاح مدمر القاهرة / ٩١ - قصة مفتحمة / ٩٣ - حقيقة « الحملة الفرنسية » في مصر / ٩٥ - « مينو » الخبيث ، وجلاء الفرنسيين عن مصر / ٩٦ - تدمير القاهرة على يد نابليون وحملته / ٩٧ - الحملة الفرنسية ومستشرقوها وسرقة نفائس الكتب / ٩٩ - سرقة الكتب لوأد اليقظة ، وسفح دماء رجالها / ١٠٠ - سفح الدماء لوأد اليقظة / ١٠١ - جهاز « الاستشراق » وعمله في دار الإسلام / ١٠٢ - « الاستشراق » وفكرة نابليون في خديعة « الديوان » / ١٠٤ - « الاستشراق » كامن في أحشاء جزائر القاهرة نابليون / ١٠٥ - سياسة جزائر القاهرة في « إنشاء الديوان » / ١٠٦ - إخفاق نابليون ومستشرقوه في ترويض الجماهير المصرية / ١٠٧ - خيبة أمل الجزائر في « تدجين » المشايخ / ١٠٨ - رسالة نابليون إلى خليفته كليبر وخطرها / ١٠٩ - نص الرسالة وكيف عبث بها الراقى ، فضيحة !! / ١١٢ - « المستشرقون » وأهدافهم ووسائلهم ، وزحفهم البطيء / ١١٣ - « لينتتر » الفيلسوف الألماني يحرض فرنسا على غزو مصر / ١١٤ - تقارير الساسة الفرنسيين الداعية لغزو مصر / ١١٦ - تواريخ التقارير مطابقة لتاريخ « اليقظة » في مصر / ١١٩ - إرهاب نابليون ومقاصده في رسالته إلى « كليبر » / ١٢٠ - مقاصد « نابليون » وإرهابه وجذور قضيتنا مع الغرب / ١٢١ - عمل « الاستشراق » ، والزحف الشامل على دار الإسلام / ١٢٢ - جاليات المسيحية الشمالية في قلب دار الإسلام / ١٢٣ - تعبئة « الاستشراق » اليهود والأرمن والأروام والمالطيين / ١٢٤ - « المستشرقون » وإقامتهم الطويلة في دار الإسلام في كل زى / ١٢٥ - عمل « الاستشراق » في إقامته الطويلة بدار الإسلام في مصر / ١٢٦ - بدء سقوط هبة المشايخ عند المماليك المصرية / ١٢٧ - الثورة على المماليك ، والمشايخ الذين كانوا على رأسها / ١٢٩ - ثورة المشايخ على المماليك جزء من « اليقظة » / ١٣٠ - المشايخ الثوار ، كيف استجابوا لدعوة نابليون لإنشاء « الديوان » / ١٣١ - ما كان « الاستشراق » يوحى إلى المشايخ عند ذئو الحملة الفرنسية / ١٣٢ - ما كان « المستشرقون » يفعلونه مع المماليك ، ومع الكنيسة القبطية / ١٣٣ - حقد « الاستشراق » على الكنيسة القبطية لما لم تستجب لإغرائهم / ١٣٤ - سر استجابة المشايخ لنابليون وديوانه / ١٣٥ - إسناد المشايخ ولاية مصر لمحمد على / ١٣٦ - صفة أخلاق محمد على ، ومراقبة « الاستشراق » له / ١٣٧ - غدر محمد على بالذى ولآه مصر ، السيد عمر مكرم / ١٣٨ - إحاطة « القناصل » بمحمد على ، وتحريضه على غزو جزيرة العرب / ١٣٩ - قصة فكرة البعثات إلى أوربة / ١٤٠ - « جومار » وتطويرة مشروع نابليون إلى بعثات طلبية / ١٤٢ - رفاعة الطهطاوى وخبره ، وما فعل به « المستشرقون » / ١٤٥ - حقيقة « مدرسة الألسن » التى أنشأها رفاعة الطهطاوى ، وخطرها / ١٤٦ - خاتمة الرسالة ، وثمة القول في خطر « مدرسة الألسن » / ١٤٧ - الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وجعل التعليم كله في قبضة المبشر « دنلوب » / ١٤٨ - « تفرغ » طلبة المدارس من ماضيهم ، وبعث الانتماء إلى « الفرعونية » البائدة / ١٤٩ - ختام الرسالة ؛ والحمد لله وحده .

١٥١ - ذيل الرسالة ، قصة « التفرغ الثقافى » ..

١٦٩ - الفهارس العامة .

١٨١ - فهرس رسالة في الطريق إلى ثقافتنا .